

سائح في

رياض القرآن

دكتور

محمد محمود عمارة

الناشر

مكتبة الإيمان - بالمنصورة

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

عمارة ،محمد محمود .

سائح في رياض القرآن / بقلم محمد محمود عمارة . ـ ط٢ . ـ

المنصورة : مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦ .

٣٣٦ ص ، ٢٤x١٧سم

تدمك 0 ـ 335 ـ 290 ـ977

١ـ الإنسان في القرآن .

٢ ـ الدعوة الإسلامية .

أ ـ العنوان .

مكتبة الإيمان

٢٢٩,٤٥٧٣

رقـــم الإيـــداع : ٢٠٠٦/١٠٧٦٠

«كمبيوتر ٠١٢٢٥١١٢٠٣»



مقدمة الطبعة الثانية

وفاء وتقدير للحاج / فتحي هاشم

«صاحب مكتبة الإيمان بالمنصورة»

ما زلت أذكر هذه الليلة من ليالي قريتي:

لقد امتنعت أعينها عن الغمض!

وكنت واحدًا منها...

سهرت معها ... أترقب الصباح... لأستقبل معه صوت الشيخ القارئ... من قريتي... عبر المذياع داخلاً بها التاريخ... بهذا الحدث العظيم!

وأستشعر - الآن - عمق الاعتزاز بهذه المناسبة... حين أنجبت القرية... شيخًا يضعها في نقطة الضوء... بعدما كانت نائمة بعيدًا في أحضان الوادي... لا يحس بها أحد!

ثم رحل قارئ القرآن...

وجاء «مفسر» هذا القرآن... فماذا حدث؟

كان المتوقع أن تكون القرية أكثر اعتزاز بمفسر القرآن الذي تأكد به كيف كان رحمها خصبًا... وما يزال عطاؤها موصولاً... نعمة منه تعالى... تُذكر فتُشكر.

طمع كاذب ...

وأمل خائب...

وفي ضوء هذا المعنى حملت من باكورة كتبي هذه السوانح هدية إلى المؤسسة الثقافية الرياضية في القرية...

ولكن حامل «الأمانة» لم يكن أمينًا...

فلم يبلغ بها مستقرها في «مكتبة المؤسسة» الثقافية...

وربما تخلص منها - وبالأمر - فألقاها في البحر... طعامًا للحيتان... بدل أن يفيد منها إنسان!

وهكذا، توضع الأفكار على أجنحة الهواء، أو فوق أمواج المحيط... ليتفرد بالساحة فكر معين... ومفكرون معينون... انطلاقًا من قاعدة خاطئة تقول: **من ليس معي... فهو عليّ**...

وهكذا أيضًا يكون الترفق بالغربان... بينما يكون العنف من نصيب الحمائم!

يا سارق المدفع من حصنه ... هنئت بالصحة والعافية

أخاف إن عدت لمثلها ... أن تسرق المدفع والحامية[1]

---

(١) قال شوقي هذين البيتين لما سرق مدفع من «القلعة».

الغنى القرآني ... غير القرآني!

لقد عرض القرآن الكريم وجهة نظر الخصوم - على تفاهتها - ثم كر عليها ... فدمرها...

فما لهؤلاء القرآنيين ... لا يلتزمون بمنهج القرآن... حين يضيقون بوجهة النظر الأخرى؟!

وتحاول أن تبكي... أو تتباكى على هذا التناقض فلا تجد أحدًا يساوي البكاء عليه!

وهل يستحق البكاء عليه رجل يتجرع السم، أعني: يتقبل التناقض... ثم ينتظر أن يموت غيره بهذا السم!

وتضرب كفا بكف:

كيف تتحول أصابع أخيك إلى أنياب وأظفار، بينما الابتسامة لا تفارقه؟!

ثم تتعجب حتى تقرر ألا تتعجب بعد ذلك.

كيف يكون المسلم عدوًا لنفسه... حين يرفض من يعلي قدره... ويرفع ذكره... ولو كان من دمه ولحمه؟!

ولكنها الحقيقة... كلما ازدادت وضوحًا... كلما كثر حسادها... وأن وراء الرجل الناجح رجل آخر يستعد أن يطعنه! وهذا «الرجل الآخر» هو «ابن عباد» الذي قيل فيه:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت يداه بالجود حتى شابه الديما

فإنها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

ولكن، لا بأس... ولا يأس... فلنتحمل أقدارنا ... فهذا قدرنا.

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا ـ وأخرى بنا مجنونة لا نريدها.

عبث الصغار:

إنه العبث إذن... العبث الذي يأكل المروءة...

ويا ساكني الفسطاط ما بال كتبنا ثوت عندكم شهرًا... ولم يأتنا رد

أفي الحق أنا ذاكرون لعهـــدكم وأنتم علينا ليس لعطفكـــمو رد؟!

ومرة أخرى، فلا بأس.

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها فإن قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

ألا إن «العـود» في أرضـه نوع من الحطب... وأنت رمـز عـائلتك... وهم يستحسنون عملك.

ولكن بشرط أن اكون ... غائبًا!

وسواء على كتبنا أن كانت في البحر ... أو في صناديق... القمامة... فقـد كان لا بد من عـوض إلـهي ... يؤكـد للمتـعصـبين الظانين بالله ظن السوء... يؤكد لـهم... أن الفجر قام... وأن الرد الإلـهـي حاسم وقاصم، وكان هـذا الرد هو: الصديق العزيز الحاج **فتحي هاشم** والذي تكفل بنشر ما أراد الأقرباء أن يدفنوه!!

ومنها هذه السوانح التي بين يديك، لقد كان الحاج **فتحي هاشم** ضوء الفجر الذي بدد الله به الظلام... مؤكدًا هذه الحقيقة وهي:

أن الأعزاء لا يموتون أبدًا يوم يغيبون عن الحياة...

وإنما يموتون فقط عندما ننساهم].

ولقد كان بهذه المبـادرة ذلك الناقوس الذي دق في وادي النسيان فكان هذا الكتاب الجديد.

نحن البشر:

وعلى أي حال فهذا قدر الشيوخ لدى شباب مخلصين ولا شك.

ولكنهم فهموا ـ أو أفهموا ـ معنى الإخلاص لغة ولم يفهموه شرعًا.

فالإخلاص يعني:

التخلص من مـشاعر الأنانية... وأن أتجـرد في مواجهة فكر الغـير من كل حكم سابق... لتكون لكل الآراء فرص متكافئة...

ومهما يكن من أمر فقد كـانت جرعة المرارة فوق طاقتي... ووجدتني أعبر عن حيرتي بقول من يعبر عن نفس مشاعري فيقول:

ضحكت فقالوا: ألا تحتشم.

بكيت فقالوا: ألا تبتسم.

بسمت فقالوا: يرائي بها.

عبست فقالوا: بدا ما كتم!

صمت فقالوا: عليل اللسان.

نطقت فقالوا: كثير الكلم.

حلمت فقالوا: صنيع الجبان.

ولو كان مقتدرًا لانتقم.

بسلت فقالوا: لطيش به.

وما كان مجترئًا لو حكم.

يقولون: شذ... إذا قلت لا.

وإمّعة، حين وافقتهم.

فأيقنت أني مهما أُرِدْ رضا الناس، لا بد من أن أُذم.

• • •

ومع هذا الظلم البين... فلا بد من هذه المفارقات.

تمامًا... كالماء... والهواء.

[فكما أن الهواء ضروري للطائرة... تعلو به... وعليه... وتتحرك به... فلا يحطمها إلا الهواء!

والسفينة:

تطفو... بالماء... وعليه... وتتحرك على صدره... وهو مقبرة لها أيضًا].

ولكن الإنسان ليس طائرة... وإنما هو طيار... وليس سفينة... ولكنه سفِن... ومن ثم فإن الأحداث التي تحطم الطائرة... وتغرق السفينة هي نفسها التي تصقلها ... وتؤهله للإبحار وللطيران!

ولقد كان «العقاد» مدركًا هذا المعنى، وكان واحدًا من فرسانه، قال رحمه الله:

[ولقد بسطت رجلي وحمدت الله، وعلمت أن خطأ الناس جائز، وأن

سـخريتـهم لا تضـير، فلم أحـفل بتلك السـخرية، ولـعلي بالغت في قلة الاحتفال بها، ولقد علمتني تجارب الحياة أن الناس تغيظهم المزايا التي نتفرد بهـا... ولا تغـيـظهم النقـائص التي تـعـيـبنا... وأنهم يكـرهون منك مـا يصغرهم... لا ما يصغرك...

وقد يـرضيهم الـنقص الذي فيك... لأنه يكبـرهم في نظر أنفسـهم، ولكنهم يسخطون على مزاياك؛ لأنها تصغرهم أو تغطي على مزاياهم.

فبعض الذم على هذا خـير من بعض الثناء... لا ... بل الذم من هذا القبيل أخلص من كل ثناء.

لأن الثناء قد يخالطه الرياء... أما هذا الذم، فهو ثناء يقتحم الرياء.

لقد عرفت أن الذين أُسخطهم لا يرضيهم عني شيء.

وأن الذين أرضيهم لا يسخطهـم علي شيء... فلا فائدة إذن في اتقاء السخط... ولا من اجتلاب الرضا:

لأن الذين يسخطون عليّ يرجعون إلى خلائقهم التي لا تتغير.

والذين يرضون عني يعـرفونني من عملـي الذي يرتضونه ولا يريدون مني شيئًا سواه] «أنا : ٨٦ ـ ٨٧».

ولقد نذكر هناك ذلك الشامت في موت بشار بن برد حين قال:

يا بؤس ميت لم يبكه أحد ... أجل ولم يفتقده مفتـقد

لا أم أولاده بكــته ولــم ... يبك عليه... لفرقةٍ أحد

بل زعموا أن أهله فرحـا ... لما أتاهم نعيه سجــدوا

ولكن الحاج فتحي هاشم بهذا النشر يقول لهم:

يا رب رجاء يؤدي إلى الحرمان... وأرباح تؤول إلى الخسران.

ولا بأس.

فذوا العقيدة مشتوم ومتهم وذو المواهب محروم ومضطهد

ولكن الله تعالى يهيء لهم من أمرهم رشدًا ... حين يدبر لهم من أمرهم رشدًا... فيهيء لهم رجالا عدولاً... ينقذونهم من براثن الظالمين.

نقول: «رجالاً عدولاً» ونعني: عدل الإنسان... وليس عدل الميزان.

إنا نريد إذا ما الظلم حاق بنا عدل الأناس ... لا عدل الموازين

عدل الموازين ظلم حين تنصبها على المساواة بين الحر والدون

ما فرقت كفتا الميزان أو عدلت بين الحلي وأحجار الطواحين

مفارقة عجيبة:

ومن المفارقات العجيبة هنا: أن يتصل بي من يحاول وقف التفاهم بيني وبين الرجل ، وقلت له:

أنت تركز على «القالب» وأنا أركز على «القلب».

أركز على الشعور... وعلى ثمرات هذا الشعور التي تبدو واقعًا شاهدًا للرجل بأنه من الذين يعملون... ويتقنون ما يعملون. ولئن فاته أن يحفظ «سنة» الرسول أحيانًا، فإنه حريص على أن يقتفي «سيرة» الرسول!!

وما أحوج الأمة إلى السيرة العملية ترجمة للسنة القولية.

أما بعد ...

[فنحن لا ننقد عفاريت الجن، ولا نحمد الملائكة الأبرار.

وإنما ننقد ما نرىٰ... وما نعلم من مواقف، فما ننقده مدحًا وقدحًا... إنما هو مـرآة نرىٰ فـيه أنفـسنا بما فـيهـا من نزعـة إلىٰ الخـير أو نزغـة من الشيطان].

ولقد كان «العقاد» عنيفًا في نقده لـ «طه حسين» ولكن طه حسن يظل ساكنًا ساكتًا، حتىٰ إذا فرغ العـقاد حاوره بهدوء يتوج في النهاية بالاتفاق... وما يثمره من حب... أو بالاختلاف المختوم... بالاحترام .

يقول عثمان رضي الله عنه:

كان «عـمر» يمنع أقرباءه... لله وكنت أعـطي أقربائي... لله ومن يرىٰ مثل عمر.

وأخيراً:

فلأكن ذلك التلميذ الذي اشتكىٰ لأستاذه قائلاً:

كلما أخلصت لأحد... تركني!!

فقال له الأستاذ:

يا بني ! أبشر!!

فإن الله تعالىٰ يريدك له وحده... سبحانه

د. محمود محمد عمارة



تقديم

ما يزال هذا المشهد يلح على خاطري:

مشهد هذه المجموعة.. التي تعلقت قلوبهم بالمساجد.. فكانت لهم جلسات مباركات بعد صلاة المغرب.. يتلون من كتاب الله تعالى حصة مقررة.. لابد من إتمامها.. وكنت أزورهم أحيانًا..

لكن الليلة التي كنت أزورهم فيها.. كانت هي الليلة الوحيدة التي لا يتمون فيها نصاب القراءة كما اتفقوا!؟

ولعلي كنت أحس ببعض الحرج.. يتراءى في عيون بعضهم ممن يحسبون وجودي عائقًا.. يحول بينهم وبين تمام الحصة التي يريدون..!

وفي وقفة للدفاع عن النفس.. أو الدفاع عن القرآن الكريم كنت أقول لهم: إذا كان للقراءة جلسة.. فينبغي أن يكون للتدبر جلسات..!

جلسات.. نحاول فيها فهم مرامي الآيات.. وما فيها من دروس.. لابد منها لترقية الحياة.. وتسديد مسيرها..

وإذا كان مع القراءة.. الاستماع.. فإن مع التدبر الاستمتاع!!

الاستمتاع بما ضُمَّت عليه آى القرآن من كنوز.. لا بد من الغوص وراءها.. واستخراج ما فيها من حلية نجمِّل بها القبيح من أمور حياتنا..

ولقد قيل لابن المبارك يومًا: فلان يختم القرآن كله في ليلة واحدة!!

فأجاب على الفور: ولكني أعرف من وقف عند آية واحدة.. حتى الفجر.. لم يغادرها..[ويقصد نفسه].

لقد كان رحمه الله تعالى يبدأ في الآية الكريمة.. فإذا هو منها في بستان مورق.. مونق.. لا يدري ماذا يأخذ.. وماذا يدع؟!

وهكذا كانت مدرسة ابن المبارك.. في تعاملها مع القرآن الكريم:

قراءة.. وتلاوة.. وتدبرا..

يحشد لذلك كل مداركه.. فإذا القرآن حياته ومماته..

وبين هذا الذي كان يتلوه في ليلة.. وبين ابن المبارك.. درجات ودرجات.. يتقلب فيها المسلمون. وكل حسب طاقته.. وأشواقه.

يعطيهم القرآن الكريم من لدنه على هذه الطاقة.. وعلى قد ذلك الشوق!

وما أنا إلا واحد من هذه الجماهير الغفيرة.. أحاول أن أفهم الآية على قدر ما أتيح لي من الضوء.. ثم أستثمر ما فهمت لإصلاح ما أفسد الناس من شيءون حياتهم..

وهذه المحاولات بين يديك أيها القارئ العزيز الآن..

بعضها.. منذ عشرات السنين.. وبعضها نتاج اليوم..

وسوف ترى في العرض صعودًا وهبوطًا..

طبق وضع الإنسان.. وطاقته.. وزاوية رؤيته.. وعمر تجربته أيضًا.

وقـد سـجلت هذه الأفكار . . وأذيـعت عـبـر إذاعـة القـرآن الكريم بالقاهرة . .

فلما أشـار عليّ بعض الأصحاب بطبعـها . . يسر الله الأسبـاب حتى كانت بين يديك الآن . .

والأمل كبير أن يجعلها الله تعالى في ميزان حسناتي . .

وعلى الله قصد السبيل

د. محمود محمد محمد عمارة
الأستاذ بجامعة الأزهر
فرع المنوفية



عندليب واحد لا يصنع الربيع!!

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾.

جميل أن تبسط يدك بالعطاء تنفق كيف تشاء.. وأجمل منه أن يكون لعطائك قيمة.. ولن يكون كذلك حي تحصن نفسك بالتقوى.. كشعور حي تستحضر به نعمة الله - عز وجل - عليك فلا يبعث الإنفاق في نفسك خواطر السمعة والرياء. ولا يحرك يدك بالأذى.

﴿ لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾.

وإنما تتحول تقوى الله في نفسك إلى نوع من مراقبة الذات ومتابعة اتجاهاتها.. فلا تضل أو تزل.

ويصبح ذلك الشعور حافظًا لعملك.. كحزام تصون به ذلك العمل.. تمامًا كهذا الحزام الهوائي حول الأرض يحول بينها وبين الشهب الراصدة.

بيد أن مجرد الإعطاء تحت وطأة الظروف لا يجعل منك رجلاً فاضلاً.

ومجرد ومضة مشاعر الخوف من الله - عز وجل - لحظة... تسلم نفسك بعدها لدوامة الحياة لا يضيف اسمك إلى قائمة المتقين.

ينبغي أن تكون حياتك عطاءً مستمرًا.. ربيعًا دائمًا: تبذل فيها الخير طبعًا لا تطبعًا تعطي القرش.. الكلمة الطيبة.. والجهد المساعد للناس.. والفكرة الصائبة.. والنصيحة المخلصة.. تعطي كل شيء.. فشأنك الإعطاء دائمًا.. بلا قيد أو شرط. وهذا سر حذف المفعول في قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

فالمقصود كما جاء في حاشية الجمل: (ثبوت الإعطاء من حيث هو إعطاء.. وثبوت الاتقاء من حيث هو اتقاء.. لأنه أبلغ وأعم؛ لأنه إذا أريد ثبوت الحقيقة على العموم فتقيدها بنوع ما تحكم كما هو مقرر في علم المعاني).

ولقد قيل في المثل: «إن عندليبًا واحدًا لا يصنع الربيع» وكذلك فإن العمل الواحد.. الفردي.. لا يجعل منك إنسانًا فاضلاً. بل لابد أن يكون البذل عاطفةً سائدة في كيانك.

فإذا تغيرت الظروف.. وسنحت الفرصة.. فموقفك إزاء الآخرين ثابت كما هو إعطاء.. وبذل.. صادق في موقفك.. وفيما حكاه الصوفي «أبو محمد المرتعش» ما يوضح المعنى:

لقد كان من عادة هذا الصوفي أثناء حجه السنوي أن يفرض على نفسه كل أنواع المشقات: كان يحتمل الجوع والتعب دون أن يشعر بأي اعتراض في نفسه، حتى ظن أنه قد أصبح متحكمًا في ميوله الغريزية. إلى أن وقع حدث تافه فتح له عينيه.. ولنتركه يتحدث. قال:

(وذلك أن والدتي سألتني يومًا أن ستقي لها جرة ماء، فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجات كانت لحظ وشوب لنفسي.. إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها، ما هو حق في الشرع)[1].

فالمهم هو: خلوص النية وارتباط القلب بالله عز وجل... ونسيان حظ النفس من العمل.. وفي غيبة هذا الارتباط الوثيق بالخالق سبحانه..

(١) الدكتور دراز: في دستور الأخلاق في القرآن ٦٠٣ ، ٦٠٤ .

لا تغني الأعمال ولا الأقوال.. وإن شاعت وذاعت.

«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد،ألا وهي القلب»[١].

فالقلب هو مركز الثقل.. ومحور الدائرة.. والمقياس الصحيح للأعمال التي لا يهم حجمها بقدر ما يهم النوايا من ورائها.

إن القلب ملك.. والجوارح جنوده.. والناس كما يقولون على دين ملوكهم.. فإذا استقام الملك.. وصلح أمره انعكس من ذلك على الجند صلاحًا وطاعة.. وإذا فسد الملك.. ضاع ملكه.. وخانه جنده..

يقول الترمذي ﷺ: (فكذلك القلب إذا فسد لا يغرنك صلاته وصومه، وعمل جوارحه، فلو أن جميع جوارحه تزينت بجميع الطاعات، ثم دامت تلك الطاعات على الجوارح.. وامتدت المدة في ذلك. فقرت الجوارح على الطاعات. ولم يكن في قلبه من الغنى ما يمد الجوارح ـ بقيت الجوارح معطلة. والقلب مغترًا، فماذا أغنى هذا الظاهر على الجوارح.

وإذا كان القلب غنيًا، والجوارح معطلة.. ففي أدنى حركة من القلب يوسع الجوارح خيرًا وبرًا)[٢].

إن جمال الظاهر لا يغني عن جمال الباطن.. وإنما يبدأ التجميل من القلب.. من داخل النفس أولاً.. ليأخذ الإنسان سمته إلى تحقيق الكمال الإنساني المنشود .. وكثير من الناس يعطون.. وتتحدث أجهزة الإعلام عن

(١) البخاري: كتاب الإيمان – باب ٣٩ .

(٢) الترمذي: جواب المسائل ١٩٥ ، ١٩٦ .

بذلهم.. لكنهم لا يتقون.. إنهم فقط يرضون غرورهم.. ويستجيبون لدواعي الأنانية في أنفسهم.

قد يجلب أحدهم إلى المسجد آلة تكبر الصوت.. أو أداة لتلطيف الجو.. إنهم يعمرون المساجد.. وفي نفس الوقت يخربون نفوس الآخرين وسمعتهم. والأذن التي تسمع الأذان عبر آلاتهم المكبرة هي نفسها التي تسمع أنين ضحاياهم خارج المسجد إنهم لم يعلموا أن الناس قبل حاجاتهم إلى آلة تجفف العرق.. هم في حاجة إلى كلمة طيبة تجفف الدموع!!

والعجيب أن خادم المسجد قد يبيت طاويًا.. تزكم أنفه رائحة الشواء تفوح من ديارهم!! لكنهم لا يشعرون.. أو يشعرون.. بيد أنهم اكتفوا من الفضيلة بصورتها الظاهرة الملفته للأنظار والأسماع.. بعد أن أطلقوا من ورائهم هذه الضوضاء.. التي تخفي مشهدهم المترف عن أعين الفاقدين المحتاجين إلى عواطف الخير في قلوبهم.

وكان حظ بعضهم كهذا الصوفي الذي حمل نفسه فوق ما تطيق وأدى مناسك الحج مرات ومرات... لكنه في غمرة الإحساس بحظ نفسه.. نسى أن يسقي أمه شربة ماء؟!

المهم - مرة أخرى أن يرتبط القلب بالله تعالى..ولا على الإنسان بعد ذلك إذا جاء إحسانه قليلاً لا يستلفت النظر. فالمطلوب رسوخ البذل كحقيقة من حقائق النفس فوق الشك والتردد.

ينشط المرء لفعل الخير كلما دعا إليه داع.. والجزاء الأوفى لذلك هو ما نصت عليه الآية الكريمة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

أي: نهيئه لليسرى.. أي: لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه

فعلها كما جاء في حاشية الجمل، ذلك بأن المسلم المتقي.. الوثيق الصلة بربه سبحانه. يشعر بيسر ما يزاول من عمل.. وخفة ما يلقى على كاهله من أعباء.. على ما يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

ثم إنه يشعر في عمله بما يجعله أيسر وأسهل.. يشعربغبطة وسعادة، وإذا كان من جزاء السيئة.. أن تخذل بعمل سيئة أخرى، فإن ثواب الحسنة أنها تلد حسنة أخرى! أي أن بركة العمل تكمن فيه.. فيشع بها ضياء يقودك إلى مثله.. فإذا أنت طاقة عاملة آملة.. تسعد نفسك.. وتسعد الآخرين من حولك. ويؤيد هذا المعنى قوله (ﷺ): «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب[1]عند الله كذبًا**»

لكن هذا التيسير للعمل.. ربما لا يتاح لك حالاً.. وعلى وجه السرعة التي تأملها.. وهنا تجئ (السين) في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ..﴾ لتطمئن إلى أن هذا التيسير سنة من سنن الله تعالى لا تتخلف.. فلابد أن يقع.. ولكن ليس بشرط أن يقع فوراً.. ورهن إشارتك. وإذا لم يكن اليوم... فسيكون غدًا. وهو أسلوب فريد.. له أثره الفعال في تربية الإنسان وأخذه بالفضيلة.. جاء في حاشية الجمل: (ذكر السين تلطيف للكلام: أي ترقيق.. أي لا يكون نصًا في المقصود.. بل يكون محتملاً لغير المقصود.. فهو كالشيء الرقيق الذي يمكن تغييره ويسهل. ويقابله الكثيف: بمعنى أن يكون نصًا في المقصود؛ لأنه لا يمكن تغييره وتبديله. فهو

(١) البخاري: كتاب الأدب. باب ٦٩ .

كالشيء الكثيف الذي لا يمكن فيه ذلك.

فالمقـصود هو أن التيـسير حاصل في الحـال.. لكن أتى بالسين الدالة على الاستقبال والتأخير لتلطيف الكلام بترقـيقه باحتمال أن لا يكون التيسير حاصلاً في الحال لنكات تقتضي ذلك، والله أعلم).

وسبحان من هذا كلامه.



أحياء...وأموات

يقول عز وجل:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1].

إذا كانت دعوة العباد إلى الله تعالى هي مقصد القران الأعلى.. فإن ضرب الأمثال للناس فيه صورة من صور الإلزام يقتادهم إلى معرفة الحق سبحانه وتعالى.

ولقد صرف الله آياته في القرآن الكريم حتى تأخذ بحجزهم إلى الخير.. عن طريق الترغيب والترهيب.. تقديرًا للحق.. وتنفيرًا من الباطل.. لكن موقف الناس أمام هذه الآيات لم يكن واحدًا: فمنهم من آمن. ومنهم من كفر، ولقد جاءت الآيات الكريمة لتنفي استواء الفريقين واقعًا ومصيرًا.

والمقارنة الضمنية بين الفريقين قد ألمحت إليها الآية الكريمة قبل ذلك مباشرة.. في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾. وهذه المقارنة تبدو ظاهرة في هذه الآيات على نحو يقف بالرسول (ﷺ) عند

(١) فاطر: ١٩ - ٢٤.

حدود رسالته: ليعلم أن الإصرار على دعـوة هؤلاء المعاندين.. وملاحقتهم بالنذر أمر لا مسوغ له.. في الوقت الذي فقدوا فيه ملكة التمييز.. وراحوا يتخبطون في الظلام...

وليس المراد هنا: تدبيـر الوسائل لحملهم على الإسـلام.. لكن الأمر هو: لماذا آمن هؤلاء.. وكفر أولئك؟

هذا هو السـؤال الذي يبـحث عن جـواب.. وفي ضوء هذا الجـواب تتبين طبيعة القوم العصية على الخضوع.. ومن ثَّم فكل ما يبذل في سبيلهم جهدٌ ضائع.

لقد استجمع الأولون خصائص الحياة فقادتهم إلى الحق.

إن المؤمن بصيـر.. ينقل خطاه على نور من ربه.. وعلى جناحين من بصـره ووضوح غـايتـه يصل إلى الظل.. إلى الجنة التي تـصبح له جـزاء ومصيرًا.. وعلى الطرف الآخر.. يقف الـكافر عاطلاً من هذه الخصائص. ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إنه أعمى.. يخبط في ظلام.. يسلمه في النهاية إلى الحرور.. إلى جنهم.. حيـاته كلها سلسلة من «الظلمات». ظلمة الطبع.. وظلمة البيئة المنحرفة.. وظلمة الفكر المغلق الجامد

ظلام ببـطن الأرض ليس لـه سـر   وليل بـبطن القـبـر ليس له سـر
لعمري، كأن العـمر متصل الدجى   فـأوله قـبـر وآخـره قـبـر

وإذن.. فالمؤمن حي.. والـكافر ميت! هذا يتـعثـر وسط أشواك من ذاته.. وبيئتـه.. فهو مبـعثر الوجود غـير متماسك.. تـتوزعه الأوهام.. وتتـخطفـه الأباطيل.. وذاك.. يسـير عـلى نهج راشد.. فـلا عـجب أن اختلفت نهاية كليهما.

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[١].

إن العمى والإبصار يأخذان معناهما الحقيقي.. على غير ما ألف الناس في حياتهم: فالمؤمن بصير.. وإن فقد حاسة البصر. والكافر أعمى.. ولو كان في عرف الناس بصيرًا.

والآيات الكريمة بهذا التعريف.. ترفع من قدر الخصائص النفسية والمواهب الروحية للإنسان.. فهي التي يكون بها إنسانًا ويثقل بها ميزانه. وهي بذلك تتخطى الشارة البادية.. والمظهر الخادع.. لتحكم على المرء بمقدار ما حصل من عواطف الخير. ثم هي لفت النظر إلى المؤمن كتربة خصبة.. تستقبل بذور الدعوة إلى الله.. لتستحيل على أرضها نباتًا وخضرًا.. ثم حبًا متراكبًا.. بقدر ما صار الكافر المعاند المصر.. أرضًا بورًا لا تحفظ ماء.. ولا تنبت كلأ.. وإذا اختلفت طبيعة الاثنين.. فينبغي أن تختلف النظرة إليهما اختلافًا ينفض به الرسول يده من إيمان قوم: أموات.. وإن حسبوا في عداد الأحياء.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القادر على أن يحيي الأرض بعد موتها.. فهو وحده القادر على إسماع هؤلاء الجاحدين نداء الحق.. ولا يقدر على ذلك سواه.. ولو كان محمدًا عليه الصلاة والسلام. والله سبحانه وتعالى.. لا يسمع نداء الحق إلا من أصاخ السمع إليه.. وبحث عنه.. وتعلقت أشواقه به. وحيث تجرد هؤلاء من كل هذه الخصائص. فإن محاولة رجعهم فوق كونها أمرًا مستحيلاً.. إنما هي تجاوز لقدرة الرسول كبشر تقف

(١) الأنعام: ١٥٣ .

به بشريته عند حد معلوم:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾.

ونختار هنا عودة الضمير في الفعل «يشاء» إلى العبد نفسه ليصير المعنى هكذا:

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يهدي إلى الحق من يشاء من الناس هذا الحق ويتطلع إليه في الوقت الذي تتخلى فيه هدايته عن كل مخذول أدار ظهره له.. واتبع هواه فأخلد به إلى الأرض.

وبهذا الفهم.. تتضاءل شبهة الجبر التي يحاول بعض الفارغين ربط الإنسان بها على اعتبار أنه ريشة معلقة في الفضاء.. لا تملك من أمر نفسها شيئًا.. وإذا كان الأمر كذلك.. فلم يأس الرسول (ﷺ) على قوم قد اختاروا بمحض إرادتهم أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير..؟

إن كفرهم لم يكن بسبب تقصير في البلاغ أبدًا.. كما لم يكن من ورائه خفاء في الدليل. لكنه راجع في حقيقة الأمر إلى سوء تقديرهم للموقف الناشيء عن فساد آلة التمييز في نفوسهم. وما دام الأمر هكذا.. فليس بالأسى يشيع القوم.. ولكن الأوفق بهذه الطبيعة أن تهدد وتنذر: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾.

ونلاحظ في الآية الكريمة اختفاء معنى: «البشارة» لتظهر فقط سمة «النذارة» إزاء قوم غاضت في أنفسهم كل معاني السلام والمودة ولا يصلح خطابهم إلا على وجه التهديد. ولكن الرسول (ﷺ).. «بشير ونذير» معًا.. حين يتعلق الأمر بالبشر جميعًا.. وفيهم مؤمنون مبشرون... وكافرون منذرون: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾.

بل ويتقدم وصف البشارة على وصف النذارة.. فترسم الآية بذلك أمام الدعاة إلى الله طريقهم في الدعوة إليه سبحانه:

إنهم أساة للجراح.. وهداة إلى الخير.. ومعرفتهم بالحق تفرض عليهم مزيدًا من التسامح في مقابل قسوة الناس.. ليقتحموا بذلك عقبات الطريق.. أجل وإنها لبشرى كريمة يسوقها الحق سبحانه وتعالى إلى أمة محمد (ﷺ).. تلك الأمة التي تبدو طبيعتها الخيرة في معنى البشارة الذي يلازم الرسول.. في الوقت الذي تبدو فيه صورة الأمم قبلنا عصية.. متجهمة.. تزايلها تلك الطبيعة السمحة الكريمة.. لتجد نفسها وجهًا لوجه أمام النذير.. دائمًا.. على نحو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.



حتى لا يستيئس الدعاة

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * ﴾[1].

في سلسلة المعارك الدائرة بين الحق والباطل. . كلما ازدادت حجة الحق اتضاحًا. وتضاءلت شبهة الباطل افتضاحًا. كلما لجأ الوثنيون إلى أسلوب التجريح. شاهدين على أنفسهم بالإفلاس في مجال المجادلة بالمنطق الواضح السليم.

إنهم لا يكتفون بأنهم «يكذبون» على أنفسهم حين يعفرون وجوههم لأحجار لا تضر ولا تنفع. بل إن الأمر ليصل بهم إلى مدى بعيد. . إذ «يكذّبون» الرسول (ﷺ) في دعوى التوحيد. . تلك القضية التي بلغت من الوضوح حدًا يجعل من إقامة الدليل عليها أمرًا في غاية العسر. . لأنه في غاية السهولة! ومن شدة الوضوح الخفاء! وهكذا يفعل الجاهلون في كل عصر ومصر:

إنهم يلجؤون إلى المهاترات الرخيصة كلما أعيتهم الحيل. وتصدى لهم الدليل. . يريدون بذلك إنزال الحق وأهله من عليائه. . ليعيشوا معهم في

(١) فاطر: ٢٥ ـ ٢٨ .

واقعهم الآسن.. حتى يكونوا معًا في الكفر «سواء»!

يستوي موقفهم إزاء دلائل الوحي جميعًا. سواء أكانت «بينات» واضحة.. أو كتبًا يتولاها المرسلون بالشرح والتحليل.. وهو معنى.. يكون من المفيد أن يلتفت الرسول الله (ﷺ) إليه.. وسوف يتأكد له أن المعاندين من قومه ليسوا سوى حلقة بارزة من سلسلة التكذيب.. عبر التاريخ.. فليسوا أول مكذب في الحياة.. كما أنه في تعرضه لأذاهم ليس بدعا.

وبهذا الفهم الواقعي لطبيعة القوم.. يوفر الرسول على نفسه كثيرًا من المتاعب التي يمكن أن تتيح له فرصة انشغال أكبر بما يفيد وينتج.

إنه لا تفسير لموقف القوم إلا أنهم صنائع حقد دفين. يسول لهم أن يرموا بكل نقيصة أطهر رسول.. وأكرم دعوة.. حينما يعوزهم الدليل ويأخذ على كيانهم أقطاره.. وهم بذلك دعاة إلى الهدم.

وحتى يكون الجزاء من جنس العمل.. فإن الحق سبحانه وتعالى يأخذهم هكذا أخذ عزيز مقتدر.. فجأة بلا مقدمات.. يأخذهم جميعًا بيد قدرته.. ليصيروا في قبضته سبحانه وتعالى مثلاً في الآخرين.. ولأنهم.. كفروا.. وستروا منطق الفطرة الداعي إلى اعتناق الحق الذي جاءهم.. فمصيرهم أن يؤخذوا على نحو لا يبقى لهم ذكرى في هذه الحياة. كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر.

وروح التسلية أو التسرية عنه (ﷺ) بادية من خلال الآيات الكريمة. وهي تسلية... لا عن أذى يلحق بشخصه الكريم بقدر ما هي عزاء يستشعره أمام الأذى تتعرض له دعوته التي كذبوا بها.. الأمر الذي يضاعف

من أساه على موقف القوم. . من حيث تعلق الأذى بالمبادئ وحدها.

وإذا كان أساه (ﷺ). . والمشار إليه في الآيات السابقة جاء نتيجة لنسيان طبيعة المعاندين وأنهم صنف لا يتأتى منه الإيمان. وبذلك يختلفون عن هؤلاء الذين معك. . فإن عنصر التسلية يعتمد على التركيز بقانون كوني يؤدي استحضاره إلى التخفيف من حدة الأسى على كفر القوم. . وذلكم هو قانون الاختلاف. .

والاختلاف قانون سائد في ممالك النبات. . والجماد. . والحيوان جميعًا. . ولو وعينا الدرس جيدًا. . لما كان هناك داع إلى الوقت والجهد في ملاحقة قوم نريد حملهم على الإيمان. . بيد أنهم ليسوا من أهله. . فلابد أن يختلف الناس؛ فيؤمن بعض ويكفر آخرون. . بل إن الفريق الثاني يربو عدده: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وهو مثال. . لما يحدث في الطبيعة من اختلاف نستأنس به فلا نحاول قسر غيرنا على الإيمان: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2].

هذا القانون الإلهي تفصح عنه الاية الكريمة التي نتعرض لها الآن:

ففي عالم النبات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾.

وفي الجماد: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

---

(١) يوسف: ١٠٣.

(٢) هود: ١١٨، ١١٩.

وهو أيضًا في مملكة الحيوان:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾.

ولعل الإشارة في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ عند الحديث عن اختلاف الحيوان.. أحالت المخاطب إلى معنى الاختلاف السابق لينتهي به الأمر إلى فهم ينتهي به الأسى على عدم إيمان فريق المعاندين.. لأن ذلك ضد طبائع الأشياء ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار.

إن الزرع.. والجماد.. والحيوان.. كل أولئك يختلف لونًا وطعمًا ومنفعة مع انبثاقه عن أصل واحد هو: الماء أو التراب. وكذلك البشر: يختلفون من حيث استجابتهم للحق.

فلم إذن لا يتعامل الرسول مع المعاندين المعرضين من هذا القانون الشامل؟

لماذا يتوقع إيمانهم ليصبح الناس كلهم أمة واحدة؟

الآن الدعوة تتجه إليهم جميعًا.. وبنفس الإخلاص والقوة؟

إن العيب ليس كامنًا في الدعوة أو وسائلها.. بيد أن مكمن الداء هناك في طوايًا نفوس تجاهلت مظاهر القدرة ودلائل عظمة الحق سبحانه.. بينما هي منبثة في ثنايا الكون. ولقد برئ من هذا العيب أناس فتحوا أبصارهم على مجالي الطبيعة.. فمكن الله بصائرهم من فهم أعمق.. نقلهم من الكون.. إلى المكون.. من الأثر إلى المؤثر.. إنهم العلماء.. الذين يخشون الله دون سواهم من الغافلين: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

فليس سواء عالم وجهول

وإذا كان الشاعر العربي قد دعا قومه يومًا إلى الإنصات إلى رقة شعره.. وجمال أدبه.. فلم ينتصوا.. فقال:

غزلت لهم غزلاً رقيقًا فلم أجد لغزلي نساجًا فكسرت مغزلي

إذا كان هذا الشاعر قد بلغ به اليأس إلى التخلي عن دوره في الحياة.. تأثرًا بما يلاقي من عنت وإرهاق.. فإن طبيعة الدعوة الإسلامية تفرض على حملتها نوعًا من الفدائية يخوضون به غمرات الحياة دفاعًا عن الحق الذي أضافوا وجودهم إليه.. وصار منهم جزءًا من كيانهم بل هو أبقى من حياتهم هم.. التي يمكن لها أن تنتهي يومًا ليبقى الحق مشعلاً يضئ للحيارى معالم الطريق.

ونتأمل الآية الكريمة فنرى معنى «العالم» يتسع ليشمل كل باحث في كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية حيثما وجد؛ لأن الوصف بالعلم يجئ في أعقاب الحديث عن النبات.. والجماد واختلاف الناس والحيوان..

تلك العوالم التي تتطلب تضافر جهود الباحثين في كل مجال.. ولا تقتصر بطبيعة الحال على الفاقهين من علماء الشريعة.. كما قد يتبادر إلى الأذهان، وعلى قدر اتساع اللفظ وشموله لكل باحث.. لكن وصف «العبودية» المأخوذ من قوله تعالى: ﴿ **مِنْ عِبَادِهِ** ﴾. يجعل من الخشية سمة بارزة لكل عبد لله.. منيب إليه.. اتخذ العلم سبيلاً إلى ترقية الحياة. لا هؤلاء الذين سخرون طاقاتهم للتدمير لا للتعمير. فإذا كان العلم «نوعًا»

يستوعب علماء الأرض جميعًا. فإن وصف العبودية المستتبع للخشية يستبعد كل من لا يؤمن بالآخرة.. ويجرد من لم يخش الله في علمه من أكرم الصفات: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[1].

في نفس الوقت يجعل من هذه العبودية شعار لون من العلماء تجردوا من الهوى.. ثم أسلموا وجوههم إلى الله سبحانه وتعالى... فساروا عبر الطريق الذي رسمه لهم فهداهم الله إلى حقائق الكون: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]... ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[3].



(١) المؤمنون: ٧٤ .

(٢) الحج: ٥٤ .

(٣) الشورى: ٥٣ .

من صور العناد

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

لم يكن المشركون منطقيين مع أنفسهم حين وصفوا محمدًا (ﷺ) بأنه مجرد «رجل» نكرة يغيب في زحمة الناس.. عاطل من كل خصائص الزعامة التي تفرد بها عظماء القريتين!.. متجاهلين بذلك أنهم جميعًا «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم».

ولعلهم يسيغون لأنفسهم التورط في مثل هذا التناقض ما دام سيفضي في النهاية إلى هز صورته في أذهان الناس.. وبالتالي ينفضون من حوله..

والسؤال الآن: هل عرضت الآية الكريمة شخصية الرسول للمناقشة حتى يقولوا رأيهم فيها بتعريف أو تنكير؟

إن القضية المعروضة محددة المعالم.. واضحة السمات.. وهي التي تجري بشأنها المواجهة بين الإيمان.. والشرك.. وليس الرسول بشخصه قضية.. ولكنه داعية وأسوة.

والقضية هي: آيات بينات تدعو إلى التوحيد عقيدة.. ومنهاج حياة...

---

(١) سبأ: ٤٣ .

فلماذا يخرجون من الموضوع.. موضوع المناقشة ليدوروا حول الرسول بتهمة باطلة؟ وهل تسنى لهم وقد خرجوا من الموضوع أن يزنوه عليه الصلاة والسلام بميزان عادل؟ أبدًا.

إنهم لم يحاكموه إلى مبدأ يقيني يلتقي عليه العقلاء.. بيد أنهم يحتكمون في تقديره إلى الإلف والعادة كما خلفها آباؤهم الأقدمون! ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾.

إن ما يأخذونه عليه أنه يحول بينهم وبين التقليد في محاولة لإثارة أشواق النفس.. وتحريك العقل ليصل بهم إلي الله سبحانه. ويواصل القوم جدالهم فينتقلون من الداعي.. إلى الدعوة التي لا يكتفون بالإعراض عنها.. لكنهم يتصدون لها بتهمة زائفة يرمون بها الرسول (ﷺ).. من بعيد:

﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾.

وكأنما أحسوا بموقفهم الهزيل إذا هم وصفوه بالكذب والافتراء بينما إجماعهم قد انعقد على صدقه. كأنما أحسوا بذلك فحالوا إلصاق التهمة بالدعوة والمراد هو.. والمآل واحد في الحالتين. وهذه المبالغة في الإنكار والذم المستفادة من أسلوب القصر هنا تعكس صورة نفوس حائرة قلقة لا تؤمن بما تقول.

ولا نريد أن نستشهد بعلم النفس كدليل يفسر مرامي القرآن الكريم هنا.. لكننا نستأنس فقط بما وصلت إليه الأبحاث المخلصة النزيهة.. وهي تفسير حالة الإنكار لمبدأ ما.. وصلة ذلك بما نحن فيه.. وكيف كان الإنكار الشديد بلا مسوغ خطوة أخيرة يقترب بها الإنسان من الإيمان بالمبدأ.. إذا لم

يكن قد انتفع به فعلاً.

يقول الدكتور عبد المنعم المليجي في كتابه «تطور الشعور الديني» ص ١٥٥، ١٥٦:

إن إنكار الله إذن خطوة أقرب إلى التسليم به من عدم الاكتراث به. ذلك أن عدم الاكتراث بأمر ما أو الجهل به.. معناه بعد الأمر عن البال بعدًا تامًا.

﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ: ٤٤، ٤٥].

إذا كان أهل الكتاب قد وقفوا من الإسلام موقف المعارضة.. فربما كانت لهم شبهة اعتذار.. إذا هم رفضوا التخلي عن دين جاءهم به رسول.. وحذرهم من التفريط فيه - مع بطلان موقفهم قطعًا - لكن المشركين الذين يعارضونه في دعوى التوحيد.. ما عذرهم؟ هل نزل عليهم كتاب يصحح دعوى الشرك..؟

أم جاءهم رسول من قبل الله سبحانه ينذرهم بالعذاب إذا لم يشركوا؟

إن شيئًا من ذلك لم يحدث.. كما يفهم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ وإذن... فما لهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون؟ لا شك أنهم يدلون بأموال جمعوها.. وجند جندوها.. كل أولئك سول لهم أن يركبوا متن الكذب في حربهم مع محمد (ﷺ).. وأملى لهم ليزدادوا إثمًا.

بيد أن المال والرجال.. لن يغنيهم من عذاب الله شيئًا.. وعليهم أن

يتأملوا هذه الصورة من تجارب الماضي يعرضها عليهم القرآن الكريم:

صورة قوم وقـفوا نفس الموقف.. فدمـر الله حياتهم تدميـرا.. بينما كانوا أشد من من قريش بأسًا وأكثر منهم مالاً..

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

لقـد صار التكذيب لهـم عاطفـة سائدة.. تمكـنت من نفوسـهم التي مردت عليها كل يوم: **﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.**

وعن هذه العاطفة السائدة.. صدرت كل صور التكذيب بشكل وبائي تناول حـتى أبعد الخلق عن التكذيب وهم رسل الله تـعالى.. **﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ﴾.**

وعندما يبلغ التكذيب منتهاه.. يكون العـذاب نتيجة لازمة تضع حدًا لأناس غـير جـديرين بالحيـاة.. ولابد من تنحيـتهم وإراحـة المجتـمع من شرورهم.

ويغيب طيف هؤلاء الأشرار.. أعداء الحياة.. لتبقى ذكراهم عبرة في أذهان الكـافـريـن الذين ينقلـون خطاهم علـى نفس الطريق.. إلـى نفس النتيجة!

ويوشك التاريخ أن يعـيد نفسـه اليوم.. مع مشـركي مكة الذين صار التكذيب فيهم عادة متأصلة.. ينـكرون بها الشمس في وضح النهار كإخوة لهم من قبل..

وليس أعرق في باب التكـذيب من أناس يخدعون أنفـسهم التي تؤمن

بالحق وجه النهار.. ثم تكفر به آخره.

إن الذين يصفون رسالة الله اليوم بأنها سحر.. وسحر مبين.. هم أنفسهم الذين يعترفون بالله ربًا وفي وقت يستفتون عنده الفطرة كما خلقها الحق سبحانه وتعالى.. بعيدًا عن كل زيف وتضليل.

أليسوا هم المخاطبين بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾.

ثم ما رأيهم في هذه الأجوبة التي سجلها عليهم القرآن الكريم.. وبها يكشفون عن عقدة الكذب في كيانهم؟ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

إنهم يكذبون على أنفسهم وعلى الحق بنفس القوة التي كذب بها الإولون.. وها هم أولاء يقتربون من نفس المصير.. مصير الغابرين الذين اتبعوا الهوى فأضلهم عن سبيل الله.. ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

في حين أن الإلحاح على إنكاره أمارة اهتمام وانشغال به. وهذا يؤيد

المبدأ العام الذي قرره «فرويد» وهو أن النفي للواقع المؤلم مرحلة وسطى بين كبته وبين قبوله. أي أن النفي الصريح لفكرة بغيضة ليس بكبت ولا هو بقبول لها. إنما هو خطوة نحو ذلك القبول.

ويصل ذلك بأن إنكار الواقع المؤلم له أثر مهدئ للخوف الذي يثيره فينا.. ومن ثّم يعدّ المرء لقبوله. فبفضل تلك العملية «نفي الواقع» يتيسر للواقع الخارجي الغريب «ومن ثمة المعادي» أن يحتل مكانًا في الشعور على الرغم من «الألم» الذي يسببه. فالنفي مرتبة من مراتب الانتصار على القوة الكابتة التي تؤدي إلى الإغفال التام لكل ما هو بغيض أليم. وبفضل النفي لا يعود الألم مجهولاً. وإنما يصبح موضوع إدراك في صورة النفي ولا يبقى بعدئذ غير خطوة واحدة لإزاحة آخر عقبة في طريق تقبل الفكرة البغيضة وتأييدها].

وليس «فرويد» وحده هو الذي يقرر ذلك. بل إن «فرنتزي» يزيد الأمر إيضاحًا حينما يقرر أن تأييد فكرة بغيضة ليس شيئًا هينًا بل هو عملية نفسية مزدوجة هو: أولاً: محاولة نفي كونها حقيقة واقعة. ثم محاولة ثانية لنفي ذلك النفي.

وهكذا.. فإن الإثبات.. أي الاعتراف بالشر يمكن اعتباره نتيجة حكمين سالبين.

وها أنت ذا تحس من وراء السطور بحركة عصبية طائشة تريد إنهاء الجدل سريعًا.. وقبل أن تأخذهم دلائل الحق المحيطة بهم من كل جانب. هذه الدلائل التي لو هادنوها واستسلموا لها.. لأخذت بحجزهم إلى الاعتراف.. أو الهزيمة.. وأحلى الأمرين.. مر..

ومن هنا لاتناقشهم الآية الكريمة فيما يدعون.. لأنهم غير مقتنعين به.. لكنها تعرضهم أمام الأجيال من خلال أفكارهم المتهافتة التي تعلن بنفسها عن بطلانها.

واللفتة الكريمة هنا.. في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فعندما حكت الآية رأيهم في شخص الداعي.. من قريب أو من بعيد لم تسجل عليهم الكفر.. مع أنه سمتهم البارزة.

﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ ..﴾. لكنها حين تذكر موقفهم من الحق ذاته.. أي من الدعوة التي يدعوهم إليها.. لا تكتفي بذلك.. بل تسجل عليهم الكفر هنا.. بالذات: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾.

وبذلك تؤكد الآية الكريمة أن الحق هو القيمة الوحيدة الباقية.. فوق الأشخاص والألقاب. وإذا كان هناك من خلود للداعي.. فبقدر ولائه للحق وتحمله في سبيله.

وهي بهذا المنطق الرشيد.. تعطي المبادئ قيمتها الحقيقية.. كما أنها تضع الداعية في مكانه الصحيح.

إنه رجل يجاهد ملتزمًا بكلمة الله.. ثم يسلم الراية من بعده لمن كان أهلاً لها مستعدًا لتحمل مغارمها. على أن يكون ثبات المبادئ أو ضياعها هو محور الجهود.. وركيزة العمل.. بغض النظر عن الأشخاص الذين نتجاوز بهم حدودهم كبشر تجاوزًا ينسينا دورهم الحقيقي حين نضفي عليهم ألوانًا من التقديس.. يخف بمقتضاها إحساسنا بمبادئهم ذاتها. كان ذلك.. من حيث وجدنا الآية الكريمة تنعي على المشركين رفضهم المتعجل لرسالة الله

سبحانه بوصف كونها حقيقة مجردة يلزمهم النظر في طبيعتها.. لا بوصف كونها فكرة جاءتهم على يد الرسول بالذات.



دعوى.. بلا دليل

﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[1].

إذا كان أهل الكتاب قد وقفوا من الإسلام موقف المعارضة.. فربما كانت له شبهة اعتذار إذا هم رفضوا التخلي عن دين جاءهم به رسول.. وأن هذا الرسول قد حذرهم عاقبة التفريط فيه ـ مع بطلان موقفهم طبعًا ـ لكن.. ما بال هؤلاء المشركين الذين يتصدون للرسالة وما تدعو إليه من توحيد ؟ ما عذرهم؟ هل نزل عليهم كتاب يصحح دعوى الشرك؟ أم جاءهم رسول من قبل الحق سبحانه ينذرهم بالعذاب إذا لم يشركوا؟!

إن شيئًا من ذلك لم يحدث.. كما يشير قوله سبحانه: ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾.

وإذن.. فما لهؤلاء القوم لا يؤمنون.. وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون؟ لا شك أنهم يدلون بأموال جمعوها. وجند جندوها.. كل أولئك سول لهم أن يركبوا متن الكذب والتضليل في عراكهم مع الإسلام وأهله. بيد أنهم لابد أن يعرفوا ـ إذا لم يكونوا يعرفون ـ أن المال والرجال لن يغنيهم من عذاب الله شيئًا.. وهذه حقيقة يذكرها التاريخ.. وتؤكدها تجارب الحياة.

وما عليهم ألا أن يتأملوا هذه الصورة التي يعرضها عليهم القرآن..

(١) سبأ: ٤٤، ٤٥.

لقوم وقفوا نفس الموقف من دعوة الله فدمر الله عليهم حياتهم.. بينما كانوا أشد من قريشًا بأسًا.. وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها.. فما أغنى عنهم من عذاب الله.

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

والآية الكريمة ترسم لهم صورة صادقة تشف عن دوافعهم العدوانية المتشبثة بهم. لقد صار التكذيب لهم عاطفة سائدة.. تمكنت من نفوسهم التي مردت على إنكار الحق ليلاً ونهارًا: ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

وعن هذه العاطفة السائدة.. صدرت كل ألوان التكذيب على نحو مستمر.. حتى وصموا بالتكذيب أبعد الخلق عنه.. وهم رسل الله: ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ﴾.

وعندما يتعلق التكذيب بصفوة الخلق على الإطلاق.. يكون قد بلغ منتهاه وشارف حد التشبع. وحينئذ يصبح العذاب نتيجة لازمة تضع حدًا لأناس غير جديرين بالحياة.. ولابد من تنحيتهم وإراحة المجتمع من شرورهم.. من حيث كا بقاؤهم حجر عثرة وعقبة تعوق طريق الراغبين في الإسلام.. ولابد أن يكون التخلص منهم تطهيرًا للبيئة من غازات سامة تزحم الجو بنذر الفناء.. حتى إذا قدم جيل جديد في صحبة فطر سليمة.. كانت التربة معدة لإنباتهم بعد ذلك نباتًا حسنًا. ويغيب طيف هؤلاء الأشرار أعداء الحياة.. لتبقى ذكراهم في أذهان الكافرين الذين ينقلون خطاهم على نفس الطريق.. إلى نفس الغاية. ويوشك التاريخ أن يعيد نفسه اليوم..

لقد صار التكذيب عادة متأصلة في صدور المشركين من قريش ينكرون

به الشمس في رائعة النهار.. كأخوة لهم من قبل.. وليس أعرق في باب التكذيب من أناس يخدعون أنفسهم التي يتجاهلون دلائل صدقه التي يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم!

إن الذين يصفون الرسالة اليوم بأنها سحر.. وسحر بين ظاهر.. هم أنفسهم الذين يعترفون بالله ربًا في وقت يعودون فيه إلى فطرهم كما خلقها الحق سبحانه.. بعيدًا عن كل زيف أو تضليل. وإلا.. فليحددوا موقفهم بعد هذه الاعترافات التي يسجلها القرآن الكريم عليهم.

أليسوا هم المخاطبين بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾.

ثم ما رأيهم في هذه الأجوبة الصريحة القاطعة.. والتي لا تتحمل جدلاً أو تأويلاً، والتي تضبطهم في نفس الوقت متلبسين بتهمة الكذب حتى يصفوا الحق بما وصفوا؟

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾[١].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٢]. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [٣].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٤].

---

(١) الزخرف: ٩. (٢) الزخرف: ٨٧.
(٣) العنكبوت: ٦٣. (٤) العنكبوت: ٦١.

فكيف يستقيم ـ مع هذا الاعتراف ـ أن يتهموا رسالة الله بأنها سحر . . وسحر مبين؟! إنهم بهذا يكذبون على أنفسهم . . وعلى الحق . . بنفس القوة التي كذب بها الأولون .

وهاهم أولاء يقتربون من نفس المصير . . مصير الغابرين الذين اتبعوا الهوى . . فأضلهم عن سبيل الله . . وأسلهم إلى لون من العذاب الفريد في بابه . . والذي كان إنكارًا من الله مدمرًا . . يصح أن يكون مثلاً تسير بذكره الركبان ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .



لكل دعوة.. أبو جهل!

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾[1].

مضت سنة الله في الأولين.. أن كل مكذب بآية مبصرة تحق عليه كلمة العذاب.. وصار هلاكه نتيجة حتمية لعناد تجاهل البرهان المحسوس.

وفي حلقة من سلسلة عناد المشركين تطلب قريش من الرسول (ﷺ) آية حتى يؤمنوا إذا هم شاهدوها... وقد استطاع المشركون فيما يبدو أن يتكلفوا الجد في الطلب.. وأن يتقنوا الدور إلى حد ظن فيه بعض المسلمين صدقهم.. فضموا أصواتهم إليهم في رغبتهم المتعلقة بنزول الآية المقترحة.. لينتهي بنزولها صراع طال مداه...

أي أن الخطة الماكرة تقترب من تحقيق نصر تبدو الآن بوادره حين تستميل إليها قلوب عامة المسلمين... في الوقت الذي لا يسير ميلهم في اتجاه يخدم الدعوة.. تلك الدعوة التي تهتف بهم أن يحرروا أنفسهم من كل ركون إلى أعدائهم:

---

(١) الأنعام: ١١١، ١١٣ .

﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ (١).

ولقد أفصح المشركون عن هذه الرغبة قبل ذلك.. فأقسموا أن لو جاءتهم آية لآمنوا بها.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢).

والآية الكريمة تشير إلى كذبهم على نحو أكيد.. لكن المسلمين الطامعين معهم لا يشعرون بموقفهم الجامد لو نزلت هذه الآية.. وأي شيء يجعلهم شاعرين بهذه النتيجة مدركين لها.. والحال أنهم لا يعلمون الغيب؟

وفي الآيات التي معنا يلفت الحق سبحانه وتعالى المسلمين ليدرؤوا عن أنفسهم هذا الخطر فيقطعوا كل آمالهم في إيمان قوم كتب الله عليهم الكفر.. لأنه سبحانه لو أجابهم إلى ما طلبوا.. بل وفوق ما طلبوا فلن يؤمنوا.. فلتبق للمؤمنين شخصيتهم المتميزة بعيدًا عن كل ما يؤثر فيها.. وإن بدا في ذاته يسيرًا جائز الوقوع.. لأنه شرك منصوب يراد به زعزعة الصف.. وتفريق الشمل.. صادر عن خطتهم الماكرة في حرب الإسلام وأهله والتي صرفها الله في القرآن الكريم:

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (٣).

---

(١) هود: ١١٣ .

(٢) الأنعام: ١٠٩ .

(٣) الأنعام: ١١١ .

فلو أنه سبحانه وتعالى نزل عليهم الملائكة.. ولو بعث آباءهم من قبورهم شاهدين عليهم بالكفر.. وحتى لو جمع لهم كل كائن يشهد بصحة الإيمان.. ما أذعنوا.. إلا أن يشاء الله ذلك.. فهو وحده القادر عليه.. والعليم بموقفهم من عقيدة الإسلام.. وهذا أمر لا تمكلونه أنتم.. وتعجز وسائلكم البشرية عن تحقيقه.. ومن ثم.. فقد اتجهت بكم أمانيكم إلى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء... حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا..

والحقيقة التي يجب أن يكونوا على وعي كامل بها.. أن هؤلاء أعداء الدعوة.. وإن استترت هذه العداوة وراء محاولات خادعة براقة.. وفي ضوء ذلك ينبغي أن تكون صلتكم بهم من اليوم.. وهم يسيرون على سنة أسلافهم في معاداة الرسالة.. كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وإذن.. فلا يعتبر رجاؤهم للآية مبادرة سلام.. لكنه شرك الردى.. ينصب لكم بغية تفتيت الوحدة التي تلتقون عليها.. ولا يكون لكم من بعدها وجود..

انظروا: يزين بعضهم لبعض.. هكذا كتلة واحدة.. حلقة مفرغة لا يدري أين أطرافها..ولا يزالون يقاتلونكم بالكلمة الخادعة حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا.. وإذا كان المجرمون يلتقون هنا على الباطل جماعة.. وإذا كانت روح الحقد تسلكهم قبيلاً واحدًا يتربص بكم الدوائر.. فكيف يكون موقف المسلمين.. الذين يدعون إلى الحق وإلى طريق مستقيم؟

إنهم في حاجة إلى مزيد من الوعي يطلعهم على حقيقة أهداف

القوم.. ليشجبوا في النهاية دعاية القوم المغرضة.. ويلتفوا حول محمد (ﷺ) سدًا منيعًا يفوت عليهم أغراضهم.. ويكشف دعواهم الكاذبة بشأن السلام.. بينما هم ينسفون كل محاولة من أجل السلام! ومن أجل تفوق الإنس في عدائهم.. و تعقد حيلهم.. يقدمهم السياق على شياطين الجن الذين تقصر حيلهم.. ويتضاءل خداعهم إلى جانب ما يبيت البشر لبني جنسهم!

يروي عوف بن مالك عن أبي ذر قال: قال رسول الله (ﷺ) «يا أبا ذر، **هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن**».؟ قال: قلت يا رسول **الله**: وهل للإنس من شياطين؟ قال: «**نعم، هم شر من شياطين الجن**».

وبوحي من القرآن والسنة المطهرة يقول مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد عليّ من شياطين الجن.. وذلك إني إذا تعوذت بالله ذهب عني شياطين الجن. وشياطين الإنس تجيئني فتجرني إلى المعاصي عيانًا.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾.

إن الأعداء لا يشكلون دولة داخل الدولة وليسوا هم أصحاب مملكة يقيمونها في ملكوت الله العريض. وموقفهم المنحرف يقع في إطار من مشيئته سبحانه ولو شاء ألا يقع.. ما وقع.. بيد أنه أراده خيرًا يتاح للمسلمين أن يجنوا ثماره.. من خلال الصراع المستمر بين الحق والباطل.

وإذا كان جسم الإنسان يقوى بالرياضة.. فإن روحه تسمو.. من خلال جهاده في مواجهة وسوسة الشيطان.

وإذن.. فإمساك الآية المقترحة رحمة بالأمة التي علم الله عدم إيمانها بالآية لو جاءت فحال بينها وبين الهلاك بهذا الإمساك.

وكذلك كان اختبارها بالأعداء من شياطين الإنس والجن فرصة يربي فيها الله سبحانه إرادتهم حتى تصقل.. ليكونوا بعد ذلك أصلب عودًا.. وأشد مراسًا.. وإذا كان الأمر كذلك.. فليتركوا الأعداء وشأنهم مادام وضعهم ـ المسلمين ـ في اتجاه الخير على أي حال. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

ومن تمام نعمة الله سبحانه بالأمة المسلمة أن يكشف لها عن خطة هؤلاء الماكرين في محاربة الدعوة:

إنها تبدأ بوسوسة عابرة في ألفاظ منمقة براقة.. ثم هي وسوسة على مدى الأيام مكرورة متجددة.. كما يفيد التعبير بالفعل المضارع: «يوحي بعضهم» واستمرار هذا التزيين من شأنه أن يخلف انطباعًا يعمق بمرور الزمن.. ثم يتحول من انفعال طارئ إلى عاطفة متأصلة.. تحن إلى العمل: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾.

ومع إلحاح الوسواس الخناس يكون الإنسان قد اتخذ لنفسه موقفًا محددًا يتجه به نحو الإثم مباشرة: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾.

ولم يبق بعد ذلك إلا ممارسة الشر سلوكًا: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

وما دام الأمر كذلك.. فإن كل تهاون من قبل المسلمين وإن بدا ضئيلاً.. يتحول في غفلة الزمن إلى عمل وسلوك.

وكل توجيه يستهدف المسلمين في أول الطريق.. وقبل أن يستفحل الشر يجب الاستماع إليه والالتزام به.. تفويتًا لخطة الكافرين ومن ورائهم من اليهود الذين يباركون مثل هذا المكر إن لم يكونوا هم واضعي أسسه!

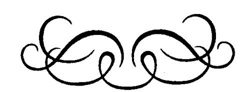
إن هذا التزيين لا يؤثر إلا في قلوب «لا تؤمن» بالآخرة جزاء

ومصيـرا.. من قلوب الحسيين الذين يأخذون حيـاتهم بالطول والعرض ولا يتصورون يومًا ينظر المرء فيه ما قدمت يداه.

وبذلك يتميز الفريقان تميزًا لا شبهة فيه:

فريق هو من الآخرة في شك... يعمل لحـساب الشيطان.. وفوقهم جميعًا يستعلي المؤمنون بعقيـدتهم.. فلا يسلمون قلوبهم فريسة طيعة لدعاة الفساد من حـزب الشيطان ذلك بأنهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

أنهم.. على هدى.. يقعدون منه مكانًا عاليـا فيرون من الكون مدى أوسع وآفاقًا أرحب.. ومن ثم يقيمون حـياتهم على أساس وطيد.. يجعل منهم قوة تعـتز بشـخصيـتها.. وتكشف النقـاب عن كل محـاولة يراد بها إنزالهم من فوق قمة عالية لا يصعد الكافرون إليها: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾!!.



(١) البقرة: ٤، ٥.

عندما يتحكم الهوى

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * ﴾[1].

أسفرت المؤامرة الغادرة عن وجهها الحقيقي حين عرض المشركون على الرسول (ﷺ) أن يجعل من أحبار اليهود وأساقفة النصارى حكمًا بينهم وبينه كما يستفاد من سبب نزول هذه الآيات الكريمة.

وإذن.. فالقوم الذين يتلقون من طلب الآية إلى اقتراح الحكم.. لا يؤكدون عنادهم فقط.. ولكنهم يريدون منه عليه السلام أن يقف معهم في قفص الاتهام على قدم سواء.. لينتظر معهم الحكم.. له.. أو عليه.. من فوق منصة عالية يتربع عليها أهل الكتاب الضالعين معهم في خطتهم الماكرة.. يطلبون ذلك.. لا حبًا في أهل الكتاب.. وتقديرًا لحكمهم.. لكنها محاولة يائسة لتجريد الرسول من معنى «الهيمنة» التي يمسك بها زمام الموقف.. إذا أخذ مكانه بينهم.. ينتظر مصيره الذي يقرره الأحبار والرهبان.

(١) الأنعام: ١١٤ـ ١١٧ .

ثم هي من ناحيـة أخرى إبراز لعنصـر آخر غيـر الرسول فوق مـسرح الحوادث.. ولا بأس أن يكون هو اليـهود.. فعـدو العدو.. كمـا يقولون حبيب!

ولا يستبعد أن يكون هذا اتفاقًـا تم بإيعاز من اليهود الذين يقفون وراء مثل هذه المحاولات التي تفوح منها رائحة خبيثة تفردوا بها دائمًا.

ومن هنا لا تتحدث الآيات الكريمة عن ذلـك العناد.. ثم تشدد النكير على هذا الاقتراح الخبيث بنفي أن يكون غير الله حكمًا بعد أن أنزل الكتاب الكريم.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾.

ذلك ما لا يكون!

إن الاستـسلام لمثل هذا الاقتـراح تنازل عن خصيـصة تلازم الجمـاعة المسلمة.. فهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾.

ومن مظاهر شـدتهم عليهم رفض هذه المحـاولة والتأبي على الإنقـياد لها.. لأنها تقف بهم مـوقفًا مهينًا.. يتـراخى في أيديهم الحبل المتين الذي هم به مـستـمسكـون.. وتزحزحـهم عن مكان الصـدارة الذي هو مكانهم الدائم. ثم هي متاهة يشدون إليها حتى تضيع أمامهم معالم الهدى.. ثم لا يعودون منهـا سالمين. وكيف يستـقيم في ذهن عاقل أن يتـجه إلى المخلوق يطلب منه الهدى.. متجاوزًا الخالق القادر وحده على ذلك؟

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * ﴾[1].

إنه لم يترككم سبحانه في بيداء الحياة حيارى.. لكنه أمدكم بروح منه.. وحدد لكم المعالم لتنتهوا إليها.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾.

إن الذين آتاهم الله الكتاب.. وهم الذين تطلبونهم اليوم حكمًا.. من أشد الناس إيمانًا بحقيقة القرآن.. وأعمقهم معرفةبه! فلحساب من هذا التحكيم المقترح.. بعد أن عرفتم الحياة سلفًا؟! إنها الرغبة في التشهير وعرقلة المسير!

ثم إن الأحبار لتعلم ذلك بتعليم الله إياهم في كتبهم.. وليس ذلك إلى عقولهم وحدها.. فلن يستطيع عقل قاصر يحكمه حقد مقيم أن ينطق بالصواب إذا طلب منه ذلك.

إن واحدًا من أحبار اليهود أو أساقفة النصارى «إذا نزلت به نازلة، أو سئل عن معضلة، فزع إلى فكره فشحذ.. وإلى نفسه فأيقظها.. وإلى معلوماته فاستعرضها.. عسى أن يعثر فيها على حل، أو يظفر منها بجواب.

أما النبي فهو على العكس من ذلك: يعمد إلى نفسه فيسكن من حركتها. وإلى أفكاره فيهدئ من ثورانها.. وإلى حواسه فيقلل من تعلقاتها

(١) يونس: ٣٥، ٣٦.

ويبعـدها عن محسوسـاتها. . ثم ينتـظر الوحي من الله. والتلقي عن الملأ الأعلى. فإذا نزل عليه الوحي من عند الله صدع بذلك في وضوح لا يمازجه تعقيد. . ولا يشوبه التواء عن القصد ولا تحير في الغاية»[1].

لعل هذا بعض أسـرار التعبـير في قـوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾؟

فقد لاحظ بعض المفسرين أن الله عـز وجل يأمر الرسول أن يقول لهم ذلك. . وإنما استفهم مستنكرًا أن يـكون غيره حكمًا. . كأن ذلك أمر فطري مـعلوم لدى كل ذي عـقل. . والأمـر من الوضـوح بحيـث ينطق به المرء تلقائيًا. . دون حاجة إلى تلقين.

وأهل الكتاب يعلمـون ذلك جيدًا. . لكنهم يسكتون سكوتًـا مريبًا. . فمثل هذا الهراء يحقق بعض أغـراضهم في التشويش على دعوة الإسلام. . وإن لم يصب منها مقتلاً.

وحتى أهل الكتاب في عصرنا يؤمنون بالقـرآن وصحة نسبته إلى الحق سبحـانه. . ومنهم الكاتب الفرنسي «سيديو» الذي قـال: «لو وجدنا القرآن في فلاة. . ولم نعرف من جاء به. . لعلمنا أنه من عند الله».

وهذا المعنى بالذات. . قـد بلغ حد الضـرورة لدى المسلمين. . ومنهم الإمام الشافعي حين قال: «لو ضاع حبل ناقتي لوجدته في القرآن».

وهذه الحقيقة الراسـخة لا يذهب بها شك عارض: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

---

(١) المرحوم الشيخ يوسف الدجوي ـ رحمه الله ـ في بحثه: «الفلسفة والنبوة» ص٥ .

فالحقائق اليقينية الثابتة.. لا تؤثر فيها شكوك المنحرفين أبدًا.. وهذه قاعدة ذهبية يؤدبنا بها القرآن.. لتكون أساسًا من أسس معاملة الآخرين: إن كل حقيقة تتصل بالدين.. أو الرسول.. أو تتعلق بواحد من عامة المسلمين وخاصتهم.. ينبغي أن تظل في مكانها ثابتة لا تريم.. ولا يمكن لشائعة مغرضة أن تنال منها..

وكثير من الناس تسوقهم الأهواء في غفلة منهم.. فيجرون وراء تهمة تتجه نحو إنسان ثبتت لهم نزاهته وكفاءته.. ثم يغالطون أنفسهم في نفس الوقت.. إذ يستعمون إلى شائعة لا يؤيدها منطق.. متجاهلين مواهبه التي عززها المنطق.. وشد من أزرها الواقع الماثل.

وهكذا.. يجب أن تبقى الحقائق.. صاحبة الكلمة العليا.. بعيدًا عن كل محاولة يرمي بها أعداء الحياة كل رجل رشحته مواهبه لينال حظًا في حياته.. لم ترفعهم قواهم إليه.

إن كلمة التوحيد مبدأ ثابت لا شك فيه.. ولكنهم يجادلونك في الحق بعد ما تبين.. بمحاولات التشكيك المستمرة المغرضة.. وإذا كانت الحملة هذه قد حققت بعض أغراضها.. فإن في ثباتك وصحابك على التوحيد عزاء يفوت عليهم أغراضهم. وماذا بعد الشك في القرآن إلا أن تتطلعوا إلي غيره استكمالاً لما فاته.. وحاشاه؟!

وليس يصح في منطق العقل أن تتجهوا إلى مصدر أرضي تطلبون في رحابه أمنكم.. بعد أن تمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً.. نظرًا وتطبيقًا..

إن مثل هذا الاتجاه يصبح ـ من حيث لا تحسبون ـ طاعة لأعدائكم يحشركم معهم في زمرة واحدة تضرب في بيداء الحياة على غير هدى.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾.

وسوف يظل هذا التحذير قائمًا إلى يوم القيامة.. ينبه المسلمين إلى الحرص المستميت على ما بين أيديهم من تراث أصيل تبذل المحاولات لتدميره... أو إقصائهم عنه.

إن كثرة الملتفين حول معنى دنيوي مادي لا تصبح تشريعها لهذا المعنى.. فليست الكثرة مقياسًا منطقيًا تنزل الأقلية على حكمه طائعة بالتخلي عن مقومات ذاتها تأثرًا بمشهد كاذب أجوف. وقد حكمت هذه الكثرة على أنفسها بالفشل حين اتفقت على إطلاق بناتهم ونسائهم عرايا في الطريق.

وآخرون مرجون لأمر الله ينظرون إلى الإنسان على أساس من جنسه ولونه بغض النظر عن دينه وخلقه.. ثم يعلمون أطفالهم ذلك التعصب على أنه مبادئ ثابتة يؤيدها العقل السليم؟!

فهل تعتبر مثل هذه الكثرة الكاثرة قمة نتطلع إليها.. وننزل على حكمها؟ إنهم يبنون حياتهم على فراغ.. وتخمين.. وعلى أساس من ذلك الاستهواء الجماعي الذي يجعل من الحشد الهائل موجات من البشر تميل مع الرياح حيث تميل.. بينما يقيمكم الإسلام على مبادئ ثابتة.. يفنى الزمان وهي باقية.. وإذا كان ولابد من تبعية.. فلتكونوا أنتم القواد المتبوعين.. فعناصر القيادة في كيانكم أنتم.

لقد كان «نابليون بونابرت» يفخر على أوربا كلها بقانون نابليون.. مع

أن صلته به أنه وضع في عهده.

فكم يكون رصيدنا من الثقة بالنفس.. والاعتزاز بالماضي.. والرجاء في المستقبل ونحن نقدم للحياة كلها عناصر بقائها المستمدة من الوحي المعصوم على لسان رائد لا يكذب أهله؟

وإذا كانت الحياة تدلل مثل هذه الكثرة.. فليس متاعهم دليلاً على رضاء الله.. كما أن شدتكم التي تمرون ليست دليل غضب.. لأن تقدير الله سبحانه للأمم على أساس من أخلاقها.. وبقدر بلائها من أجل الحق والعدل:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.



خدعة مكشوفة!

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [١].

يقولون في أمثالهم: من أحبني ولم يحب أبي.. فليس فيه خير لي.. ولا لأبي! ذلك بأن محاولة الفصل بين الفرع وأصله نوع من التضليل يراد به القضاء على الاثنين معًا عن طريق التفريق بينهما.. بحيث يكون التخلص من كل واحد على حدة أمرًا ميسورًا.. فضلاً عن بطلان دعوى الحسب أساسًا بالنسبة للابن المخدوع.

هذا الأسلوب الخادع في دنيا الناس قد سلكه المشركون في حربهم مع محمد عليه الصلاة والسلام... جاءه أبو جهل موفدًا من قبل عصبة الكفر وقال للرسول (ﷺ): ما نكذبك يا محمد... وإنك عندنا لمصدق ..وإنما نكذب ما جئتنا به.

فالخصومة ـ كما يدعون ـ ليست قائمة بينهم وبينه شخصيًا.. لكنها بينهم وبين ما جاءهم به.. وهو الإسلام!

وإذا تعذر على ذهن منصف أن يتصور رجلاً يصدق الناس حين يعاملهم ثم يكذب على الله تعالى حين يحدث عنه.. إذا تعذر ذلك على الذهن.. فإنه من السهل عليه أن يلمح خيوط مؤامرة وراء هذا المنطق

---

(١) الأنعام: ٣٣ .

الغريب.. تستهدف الرسالة.. والرسول معًا.

وتبدأ الخدعة الكبرى بتبـرئة الرسول من تهمة الكذب.. ثم اتهام الحق سبحانه وتعالى بها؟! ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾.

وكان في تقـدير القوم حـينذاك.. أن يفصلوا بين الرسـول ودعوته.. فإذا ما نجحوا في إبعاده الناس عنها.. بقى هو بعد ذلك.. وحيدًا.. يذوي مع الزمن عوده.. بعد أن زايلته العصارة الحية.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يكشف هذه النية الخـبيثة.. وذلك بتحرير مراد القوم أولاً وأخيرًا: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

إنها مـحاولة لإقـصاء الرسول عن رسـالته التي هي حـياته وفكره.. لعلهم بهذه المغـالطة المكشوفة أن يسـتميلوه إليهم في غـمرة من هذا المديح الرخيص.

ولم يفرح الرسول (ﷺ) بما قالوا.. ولم تنطل عليـه حيلتهم.. بينما رسالته تتعرض لخطر محقق. لقـد فاض قلبه الكبير بالأسى من أجل قوم لا يكتفون بعدم الإيمان. بل يضيفون إليه محاربته والتعرض له.

ويُطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله الكريم.. متوعدًا هذا النفر اللئيم مسجلاً علـيه ظلمًا فريدًا في بابه.. يدفعهم إلى جـحود الشمس في وضح النهار.. ثم يبين للرسـول أن المعركة إنما هي بيـنهم وبين الله القادر على رد كـيدهم إلى نحـورهم.. فـلا تأس على قوم يـحادون الله.. يجـعلون من وجودهم الهزيل حجر عثرة في طريقه المستقيم.. وكن على ثقة بربك الذي سينتقم لك من عدوك. وإذا كانوا يعتـرفون بصدقه الآن فقط.. فليكن هذا

الاعتراف نقطة يثبون منها إلى إبطال الحق الذي يحاولـون تعطيل مساره.. وتلك هي عقدة الموقف كله.

إنهم يكرهون الحق.. فهم يبتغـون إلى ذلك سبلاً شتى.. ومن ثم.. فدعهم لله الذي يدافع عن دعوته.. ويثبت دعائم رسالته.

والعجيب أن الباطل ما زال حتى اليوم.. يتواصى بهذه الخدعة الماكرة.. ويستعيد الكفار اليوم خطة أسلافهم تلك في معاداة الحق وأهله.. على لسان المستشرقين أمثال «رودول».

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي في مقال له بمجلة الثقافة مايو ١٩٣٩:

«فمهما اجتهد المستشرق في بحثه بعد ذلك ـ بعد اعتقاده بطلان دعوى النبي المخالفة لـدين المستشرق ـ فإن تلك المقـدمة الباطلة التي بدأ بها كـافية وحدها أن تـضله وتخرج به من زور إلى زور وباطل. ومـهمـا اجتـهد في الإنصاف بعد ذلك فتلك المقدمة التي اعتقد، كافية وحدها لإقحامه في أقبح الظلم. وحمله على أكبر الإثم.

وأي إثم أكبر من تكذيب نبي الله وخـاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه؟ من المبدأ بغير نظر ولا تمحيص. وتلوين حقائق التاريخ كلها بما يلائم ذلك التكذيب. دعـوى الرسـالة من الله قبل النـظر في دعواه.. حـتى إذا نظروا وواجهتـهم أدلة صدقة (ﷺ) ـ عن يمين وشمـال ـ برأه منصفوهم من تعمد الكذب ليتهموه بالوهم والانخداع في النفس؟

برؤوه من تعمـده (ﷺ) الكذب علي الله في دعوى الرسـالة ليتهـموه بأنه (ﷺ) كان مخدوعًـا في نفسه. يعتقد أنه رسـول. وهو في الواقع غير نبي ولا رسول؟ أي برؤوه هو.. واتهموا الحق سبحانه.. الذي حقق كل ما

ادعاه محمد بن عبد الله ولم يكذبه في جزئية واحدة في حياته النبوية الممتدة ثلاثة وعشرين عامًا.

فإن كان محمد فيما زعموا مخدوعًا في نفسه. فكيف لم يكن مخدوعًا أيضًا في الناس؟ وفي القوى الطبيعية التي لا تخضع لتكهنات مخدوع ولا سلطان مخلوق؟

فالتطابق التام الذي كان بالفعل بين ما جاء به محمد وبين الحق الخارجي والنتائج المحتومة الرائعة التي صارت إليها دعواه.. وتصديقها له في كل ما ادعاه.. هذا كله هو البرهان العلمي على أن دعواه (ﷺ) كانت من صميم الحق. تتفق مع كل حق آخر في ميادين الفطرة التي لا حول لإنسان فيها ولا قوة. وليس هناك بين الباطل والحق فرق أكبر أو أكثر من أن الباطل لا يصدقه الواقع ولا توافقه السنن الفطرية في قليل ولا في كثير.

لكن المستشرقين مثل «رودول» الذين قالوا بصدق محمد وكذب رسالته لم يكونوا يريدون إحقاق حق ولا إزهاق باطل. وإنما كانوا يريدون التوفيق بين دلائل صدقه (ﷺ) وبين تلك المقدمة التي بدؤوا بها. والتي لو سلموا ببطلانها للزمهم أن يخرجوا من دينهم ويدخلوا في دينه. وهذا بالطبع مالم يكونوا ليفعلوه. فهم من أجل ذلك يمضون في سبيلهم يشكون فيما شاؤوا أن يشكوا فيه من حقائق التاريخ].

وإذا كان القوم لا يزالون سائرين في شكهم.. فعلينا أن نفهم أن المعركة بيننا مازالت مستمرة.. وأن عقابهم المضمر في الآية الكريمة يوشك أن يحيق بهم إذا أعددنا لهذه المعركة عدتها من الإيمان بالله.. والجهاد في سبيله.

دروس.. للدعاة

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * ﴾[1].

في سلسلة المعارك الدائرة بين الحق والباطل، وقف إبراهيم الخليل عليه السلام يلـزم قومه كلمـة التقـوى.. ويأخذ بيـدهم إلى توحيـد الله وإفراده بالعبادة.. ولقد بذل العقل الوثني المتحـجر أقصى ما يمكن من جهده لعزل إبراهيم عليه السلام عن التأثير في مجرى الحياة. وكسب مزيد من الأتباع.. ورمت الوثنية بكل ما في جبعتها من سهام حفاظًا على عروش خاوية تستمد وجودها من غموض مصطنع.. وتعتمد على بقائها على كدح العاملين من الناس. ويكشف إبراهيم عن هذه الأوضاع العفنة.. ويفضح الدوافع الخبيثة التي تقف من وراء هذا التصـور المادي للحياة: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

إنها لفتة يسيرة إلي بساطة مـا يدعوهم إليه وقربه من عقولهم إلا أنهم يلجـؤون إلى العنف بعد أن أعـوزتهم الأدلة.. تمامًا كمـا يلجأ الصـبيـان

(١) الصافات: ٩٥ ـ ١٠٥.

الأغرار إلى حفنة من تراب يرمون بها ناصحًا لهم أمينًا! ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾.

ومثل هذه العقلية المتحجرة.. والمشاعر المنحرفة لا تشجع على البقاء معها... ولا تصلح أن تكون بيئة مناسبة لدعوة صالحة. والفرار منها والحالة هذه أمر لازم.. وهو الفرار من قدر الله إلي قدر الله.. إلى أرض مباركة تزكو فروعها.. وتمتد ظلالها..

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وكثير من دعوات الإصلاح تموت في مكانها.. وإن استجمعت عناصر النجاح.. لأنها لم تجد المناخ الملائم.. والتربة الخصبة.. وحتى تستأنف سيرها المبرور في خدمة الحياة لابد لها من الهجرة.. وتكون الهجرة حينئذ جزءًا من نجاح الدعوة ذاتها. ولقد هاجر عليه السلام إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. لكن هجرته تلك المكانية قد زاملتها هجرة أخرى في المشاعر والسلوك: إن حياته الآن تجنح إلى المغيب.. وقد يكون مفيدًا أن يرزق ولدًا.. وولدًا صالحًا.. تمتد به حياته.. ويبقي به أثره:﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

وليس غريبًا أن يجيش صدره عليه السلام بهذه الأمنية الغالية.. ويلهج لسانه بمثل هذا الدعاء إلى الله.

فهو أولاً: إنسان يلبي غريزته الفطرية ليحفظ النوع.

وهو ثانيًا: رسول مكلف بتبليغ رسالة.. وإذا كان السامر قد انفض من حوله وتآمر عليه قومه.. فلماذا لا يطلب الولد الصالح يحمل من بعده تبعات الرسالة لتظل كلمة التوحيد باقية في عقبه؟ وعندما يجيبه الله ـ عز

وجل ـ إلى طلبه يمكنه أن يودع الحياة قرير العين مطمئن الفؤاد. ويسوق الله إليه البشارة بولد من أبرز سماته أنه: حليم.

إن إبراهيم عليه السلام يعلمنا أدب الدعاء. فهو لا يطلب ولدًا ذكرًا.. كما لا يرسم في خياله صورة لهذا الولد كصاحب جاه أو سلطان يفتن به الناس: إنه يطلبه.. شريطة أن يكون من الصالحين: فالذين يحلمون بولد يكون مهندسًا.. أو ضابطًا.. أو مدرسًا لا يمكن أن يتحقق أملهم إلا إذا كان الولد صالحًا.. وسوف تبقى كل هذه الوظائف باطلة المفعول إذا تخلى عن ولدك الصلاح.

فالصلاح هو لب الأمل.. وما بقى الصلاح.. فما فات الابن بعد ذلك أمر يبكى عليه.

ويستجيب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لدعاء خليله.. فيهبه الولد الحليم.. الذي يمكن ـ بحلمه ـ أن يجتاز محنة مقبلة.. وامتحانًا عسيرًا.. ويقف الوالد والولد معًا أمام هذه المحنة التي تصفها الآيات الكريمة: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

يقول المؤرخون: أمر إبراهيم الخليل ولده أن يأخذ حبله ومديته.. لينطلقا عبر الوادي ليحتطبا.. ويمضي الفتى الصغير إلى حيث أمره أبوه. وعلى الرغم أن الأمر وحي من الله عز وجل.. ولابد من تنفيذه إلا أن الخليل يأخذ رأي ولده في قضية هو أحد طرفيها.. وبذلك يعينه على طاعته وتنفيذ أمر الله. ورحم الله والدًا أعان ولده على بره.

وقد أثمر الموقف الرشيد ثمرته المرجوة حين قال إسماعيل: ﴿يَا أَبَتِ

افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

ويفصل المفسرون هذا الموقف الرهيب فينسبون إلى إسماعيل قوله لأبيه بين يدي الذبح المتوقع: «اشـدد رباطي كيلا أضطرب. واكفف ثيـابك حتى ينتضح ممن دمي فينقص من أجري. . وتراه أمي فتحزن».

وتلتفت الحيـاة إلى الطفولة الباكرة وهي تعلم الناس مـعنى الفداء! قد يساعد إبراهيم على تنفيذ أمر الله أنه وحي لابد من تنفيذه. . لكن. . ما بال الغلام الصغـير؟ أية قوة خفيـة عارمة كانت تشد مـن أعصابه في لحظة تزل فيها أقدام الأبطال؟

إن كثيرًا من المغامرين الذين يدعون البطولة. . تخلت عنهم شجاعتهم بينما هم يساقون إلى غرفة الإعدام. لكن الغلام الصغير لا يصمد فقط لهول الموقف. . بل يعـزز رشـده بالحكمـة وفصل الخطـاب في لحظة يضـيع فيـه صواب الإنسان ويغيب عقله.

لقـد كان من المعـقول أن يفـر الفـتى من أبيه كـغزال شـارد وله ألف عذر. . فالحياة هناك. . . مع الرفاق. . جمـيلة ومن حقه أن يستمتع بها. . ولكنه نسي كل هذا. . وذكر شيئًا واحدًا: هو طاعة أبيه الأواه الحليم.

ولا ننسى موقف الخليل الراشد. . وكيف اتسم بالمرونه والحكمة بحيث جاء في باب التربية منهـجًا سديدًا. . ساق في النهاية إلى استسـلام الصغير لأمر الله.

وإذا حفلت الصورة بمعاني. . الفـداء والصبر والطاعة. . فإن من وراء ذلك كله درس يجب أن تعيـه أذن واعية. وبخاصة في مـجال تربية الأبناء: فليس عيبًا أن يأخذ الأب رأي ابنه في شؤون حياته. . وليس ظلمًا أن ينتصر

الابن في بعض الأحيان.

بل إن اشتراك الابن في صنع حياته.. من شأنه أن يخلق في وجدانه شعورًا بذاته.. وبأن له كيانًا مستقلاً وصوتًا مسموعًا. حتى إذا استقل في حياته العملية غدًا.. زودته هذه التجاريب بعناصر النجاح.. وجاء عمله متسقًا.. على صورة نفسه المتسقة الواثقة وإنها لتدل على تقدير القرآن الكريم لحرية الرأي.. كأروع ما تكون الحرية..

ولقد منح الإسلام العبيد في كنفه من الحرية ما يحلم به الكثير من الأحرار في أمريكا على حد تعبير العلماء.

ولقد جاء موقفه من غلامه وفاء بخطته العامة في الدعوة إلى الله.. حين تدرج بقومه من الكوكب.. إلى القمر.. إلى الشمس.. إلى الذي فطر السموات والإرض حنيفًا. أي أنه بيسر وسهولة ينتقل من الكون إلى المكون.. على نحو لا يصدم المشاعر.. بل يُحَوِّلُها لتسير في اتجاه سليم.

وها هو ذا: يذكر المدية.. والحبل.. والحطب.. ثم يعرض الأمر في صورة رؤيا منامية.. مجردة من صرامة الواقع.

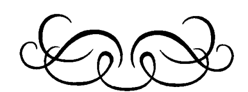
إن النجدة لتهبط من السماء في اللحظة التي يسلم الاثنان قلبهما لله عز وجل.. وهكذا في شؤون الحياة: يجئ نصر الله والفتح عندما يسلم الإنسان وجهه إلى الله سبحانه.. وهو مفهوم العبادة لله والخضوع لأمره.

وسلام على إسماعيل في ذكرى وفاته وفدائه. في ذكرى منطقة الفذ.. الذي يجب أن يأخذ مكانه في مقدمة الأناشيد الوطنية التي يرددها التلاميذ في مستهل كل صباح.

إنه معنى في الفداء.. ما أحوجنا إليه اليوم.. إنه نشيد الساعة.. في وقت تدق فيـه ساعة الجـهاد.. أما الذبيح إسمـاعيل.. أو إسحـاق.. فلا ينبغي أن يدور حوله الجدل.. فإن لإبراهيـم ولدًا.. علم الحياة معنى الفداء الذي نفـتـقـده اليـوم.. والمفـروض علينا.. وفي ذكـرى ضـيـاع فلسطين العزيزة.. والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. وأمام وجه النكبة الكالح يطل علينا من شرفات التاريخ.. مفروض أن نترسم خطى أبي الأنبياء.

فنسير عبر هذه الصحراء الممتدة.. ومعنا الحبل.. والمدية لنسوق أمامنا إلى الميدان الواسع هذا الابن اللقيط.. ثم نذبحه هذه المرة!

ويومئذ يفرح المؤمنين إذ يصبح الذبيح.. إسرائيل!!



القرآن...والإنسان

﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *﴾[1].

في خيالي مشهد من مشاهد الطبيعة:

جماعة من مهندسي فن البناء كلفوا بإقامة مجموعة من المساكن الشعبية.. وأعلنت الحكومة عن جوائز مغرية لكل مهندس يجيء بناؤه محققًا للغرض المقصود. وتمت عملية البناء.. وفاز واحد منهم بالجائزة الأولى.. ورغم أن البيت الذي شيده يتيه شموخًا وجمالاً..إلا أنهم بدل أن يبحثوا عن سر جماله.. راحوا يرمونه بمختلف التهم.. ووقف المهندس الفائز يقرعهم بحجته قائلاً:

يا إخوتي، مادة البناء لدينا جميعًا واحدة.. والطلاء واحد.. والمساحة متساوية.. وقد اتحدَ زَمَنُ البناء مع كل ذلك.

فلماذا جاء بنائي شامخًا يشق الفضاء.. بهيجًا يسر الناظرين؟ لا شك أن هناك أمرًا وراء الحجارة.. والطلاء.. والمساحة.. إنه الاستعداد الفني..

(١) هود: ١ـ ٥ .

الذي تفردت به دونكم جميعًا.

ونغمض عين الخيال هذه.. لنفتح عين الحقيقة على مشهد آخر يرسمه القدر الأعلى.. ولله المثل الأعلى..

إن الحق سبحانه وتعالى يفتح سورة هود بهذه الأحرف الهجائية: ألف... لام.. ر.. وكأنه سبحانه يهز العقول الغافلة حتى تستيقظ.. وتوازن وتستنبط.. لتصل إلى هذه الحقيقة: إن هذا القرآن مؤلف من جنس ما تنظمون منه كلاكم. أي أنه بناء مكون من نفس المادة التي تصغون منها خطبكم وشعركم..فلماذا تقاصرت هممكم.. وعجزت عن الإتيان بمثله؟ لماذا تعود الهمم إلى قواعدها حيرى.. فلا تستطيع الإتيان بمثله.. ولا حتى بأقصر سورة منه؟!

إنها القدرة العلياإذن.. إنه كلام خالق القوى والقدر.. وأين قدرة المخلوق من قدرة الخالق سبحانه؟! وهذا القرآن المؤلف من تلك الحروف.. والمتفرد بالإعجاز وحده.. مفتوح أمام قلوب تنشد الخير وتسعى إليه.

ويمكن لكل راغب في الإيمان به أن يوازن بينه.. وبين ما ينظمون وما ينثرون.. ليكون بعد ذلك على بينة من ميزة القرآن العظمى.. أنه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

إنه يتصف بالإحكام.. فكل آية.. وكل كلمة وحرف يأخذ مكانه المناسب ليحقق الغرض كاملاً.

وفي دائرة من هذا الإحكام تجئ الآيات مفصلة على قدر.. وبحساب موزون.. ولو أن وصف «التفصيل» سبق سمة «الإحكام» لربما ساغ للملحد أن يدعي أن قدرًا منها قد فصل هكذا اعتباطًا وقبل أن يتداركها الإحكام

والضبط وحسن التقدير! ولكن الحق سبحانه وتعالى يقطع الطريق على مثل هذا الوهم فيثبت له الإحكام سلفًا.. ليعلم الناس أن كل تفصيل في العقيدة أو الشريعة إنما جاء في نطاق من حكمة الله التي وصف بها كتابه لأول وهلة حتى يبادر الناس إلى الإيمان بها.. والعمل لها.. على ثقة ويقين. على عكس كلام البشر الذي يتسم بالخلل.. وبالخفاء والغموض.. لأنه نتاج عقل تقتله جرعة.. على لسان تؤلمه بقة.. وتسكته شرقة!

وبناء علي هذا الدليل المقنع يجب أن يكون التوحيد ثمرة مرجوة تعقبه كما يعقب الليل النهار: ﴿ **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ. وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾.

ومعنى ذلك أن بساطة الدليل وبلاغته معًا تقود إلى الحقائق الآتية:

١ـ الوحدانية: ﴿ **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ** ﴾.

٢ـ الإيمان برسالة محمد (ﷺ): ﴿ **إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** ﴾.

٣ـ ضرورة التقدم وانتزاع الأقدام من أوحال الخطايا.. تمهيدًا لصحة الإيمان.. والنجاح المأمول في كل مجال من مجالات الحياة.

والآيات الكريمة بهذا الأسلوب تخاطب العقل.. وتلمس القلب.. وتنير الوجدان بما تعدهم به من متاع حسن. وهو معنى يجب أن يفهمه الدعوان إلى الله متأسين بالقرآن الكريم: ليواجهوا في الناس ملكاتهم كلها.. حتى يحققوا بعد ذلك ما يهدفون إليه.

لقد جاء القرآن الكريم دواء يطهر القلوب من عواطف دخيلة على طبيعة الإنسان.. وكانت الآي تترى منشئة في صدور القوم عواطف جديدة

نحو عقائد التوحيد والبعث.. وإذا كان قلب الإنسان هو مستقر العقائد ومستودعها. فقد سلك القرآن الكريم في دعوته إلى الحق طرائق شتى ليغرس في تربته بذرة التوحيد:

تارة يسوق الدليل عن طريق العقل المفكر.. لعل في مقدماته ما ينعطف به إلى الحق.

غير أن الاتجاه إلى القلب عن طريق المنطق.. كثيرًا ما يصدم بحشد من الأوهام والعقد النفسية التي تراكمت على مر السنين.. وتصبح حينئذ حاجزًا يمنع الدليل أن يستقر في أعماق الإنسان.. بل إن الدليل بمقدماته قد يرتطم بهذا الحاجز.. فيضطرب وضعه ليصبح الحد الأكبر أصغر.. مثلاً! على نحو ما قال الشاعر:

أقول له عمرًا فيسمع خالدًا ويقرؤها زيدًا ويكتبها بكرًا!!

ومثل هذا الصنف من الناس لا يخاف إلا بعينيه! وهو في حاجة إلى الخوف كأسلوب في الترهيب ربما لوى عنقه إلى دعوة الخير. ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ. إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

والحق سبحانه وتعالى لا يأمر رسوله أن ينذرهم بفعل الأمر «قل» بل إنه يخاطبهم مباشرة: ﴿**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**﴾.

فليس التخويف مجرد كلمة يفوض إليه إطلاقها.. بل هو أمر واقع يتحدث عنه.. ثم إن التعبير ما يشير إلى ضرورة المبادرة إلى الإيمان.. قبل أن يحل هذا العذاب المتوقع.. والذي يوشك أن يلم بهم قريبًا.

وتكشف الآية الكريمة عن حيلة يلجأ إليها الصبيان في لهوهم حين يواجهون بأمر جاد: إنهم يلجؤون إلى سياسة النعام التي تدفن رأسها في

الرمال حاسبة أنها في خفية عن أعين الرقباء! . وهم كذلك يستخفون . . ويتدثرون بثيابهم فرارًا من دعوة الرسول (ﷺ) . . وإعراضًا عنه .

وما علموا أن علم الله محيط بهم . . يرى ذات الصدور وما تكنه . . وحديث أنفسهم الخفي من معرض علمه سبحانه وتعالى . . وكفى بذلك تهديدًا من شأنه أن يعود بهم إلى الله . . وهيهات . . ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .



خصائص المؤمن

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[1] .

تفرد أسلوب القرآن الكريم في خطابه للإنسان عن بقية المذاهب والفلسفات التي فشلت في أن تصوغ شخصيته على نحو يحقق هدفه في حياته:

ذلك بأنها إما أن تخاطب في الإنسان عقله.. وتنسى الجانب العاطفي في كيانه. وإما أن تنطلق مع المتعة الحسية فتحط من قدر العقل المدرك.. كقبس من نور الله يهدي للتي هي أقوم.

ولقد ضاعت قيم الحياة بين هذين الاتجاهين.. من الإفراط.. والتفريط.. وجاء القرآن الكريم ليخاطب الجانبين معًا: فواءم بين جمود المعاني النظرية.. والفورات العاطفية مواءمة حقق الإنسان بها وجوده كخليفة الله في أرضه.. بدافع من حفظ توازنه الذي حققه القرآن الكريم..

ثم إن الإسلام.. يمضي مع الإنسان في كل مراحل حياته: هو معه ضد نفسه.. وضد شيطانه.. وأخطار مجتمعه.. يشد من أزره.. ويمهد له

---

(١) الأحزاب: ٣٥ .

السبيل.. ويوضح أمامه الغـاية.. كي يصل إليها آمنًا مطمئنًا.. ولم يتخل عنه لحظة من زمان.. ليصير لبنة صالحة يستقيم بها البناء.

وهذه الآية الكريمة. إحدى الآيات البينات.. التي تخاطب في الإنسان ملكاته كلها.. وتتعـامل مع كل جانب في حياته.. لينطلق بكل قـواه عبر مستـقبل أفضل في صحبـة أفراد مجتمعـه الذين يشكل معهم جماعـة حية متكافلة.. بما ترسم من خـصائص يمكن لو أحسن الاتصاف بهـا أن يتحقق الأمن والرخاء للفرد والمجتمع:

فأولى خـصائص المسلم: أن يكون سـلامًا لمن حوله.. ومـا حوله.. شعـاره السلام دائمًا.. فـي بيته.. وفي حـياته العامـة.. ثم تنداح الدائرة ليصبح السلام ترنيمة عذابة الإيقاع في فم الأمة كلها.

وهو سلام يختلف في مـفهومه كمـظهر للجماعة الإسـلامية عن هذا السلام المزيف.. والذي يتنادى به المستعمرون!

إن سـلامنا الذي ندين به طريق سـهل مـعـبـد.. تحف به الورود،، وتظلله الرياحين. سـلام يحـفظ على الإنسـان أغلى نعـمة فـي حيـاته.. الأمن.. الأمن الذي يصـون أعـصابة وقـدراته فـلا تذهب سـدى.. لكن السلام في فم الاستعـمار وإن بدا خداعًا براقًا.. فهـو طريق وعر.. رسمه فوق هوة عميقة.. تحف به أفواه المدافع.. وتظله قاذفات اللهب.

وإذا صار الإنسـان سلامًا.. يكف جـوارحه فلا تؤذي أحـدًا بقول أو عمل فلابد له من قاعـدة صلبة تشد من أزره.. وهو الإيمان. وبذلك يلتقي السـالب بالموجب.. فـيـشع الضـيـاء في كـيـان الإنسـان. وهنا يأتي دور القنوت.. العمل.. كنتيجة منطقية وعملية للسلام.. والإيمان.

ولا يحسبن المسلم أنه إلى هنا قد بلغ المنتهى.. وأشرف على الغاية.. لأن واجبًا خطيرًا ينتظره: أن ينزل إلى معترك الحياة.. شاكي السلام لينقل إيمانه.. وعمله إلى قلوب الآخرين.. وهذا يفرض عليه أن يكون من «الصادقين» الذين يصدقون غيرهم النصيحة.. ليتسنى له الإسهام في إيجاد المجتمع كبيئة تمارس فيها الفضائل الإنسانية. واكتفاء الإنسان من الغنيمة بالإياب.. بالإيمان الشخصي دون الأخذ بيد الآخرين يجعل منه جوهرة.. لكنها تحت التراب.. وسوف يصبح إناء الفخار الذي يشرب به الناس أغلى من جوهرة مطموسة تحت الثرى!

وإذا كان ذلك أمرًا عسيرًا في منطق الكسالى.. فإن في الصبر طاقة تمد الإنسان بالقوة.. وتطرد من خياله عوامل اليأس. وعندما يستجمع الإنسان هذه الخصائص.. ربما ظن في نفسه بلوغ الكمال.

وهنا مكمن الخطر.. الذي يحس به الشيطان المريد.. فيهم بالوسوسة التي يحس معها الإنسان بالزهو.. حيث بلغ في الإيمان مرتبة عالية.. وما أحوج الإنسان في هذه اللحظة إلى «الخشوع»... إلى التواضع الذي يطامن من كبريائه.. فيفوت على الشيطان أمنية يحشد لها جنده. وإذا ما صار مع ذلك من «المصدقين» يكون قد خالف هذا الشيطان عمليًا.. ومن خلال تجربة يستعلى فيها على إغرائه بالمال الذي يكون التخلص من آثاره حينئذ انتصارًا. يفر به الشيطان بعيدًا بعيدًا

ومه كل هذه الفضائل.. يجب أن يكون ذكر الحق سبحانه وتعالى نهاية لمراحل من الجهاد.. انتصر المرء فيها على أهواء نفسه ووساوس شيطانه.. ليكون هذا الذكر أنسًا به سبحانه.. ومع ذكر سبحانه.. يذكر

عهوده ومواثيقه لتكون أبدًا قانونًا واجب التنفيذ.

ونعود إلى الآية الكريمة مرة أخرى: فماذا نجد؟ إن القرآن الكريم يسلك الرجل والمرأة معًا في كل أوامره ونواهيه.

فالإسلام.. والإيمان.. والعمل .. والصبر.. والتصدق.. والذكر.. كل أولئك فضائل في متناول المرأة والرجل معًا. وليست حكرًا على الرجل... يتفرد به دون المرأة.. التي يمكن في ظل القرآن الكريم أن تكون عنصرًا فعالاً في ترقية الحياة.. في حدود طبيعتها كأنثى. وهو تكريم للمرأة أي تكريم. لم يبلغ شأوه ما يتشدق به المستغربون الذين يظنون سبق المذاهب الغربية إلى تكريم المرأة. بينما الآية الكريمة.. بكل كلمة وحرف فيها.. تصف الرجل والمرأة في سياق واحد.. إطلاقًا لملكات المرأة.. ودفعها لها إلى الإسهام في كل مجال من مجالات النشاط الإنساني. فإذا هي فعلت ذلك.. في حدود آداب الدين وأحكامه حققت للوطن مكاسب وانتصارات تكون في ذات الوقت آية على أهمية الدين في صنع الفرد وصياغة الأمة.. صياغة تعجز عنها مذاهب الأرض جميعًا.



الطريق إلى معرفة الحق

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1].

عندما يضيق المعاند بالحق.. فإنه يحاول النيل منه.. فإذا لم يجد فيه مطعنًا اتجه يدافع من الحقد إلي الداعي متهجمًا عليه راميًا إياه بما هو منه براء. وناهيك بقوم يرمون بالجنون. أعقل العقلاء على ظهر الأرض. وعلاج هذا الصنف من الحاقدين لا يكون بالعصا.. وإنما بالموعظة الحسنة.. وهو ماجاءت به الآية الكريمة.

إن الحقيقة لتظل مائعة في ذهن الإنسان.. ضائعة في واقع حياته.. وكان المشركون كذلك في حكمهم على الرسول (ﷺ) وها هي ذي الآية الكريمة تطل عليهم من الأفق العالي.. آخذة بأيديهم على الطريق الموصل إلى الحق.. بالوسائل المجدية: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ هي:

﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، وسوف يهديكم التفكير السليم إلى الصواب.

إن الحكم بأن القرآن سحر مفترى.. وبأن محمدًا (ﷺ) مجنون.. هذا الحكم.. نتيجة لنظرة خاطئة.. ووضع عقلي منحرف.. أدي إلى هذه الحماقة الكبرى.

---

(١) سبأ: ٤٦.

والآية الكريمة تقف بالعقل في الزاوية المستقيمة والتي منها يرى الصواب الذي سلك الطريق إليه:

إنها تقول لهم: انهضوا وتخلصوا من كل تصور سابق.. ثم ليخل كل واحد بنفسه.. أو بصاحب له.

ثم تفكروا في هذا الجو الهادئ الوديع..

وسوف تلتقون حتمًا بالحق، لأنه أبدًا لا يشرد عن طالبه، ولا يضيع بين اثنين أبدًا.

والنتيجة الحتمية لهذا التفكير المستنير معروفة سلفًا بناحيتها السلبية والإيجابية وهي:

أولاً: محمد ليس بمجنون.

وثانيًا: هو رسول الله إليكم جميعًا.

(وكأن القرآن يقول لهم: أريحوا أنفسكم من الإنكار. وأريحوا الرسول من الجدل والمناقشة.. وتعالوا فاعرفوا الواقع الذي سيكون.

وهذا هو الأحرى بكم وما يجب أن تعرفوه)[1].

ويلاحظ أن الآية الكريمة تسجل نتيجة التفكير السليم.. فتنفي تهمة الجنون بإعلانها.. ولا تنتظر من القوم أن يقولوها.. ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

وتأملوا جيدًا: إن القرآن لا يفرض هذه النتيجة فرضًا.

(١) تفسير سورة الأنعام للشيخ شلتوت ـ رحمه الله ـ ص٣٩٣ .

ذلك بأنه «صاحبكم» الذي تعـرفونه. . وعاشرتموه فعرفـتم من صدقه وأمانته ما يرد عليكم تهمتكم النكراء. . والتي أنتم أحق بها وأهلها.

أما هو:

فـ ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.



من دلائل صدق الداعية

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [1].

إذا تعذر على المعاند أن يكتشف صدق من يدعوه بعقله.. ولم تطاوعه نفسه على ذلك.. فإن في الواقع الماثل ما يؤكد صدق الدعوى.. لو اتخذ المعاند إليها سبيلا.

فالرسول (ﷺ) لم يسألهم على التبليغ أجرًا.. فهم من مغرم مثقلون. بل إنه يقول لهم: كل ما حصلته من مغانم.. فهو لكم جميعًا.

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

إن الدعوة معروضة بذاتها.. وهي غنية بمبادئها.. ولا مصلحة هناك للداعي من ورائها بغض النظر عما يعانيه في سبيلها، ومنطق العقل يقول: متى صحت الدعوى في ذاتها وسلمت نية الداعي إليها فقد توفرت لها خصائص القبول.

وتصبح محاولة الفرار منها مع ذلك شهوة تتحكم.. وأغراضًا شخصية.. لا عقلاً يفكر.. ولا رأيًا ينازل رأيًا.

وإذن.. فالعيب في نفوس المعاندين لا في الدعوة المعروضة؛ لأن

(١) سبأ: ٤٧ .

الدعوة هنا تعلن عن نفسها. . ويقف من ورائهـا الإخلاص والتجرد. ويشد من أزرها الدليل العقلي.

والتـجربة شـاهدة بنزاهة الداعي. . وصدقـه. . وأمانتـه. فمـالهم لا يؤمنون. . وإذا قرئ عليهم القرآن لا يستجيبون؟

وصـحيح أنه (ﷺ) يطـلب أجرًا. ولكنه الثـواب المأمـول ممن أرسله سبـحانه وتعـالى. . والداعي هنا يفـتح أمام المدعـويين بابًا أوسع للرزق. . الرزق المعنوي الباقي. وهو خير وأجدى مما يسارعون فيه من عرض الدنيا.

يفتحه لهم. . فلعلهم يحاولون تغيير الوجهة. . ليصلوا إلى بر الأمان.

وفي نفس الوقت يلوّح لهم بأن ذلك الأجر المأمـول بيد الله العليم. . الشهيد. . القائم على كل نفس بما كـسبت. . القادر على أن ينتقم منهم لو أراد سبحانه.

وشيء آخـر. . فهو يقـول لهم: إذا كنتم تتناصـرون عليّ. . وتتنادون بالإثم والعدوان ومعصيـة الرسول. . فإنني في حمى القوة التي لا تغلب. . والحصن الذي لا يضام. . فاعلموا جيدًا نتيجة العدوان.

ومع هذا الدافع المستمر إلى الحق يقف فعل الأمر «قل» في صدر الآية الكريمة شاهدًا بـصدق الرسالة التي ينكرونهـا. . لافتًـا الأنظار إلى حقيـقة تفرض نفسها وهي:

[أنه (ﷺ) يقرأ كلامًا لا يمكن أن يكون محمدًا قاله عند نفسه، ما دام مأمورًا بالقول هكذا في كل آية].

التجارة الرابحة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

يستدعي الله المؤمنين جميعًا بهذا النداء الكريم.. ليسابقوا إلى نصر قريب.. وإلى مغفرة من الله ورضوان.. ودون هذه الغايات البعيدة.. إيمان.. وعمل.. الإيمان بالله تعالى.. والعمل بشريعته.. علي سنة رسول الله (ﷺ).

إن الإيمان بالله سبحانه وتعالى يحقق الأمن في داخل النفس.. فإذا بالجوارح تنشط من عقالها عاملة آملة. في ظل ممدود من السكينة وطمأنينة الروح.. ناسجة على منوال رائد لا يكذب أهله.. فلا يضل مسعاها.. ولا يخيب رجاؤها.. وكلما كثر نتاجها.. واتسعت دائرة الرخاء.. ضاعفت النفوس من جهدها.. من أجل مجتمع وجدت فيه بردها وسلامها.. ورد إليها الجميل.. رعاية وتقديرًا صانت بهما وجودها. فإذا ما دقت طبول الحرب.. نفرت خفافًا وثقالاً إلى ساحة الوغى.. دفاعًا عن مجتمع الإيمان.. الذي أحست فيه بوجودها.. ووجدت فيه ما عملت من خير محضرًا. علي أن يكون المال هو خط الدفاع الأول.

---

(١) الصف: ١٠، ١١.

تبذله رخيصًا.. في مواجهة أعـداء ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله. فـإذا دعا إلى بذل النفـوس داع.. كانت ثـمنًا زهيدًا.. يبـذله المؤمن راضي النفس.. ليـبـقى الدين أبدًا.. فلا ينـطفئ له نور.. ولا يسكت له صوت.

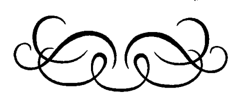
وذلكم هو الخير.. إن كنتم تبحثون فعلاً عن الخير.

إن الأمة التي تدور حول نفسها فتنفق مالها في اللهو واللعب.. والتي تضن بالنفس في معركة المبادئ.. سوف تخسر يومًا ذلك المال.. وتفقد غدًا هذه النفوس.. عندمـا يغلبها العدو على أمـرها.. بينما أمة الخيـر.. تبذل أموالها.. وتحمل أرواحها على أكفهـا.. تشتري بذلك حريتها في الدنيا.. وجنة الله في الآخرة.. فإذا عـاشت.. فرضت على العالم احتـرامها. وإذا ماتت.. بقيت من ذكراها بقية يمتد لها بها عمر في الآخرين..

ولا يبقى إلا أن ننبـه الدعاة إلى الله.. إلى ما يجـب أن يكونوا عليه تأسيًا بـالآية الكريمة.. التي ترسم هذا الخط المستقيـم لينقلوا خطاهم عليه: هل أدلكم؟

فالدعوة هنا تعرض نفسهـا بعيدًا عن الإرهاب والقمع.. ولكنها تبدو واضحة جلية.. تدعو إلى العمل بها.. لا سـوقًا بالعصا أو جرًا بالحبال.. وإنما.. لأن الداعية التي ينادي بها تعبير عنها.. ودليل عليها.. هل أدلكم؟

ويوم يكون كذلك.. فإن المبادئ القويمة.. تصبح واقعًا ملموسًا عاش لها الداعي.. فعاشت به في دنيا الناس.



العودة.. إلى القرآن

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾[1].

كان المسلم مع القرآن كأنه في بيته العامر، آمنًا في سربه. معافى في بدنه.. ميسرًا له في رزقه. ولكنه اليوم أدار ظهره للقرآن.. فخرج من بيت العزة.. إلي حيث قيدته من الدنيا أغلال.. ومن النفس أطماع.

وإذا دخل المشركون في الهجر دخولاً أوليًا.. فإن المسلمين يندرجون تحت مظلة الهجران بما أحدثوا من أمور صرفتهم عن تدبر هذا القرآن والعمل به.

يقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة:

يقول تعالى مخبرًا عن رسوله ونبيه محمد (ﷺ) أنه قال: ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾.

وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ الآية.

فكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه.. فهذا من هجرانه.

وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه. وترك تفهمه وتدبره من هجرانه. وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه والعدل

(١) الفرقان: ٣٠ .

عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره هجرانه.

وفي محاسن التأويل لابن القيم: هجران القرآن أنواع:

الأول: هجر سماعه والإيمان به.

الثاني: هجر العمل به، وإن قرأه وعلمه.

الثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه.

الرابع: هجر تدبره وتفهم معانيه.

الخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾.

وإن كان بعض الهجران أهون من بعض. أجل:

لقد خرج المسلمون اليوم من بيتهم.. من القرآن.. وهجروه إلى غيره.. فتحاكموا إلى قوانين الأرض.. فتحكمت فيه تقاليد غريبة عنه وعنهم. وتفشت فيهم العلل.. ولو صحا فيهم الضمير اليوم فعرضوا أنفسهم على مرآة القرآن فماذا يجدون؟

تغيرت الملامح.. بل تغيرت الوجهة.. فازدادت مسافة الخلف وأصبيت مطية العمر بالهزال كلما ابتعدنا عن القرآن. ونحن مطالبون في شهر القرآن أن نجدد حياتنا بالعودة إلى رياضة اليانعات وإلى قيمة البديلة الجليلة، وصدق ابن الجوزي حين قال: يامن مطية عمره قد أنضاها الحرص.

هلا كففتها بزمام القناعة.. فرب جِد أعطب. ورب أكلة تمنع أكلات.. وكثرة الماء: شرق أو غرق.. فاستنقذ نفسك بالقرآن.

الحياة في غيبة الإيمان

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[1].

يعـرف الناس أنفسـهم ويتأملون من حولهـم وهذا هو «العلم». ثم يحاولون معرفة الله تعالى عن طريق آثاره وهذا هو «الإيمان». وعلى ركيزتين من العلم والإيمان.. تكون سعادة الإنسان.

فإذا امتلك أسباب العلم فسخر الكون بذكائه.. ثم فقد العقيدة الدافعة. ذهبت أعماله سدى وصار كالمجنون في بيت من زجاج.

ولقد كان «قارون» على علم «بالكيمياء» كما يقول المفسرون.. بل فاق فيها علماء عصره. لكنه فقد الإيمان العاصم.. فبغى عليهم. وبدل أن يشكر نعمة التفوق بتوظيفها لصالح الأمة.. إذا به يطغى طغيانًا طوح به بعيدًا.. لما خلا قلبه المفتون بالدنيا من كل هم.. إلا هم الثروة التي صارت غاية وجوده.

وكان لابد من عقاب.

لم يكن العقاب مرضًا.. وإنما كان الاستدراج.. الذي فتح الله به أبواب رزق نما وتضخم حتى صار ثروة هائلة في خزائن تعجز العصبة من الرجال الأقوياء عن حمل مفاتيحها.. وناهيك بالثروة ذاتها.. ثم شغل قلبه

---

(١) القصص: ٧٦.

بهذه الثروة ففرح بها فرحًا أطغاه فأعماه عن واهب الثروة سبحانه.

وفي ساعة الصفر.. واجهه قومه بالنصيحة: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

وكان على هذه النصيحة لكي تصل إلى سمعه أن تعبر بحرًا من غروره ثائر الموج.

وذهبت نصيحة المخلصين مع الرياح..وبقيت العبرة التي ستبقى أبدًا: لقد فرح بثروته.. وضحى بطاعة ربه سبحانه.. فخسر أثمن ما يحرص عليه الإنسان وهو : حب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

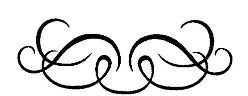
وما قيمة الإنسان إذا ملك الدنيا.. ثم خسر نفسه؟

ولقد خسر نفسه، وثروته معًا.. وسوف يظل آية لمن شاء أن يعتبر من الأفراد والدول التي ترتكب نفس الحماقة.

وأية حماقة أكبر من إنسان يتكبر على من يشاركهم مصير الموت والفناء من أبناء التراب.

إن الزهو على الناس بالصحة أو العصبية أو النسب أو المال. أو بسلطان الوظيفة الكبيرة خليق أن يجر صاحبه إلى الاعتزاز بذاته.. ثم الخطأ.. ثم العمى عن رؤية الخطأ.. ثم الهلكة والبوار.

وهذا هو الذي حدث بالفعل. فاعتبروا يا أولي الأبصار.



القلوب.. العاقلة

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1].

في حياة الأمم لحظات من المد والجزر.. والرقي والانحطاط.. وقد تنتهي بها أقدارها يومًا إلى الذبول.. ثم الاندثار. طبق سنة الله تعالى في الاجتماع.

وتبقى الديار والآثار شاهدة على الناس.. داعية إلى النظر والتدبر. واستخلاص الدروس والعبر. التي تضئ لهم دروب الحياة.. فلا يتكرر الخطأ.. ومن ثم لا يكون هلاك.

والآية الكريمة تأمر بالسير والنظر ـ وعليه مزيد من الإنكار المشبع بالتعجب من هؤلاء القاعدين الجامدين في ديارهم. وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾؟!!

ولا يكفي أن ترى به عينك المشاهد. أو تسمع أذنك الأصداء ثم لا يكون اعتبار.. بل إنه السير المستبصر المتعمق «في» الأرض وما عليها.. وما فيها.. من بقايا الأمم البائدة.. والتي ضاعت بعد أن جحدت برسالات الله تعالى.. فلم يبق من بعدهم إلا آثارهم تدل عليهم.. عبرة لمن يعتبر. ودرسًا لمن يزدجر.

---

(١) الحج: ٤٦.

وإذا اصطلح العرف السائد على أن البصير هو من يملك عينًا باصرة.. وأن الأعمى هو من حرم نعـمة البصر فلا يميز بين الألوان الأشـياء .. فإن الأمر في منطق القـرآن أعمق من هذا: ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾.

أي أن هناك أعينًا متـفتحة صحيـحة.. ولكن لا يقف من ورائها قلب مؤمن.. بصير بالعواقب. وهناك عـقل ذكي.. لكنه لا يعدو أن يكون كما يقولون: آلة حـاسبة.. أما صاحب القلـب المتفتح.. والبصيـرة النافذة إلى الأعماق.. فهو البصير وإن فقد حاسة البصر.. وهو السامع وإن فقد حاسة السمع!

والآية الكريمة دعـوة صـريحـة إلى تأمل سنن الله تعـالى في الحـيـاة والأحيـاء.. وما أكثر الذين يثـقلون أدمغتهم بـالمعارف الطائلة.. لكنهم لا يملكون القلوب الشاعرة العاقلة.

وما أكثـر الذين يملكون هذه القلوب.. بيد أنهم يهتمـون بها أو تهيم هي بهم على موائد المتعة الرخيصة والمغانم الزائلة.

ونحن بحكم الإيمان مطالبون أن نواجه الحياة بقلوب.. تعقل الخير.. وتتلمسه. وتعرف الشر.. وتنفرمنه. فإن إطلاق العنان للقلوب.. هكذا بلا قيد ولا تعقل.. يبدد الطاقة.. ويحبط العمل.



الأسرة
في موكب الإيمان

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

على الأغصان الخضر في مملكة الطير.. وفي الغابات في دنيا الوحوش.. وتحت الماء.. في عالم الأسماك.. كل يبحث عن زوج يسكن إليه! وحتى في عالم الجماد: ينجذب السالب إلى الموجب.. فإذا اللقاء نور وضياء.. تتقدم الحياة على هداه. وكذلك الإنسان.. بل إنه في سلسلة الأزواج لأثمن حلقة فيها!

وهكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يجمع بين الزوجين على كلمة الله.. فإذا هما كيان واحد.. وإن نشأ أحدهما في القطب الجنوبي.. والآخر في القطب الشمالي!!

وتستمر العلاقة بما يضمن لها من وحدة النوع في قوله جلا وعلا ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾. وما يترتب على هذه الوحدة من توافق وتكيف يحقق السكن والمودة.. والرحمة والقرار.

وتمضي السفينة بالزوجين في بحر الحياة.. يدفعها نسيم المودة والرحمة.. مودة يتبادلان فيها الحب العميق.. يبذل كل منهما من أجل

(١) الروم: ٢١ .

صاحبه ما يدعم هذه العاطفة الشريفة. ثم يزدحم البيت بذرية يشعران معها بالعبء الثقيل.

وربما توارت مسحة الجمال على جبين الزوجة المجاهدة.. بعد ما بذلت من طاقة. وماحققت من إعداد وتربية. وأيضًا.. سوف ينقسم الدخل الشهري على خمسة مثلاً.. بعد أن كان على زوجين اثنين!

وتبدأ المشكلات. وهى مشكلات فرضتها الظروف على أسرة لم تعد الزوجة فيها هى هى في لحظة الزواج! أين صحتها؟ أين جمالها؟ بل أين الابتسامة العريضة.. التي يبسطها الأمل في مستقبل سعيد؟! ذهب كل ذلك.. أو جله.. مع المشكلات الطارئة.

لقد تنازلت الزوجة عن كل ذلك.. ليكون عطاؤها لأولادها. الذين يدرجون اليوم بين يديها ومن خلفها. وقد يتلفت الزوج حوله باحثًا عن الفردوس المفقود.. والجمال الغارب! لكن الرحمة الممنوحة من ربه هى التي تمسك بأطماعه قبل أن تتعلق بزوجة جديدة!؟

تمسك بالسفينة مرة أخرى.. حتى تأخذ سمتها الواثق.. عبر النهر الطويل.

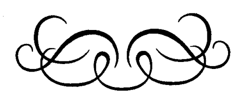
الرحمة: التي هي عطاء خالص. لا ينتظر العوض.. ولا يندم على ما أخذته الأيام من زوجة تعطيه من قواها.. بلا مقابل.. الرحمة.. هي التي تكفل بتهدئة نفسه القلقة، إذا لم تعد زوجتك جميلة.. فقد أنجبت لك ذرية جميلة. أي أن جمالها لم يخرج من البيت!.. بل ما زال معك.. في سحنة أولادك أنت! وإذا كانت مريضة: فيكفي أنها لم تمرض جسمك يومًا!.. وحفظتك في حضورك وغيبتك.. فكنت تمشي في الناس مرفوع

الرأس. موفور الكرامـة. وربما قالت نفسك يومًا: لم تعطـك ذرية يمتد بها عـمرك. بينمـا غيـرها تعطي. وتجـيب الرحـمة أيضًـا: إن المعطي هو الله تعالى.. وليست الزوجة.

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾[1].

ومن الذي قال إنها لم تقدم لك شيئًا؟

إن زوجة.. وفية.. مخلصة.. تقف من وراء زوج يصوغ الأجيال.. وله في كل عقل فكرة.. وفـي كل قلب عاطفة.. وفي كل عـصب قوة.. إن زوجـة من هذا الطراز هي العظيـمة التي تـقف من وراء عظيم.. عظيم ليس له طفل بالذات يحمل اسمه أو رسمه.. ولكن ملايين الرجال يحملون فكره.. وحبه.



(١) الشورى: ٤٩، ٥٠ .

مفهوم الأسرة المسلمة

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[1].

تتحدث الآية الكريمة عن ختام الدعوات التي جاشت بها الصدور «عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا» ومع ذلك ففي قلوبهم عزائم الخير والبر:

إنهم لا يطلبون مجرد التقوى. لكنهم يتطلعون إلى مكان الصدارة فيها. أي أن عبوديتهم للحق سبحانه وتعالى أنبتت لهم أجنحة تطير بهم فوق مستوى الحياة العادية. ليشموا رائحة الجنة من مكانهم العالي.. بعد أن تحرروا من قيود الشهوات الأرضية.

بيد أن هذه المهمة البعيدة لم تمت في قلوبهم غرائز الجنس.. أو الأبوة.. فهاهم أولاء يطلبون الزوجة.. كما يطلبون الذرية. وإنه لتطلع محكوم بالإمامة في باب التقوى: فهم لا يرجون مجرد زوجة. بل الزوجة التي تقربها العين.. وتستقر الأوضاع.. وتمضي مع زوجها على الطريق.. وبخطى فساح إلى التقوى.

الزوجة التي تقول: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة.. وتحت رايتهما ذرية تنشأ صالحة بما ترى وتسمع من أبوين صالحين حفهما جلال المقصد

---

(١) الفرقان: ٧٤ .

ونبل الدوافع. فـإذا هي ذرية صالحـة. يمتد بـها العـمر. وتزدهر في ظلهـا الحياة.

وهنا يتضح مفهـوم الأسرة المسلمة كما أورادها الحق سبـحانه.. وكما يتشـوف إليها مجـتمع راغب في الكمال.. لا كمـا تصورها أوهام المضلين الذين يريدونها متعة عابرة. لا تحقق أثرًا في دنيا الناس.

ولكم فـرضت علينا ثقـافات غـريبـة عن أمتنا ودينـنا.. وقضـينا في صحبتها زهرة أعمارنا. هذه الثقافات التي كان من بعض مقرراتها:

حرمان العـباقرة من الزواج.. حتى يتـفرغوا لمسؤوليـاتهم الضخام؟! وأنى لهم هذا؟ أنى لهم تحمل هذه المسؤوليـة.. والنجاح في ممارسة دورهم العظيم بكفاءة وأمـانة.. بعد أن حرمـوا من هذه النماذج للحيـاة الفاضلة؟ والذي يمدهم بعواطف الخير اللازمة لإنجاز هذا الدور؟

ألا إن الأسرة بوتقة تنصهر فيها عزائم الرجال.. حتى إذا أخذت على عاتقـها مـسؤولياتهـا كان رصيـدها من تربية الأسـرة وقودًا يمدها بالحـركة المبـاركـة. ألا وإن عـقول الدارسـين المسلمين أعـز من أن تشـغل بمثل هذه الترهات والظنون بينما الواجب أن نشغلها بالحقـائق الثابتة مستمدة من كتاب ربنا وسنة نبينا.

وفي الوقت الذي يعود فيه الشـيوعيون إلى أحضان الشيـوعية من بعد عـدائهم الطويل لهـا.. فإنه مـن المحتم علينا أن نـزداد نحن استـمـساكًـا بشريعتنا. تدعيمًا لها.. فنرصُد الوقت والجهد والمال.. لبناء أسرة على هذا الطراز العـالي.. فنبحـث عن زوجة.. ذات دين.. تعين على أمـر الله.. وتمدنا بذرية تبقى بها المبادئ.. ويظل بها الخير موصولاً.

تجاوب القرآن.. مع فطرة الإنسان

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[1].

إذا كان للفلاح جهده المبذول عبر الحقول.. فإن ذلك لا يخفي حقيقة أن الله تعالى «هو» الذي أنشأ الزروع بعد أن لم تكن.. ورفع إليها الماء ـ ومن شأنه الترسب ـ ليسرى عصارة حية في أعلاها.. فتثمر ما نحن مأمورون بأكله.. فضلاً منه سبحانه وتعالى.

ومن تمام شكر فضله تعالى إخراج حقه «إيتاء» عن طيب نفس يراد لها أن تظل عينًا ثرة بالخير حين يكون ذلك العطاء وقت الحصاد.. وقبل تنقية الحب.. والعودة به إلى مستقره في البيت.. وعندما تفوت المالك هذه الفرصة.. ويرجئ التصدق إلى حين.. فإن غريزة التملك تكون قد تشبثت به.. ومارست نشاطها فعلاً.. حين تصور لصاحبها ضخامة الثروة.. وما يمكن أن تدره من ربح في المستقبل. وكان هو في غناء عن هذا التورط لو أنه تصدق مبكرًا ولحظة الحصاد.. قبل أن تثور في نفسه هواجس الربح والخسارة.

وحتى يعود الجميع في ذلك اليوم فرحين.. عبر حقول استحالت في ذلك اليوم مهرجانًا ينتظم الغني والفقير على سواء.

(١) الأنعام: ١٤١ .

ونذكر في هذا المجال حديث رسول الله (ﷺ) لأسماء ﵂ فيما رواه البخاري ومسلم. «**أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك**».

يعني: بادري بالإنفاق بدل عد المال والانشغال بضبطه وإحصائه وزنًا أو كيلاً وعدًا.. ليسهل حينئذ ذلك الإنفاق.

وكان الظن بمنطق البشر.. أن ترحب الآية الكريمة بالإنفاق الزائد ولو بلغ حد الإسراف.. انتصارًا للفقراء. بيد أن ذلك لم يرد.. وجاء النهي عن الإسراف كاشفًا عن بعد آخر من أبعاد التجاوب القرآني مع فطرة الإنسان:

فلو صار كل مسلم «ثابت بن قيس» الذي تصدق بكل تمر نخل.. ولم يبق لولده شيئًا لبقيت المشكلة كما هي.

وإذا كان من جديد فهو: تحول الفقر من طائفة.. إلى طائفة أخرى! ولكن الإسلام لا يدافع عن فقير بالذات.. ضد غني بالذات. ولكنّه يقاوم الفقر كظاهرة يجب أن تزايل الجميع.. ومن هنا يحذر الباذلين من خطر الإسراف.. الذي يحدث في لحظة عاطفية.. ثم تهدأ بعدها النفس.. ويبدأ الندم يؤثر في نفس الإنسان.. وينطفئ حقد الفقراء.. لتتقد جذوته في صدور الأغنياء!!

إن الإسراف في الصدقة اعتداء كمنعها تمامًا. وقليل منها يدوم به الود ويتحقق في ظله التوازن.. خير من كثير يصدم النفس.. فلا تجود بعد تجربة فقدت بها في لحظة.. ما جمعته في عام.

رجل يتحدى أمة

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِه مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾[1].

رجل واحد.. فقط.. يتحدى مجتمعًا بأسره..بما فيه أبوه! ولو كان يمارس حياته بمنطق المزايدات. لخاف على لقمته.. ووظيفته.. فلم يهاجم صاحب اللقمة وجالب الوظيفة!

ولكن الرشد الإلهي الممنوح لإبراهيم عليه السلام يضئ له مدى أبعد.. ليرى مسبب الأسباب سبحانه.. فيتحرر من جاذبية النفس أولاً.. ليصعد به يقينه إلي آفاق أعلي من مطالب هذه النفس ورغائبها.

ومن ثم.. كانت وقفته تلك الصامدة تعبيرًا عن هذا الرشد المبكر.. والذي يتحدى به حضارة وثنية دخلت كل بيت.. وعششت في كل قلب.. غير أنه ـ وفي زحمة وسائلها الإعلامية ـ كان أعلى منها صوتًا.. في محاولة لتغيير مجرى الحياة التي تتبدد طاقاتها. وتنفد مواردها تحت أقدام أصنام لا تسمع ولا تبصر. أصنام: تعددت بتعدد الأمزجة.

وعندما يعيش الإنسان عبد ذاته. وأسير لذاذاته.. تناوشه الأهداف المختلفة فتحبط سعيه. وقد تراه العين يسعى على قدمين مسرعًا إلى الأمام.. إلا أنه ـ في غيبة الإيمان ـ يحاكي «بندول الساعة»: فهو يمشي ليل

(١) الأنبياء: ٥٢ .

نهار.. ولكنه يدور حول نفسه.. ومهما سار.. فلن يقطع أكثر من هذا القوس المحدود!

وتجيء الوثبة المباركة على أكمل ما تكون قواعد المناظرة... فلا مجال هنا لتجريح الأشخاص.

بيد أنه يطرح القضية ليصل معهم فيها إلى فصل الخطاب «ما هذه التماثيل»؟ طبعًا: لا شئ!! ومع ذلك.. فأنتم.. بالذات.. تعبدونها.. ولو فعل ذلك غيركم من الأمم الجاهلة.. لوقف الجهل في أيديهم عذرًا.. لكن.. تعبدونها أنتم.. بالذات.. هذا هو موطن الغرابة؟!!

إنه بذلك يواجه كرامة الإنسان بالخطر المحدق بها.

ومن أجل الحفاظ على هذه الكرامة يجادلهم.. وبالتي هي أحسن.. حتى في أخطر قضية تتصل بحاضر الإنسان ومستقبله.

إن الجهد المطلوب للظفر بالحق.. والوقوع على الصواب أقل من الجهد المبذول في صياغة الشتائم والتفنن فيها. والسباب المتبادل قد يثير الرماد في العيون.. لكنه أبدًا لن يخفي الحقيقة.. ولو نزل المحقون إلى درك الشتائم لكانت فرصة تمهد لانتصار المبطلين! لأن المعركة الساخنة المغرضة هم أقدر الناس على الانتصار فيها. فهم وحدهم الذين يملكون أسلحتها من التهريج والمغالطة!

أما البحث الموضوعي، بغية الوصول إلى الحق في موضوع النزاع.. فهو وحده آية الرشد الإنساني. وهو أيضًا عبرة الساعة من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام.

الصوت
والفتنة النائمة

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾[1].

إذا كان للصوت العالي تأثيره على الإنسان بما تحدثه الضوضاء من خلل في أجهزة الجسم الحيوية.. فإن للصوت الخفيض المتمارض المتماوت أيضًا ضرره البالغ. بصحة الإنسان الخلقية!

بل إن النبرة المتماوته المثيرة.. أضر بالإنسان. الذي يمكنه التغلب على آثار الضوضاء بمستحدثات العلم.. ثم يعجز عن مقاومة الشرخ الحادث في بنائه النفسي والخلقي.. من وراء النغمة المتماوتة. وعلى ذلك قول الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه   وليس يموت المرء من عثرة الرجل

والآية الكريمة تنبه إلى خطر الكلمة المتمارضة على لسان أمهات المؤمنين لما لهن من مكانة عليا: «إن من عرف رجلاً. ولم يعرف منه غير كونه رجلاً. يقول: رأيت رجلاً: فإن عرف عَلَمه يقول: رأيت زيدًا أو عمرًا.

فكذلك قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

يعني: فيكن غير ذلك أمر لا يوجد في غيركن. وهو كونكن أمهات

(١) الأحزاب: ٣٢ .

جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين.

وكما أن محمدًا عليه السلام، ليس كأحد من الرجال كما قال عليه السلام: «لست كأحدكم».. كذلك قرائبه اللاتي يشرفن به. وبين الزوجين نوع من الكفاءة»[1].

إن مركزهن من الأسوة الحسنة للمؤمنين والمؤمنات. يفرض عليهن مسؤولية مضاعفة.. تقف بهن دائمًا على قمة التقوى.. ثم الحفاظ على منزلتهن على رأس هذه القمة أبدًا.. بالبعد عما ينقض بناءها.. حتى هذه الكلمة التي تخرج لينة طرية.. فتوقظ الفتنة النائمة.

«ينهاهن سبحانه حين يخاطبن الأغراب من الرجال أن يكون في نبراتهن ذلك الخضوع اللين. الذي يثير شهوات الرجال. ويحرك غرائزهم، ويطمع مرضى القلوب. ويهيج رغائبهم. ومن هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير؟

إنهن أزواج النبي (ﷺ). وأمهات المؤمنين اللواتي لا يطمع فيهن طامع. ولا يرف عليهن خاطر مريض. فيما يبدو للعقل أول مرة وفي أي عهد يكون هذا التحذير؟

في عهد النبي (ﷺ) وعهد الصفوة المختارة من البشرية في جميع الأعصار. ولكنه الله الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول. وتترفق في اللفظ ما يثير الطمع في قلوب... ويهيج الفتنة في قلوب. وأن القلوب المريضة التي تثار وتطمع موجودة في كل عهد. وفي كل بيئة. وتجاه كل امرأة ولو كانت هي زوج النبي الكريم. وأم

(١) الفخر الرازي: في تفسيره للآية الكريمة.

المؤمنين. وأنه لا طهارة من الدنس ولا تخلص من الرجس. حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس»[1].

وعندما يتجه التحذير إلى أطهر نساء... في أطهر بيئة.. فإن الأمر بالنسبة للمرأة اليوم يصبح نذيرًا مدمدمًا:

لقد كانت المرأة في العهد الأول تسير في طريق يسير فيه: أبو بكر.. وعمر.. وخالد.. وأبو عبيدة.. فلا ظل للفتنة هناك.. وإذا نجمت بوادرها فإن الآيات الكريمة تتنزل رادعة في مثل قوله تعالى:

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾[2].

أما اليوم:

فإن المرأة تجاور في عملها.. وفي سيرها رجلاً من لون آخر!! وفي بيئة صار من مقرراتها: أنت جميلة.. إلى أن تتحدثي! تنفسي بعمق.. قبل أن تتكلمي!!

فالتحذير من ترقيق الصوت يصبح أمرًا مفروضًا.. فرارًا من فتنة تتأهب للانطلاق. بل انطلقت فعلاً بالناس على غير هدى. وإذا كان ولابد من قول.. فليكن ذلك القول المعروف المتداول.. بلا تكلف أو تزويق.

إن حرية التعبير كما هي مكفولة للمرأة.. فإن سلامة الأداء مطلوبة أيضًا.. ومن سلامته: أن تصدق المرأة مع نفسها ودينها.. فتحفظ بكل

(١) في ظلال القرآن. (٢) الأحزاب: ٦٠، ٦١ .

مظاهر أنوثتها لزوجها.. في بيتها! وقبل أن تأخذها العزة بالإثم.. فتستكبر على هذا التحذير.. فإن الآية الكريمة ما زالت إلى يوم القيامة ناطقة بما يكسر هذا الإباء.

إن التحذير يتجه أساسًا إلى زوجات الرسول (ﷺ)...

وعلى كل امرأة أن تأخذ نصيبها من الحذر والخوف.

وإذا كانت حريصة فعلاً على أن تظل أسرتها قائمة على أصولها من الأخلاق.. فإن واجبها كمسلمة يفرض عليها أن تكف عن الكلمة المثيرة.. خارج البيت لتظل بيوت الآخرين قائمة ثابتة. ثم لتدخر لبيتها أجمل ما تملكه من كنوز.



صور من جدال المبطلين

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ ﴾[1].

لو كان فرعون ينشد الحق في حواره مع موسى وأخيه عليهما السلام.. لكفاه ذلك الجواب عن سؤاله: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾.

لا سيما وهو يرى مصداق ذلك في نفسه.. وفيما حوله.. رضي أم كره.. ولكنه راح يتهرب من الحقيقة الآخذة بخناقه.. إلى أسئلة لا صلة لها بموضوع النزاع: ماسم فلان.. وعلان.. وفي الجنة هو.. أم في النار؟!

ماصلة دقائق التاريخ الغابر بما نحن بصدده الآن؟ وما صلة الأسماء بموضوع الحوا ر.. وهو الحق المطروح على بساط البحث والنظر؟

تلك أمة قد خلت.. فلا فائدة من العودة إلى مسارب الماضي.. نجتر ذكرياته ترفًا عقليًا.. أو سردًا آليًا.. لا يغني عن الحق شيئًا. فالمهم:

أن ذلك في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. لا ينبغي أن تشغل البال بحثًا عن اسم فلان.. أو تصحيحًا لموقف علان!

فالحقائق الموضوعية أولى بالبحث والنظر.. ثم الحكم. وهذه هي

(١) طه: ٥٣، ٥٤.

الطبيعة مبسوطة بين يديك:

إنها ملء السمع.. وملء البصر.. وكل ما فيها ينطق بأن الله واحد. فالأرض مهاد مبسوط.. ميسر.. ومسارب سهلة مكن الله بها من العيش فيها بسلام. والماء ينزل من السماء بلا طعم.. ولا لون.. ولا رائحة.. ومع ذلك فقد أخرج الله تعالى به ألوانًا من الزروع والثمار مختلفة اللون.. والطعم والرائحة.

وهي بهذا الاختلاف.. تحدثك عن خالقها المريد.. والذي خلق فسوى.. وهدى بمنهجه الراشد.. وبخلائقه التي تراها.. إلى قوم سبيل.. لمن شاء أن يأخذ سمته إلى هذا السبيل. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾.

إنها آيات.. لا آية واحدة.. تغري العقلاء بالبحث والنظر.. فأين هم أرباب العقول من هذه الطبيعة الشاهدة بالوحدانية؟ أفلا يعقلون أنهم مأمورون بالأكل ﴿كُلُوا﴾. بينما الأنعام هناك ترعى: ﴿وَارْعَوْا﴾.

وشتان بين الأكل بضوابطه وآدابه وتبعاته.. وبين بهيمة ترعى بلا ضابط بين السهول الخضراء ولا يردها إلا القيد في عنقها. ولكن الإنسان هو الإنسان.

فمع هذه الآيات البينات.. ينزعه عرق من أبيه آدم.. فينسى.. ثم لا يتوب.. كما تاب!!

إنه إذن في حاجة إلى التذكير.. لا إلى التشهير.. وكذلك فعل موسى عليه السلام. وهذه حقيقة ينبغي أن يعيها دعاة اليوم من «أولي النهي». لقد قال الله تعالى لموسى وأخيه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾.

ألا وإن المسلم الغافل.. لأولى بالملاينة.. من فرعون!

نور الحياة

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

في الطريق إلى قريتي بستان فيه زرع ونخيل.. وكلما عدت إليها لاحت لي باسقات النخيل من بعيد.. لها طلع نضيد رزقًا للعباد.. ولم يكن عجيبًا أن ينعطف قلبي إلى نخلة هيفاء تشق الفضاء.. وأن يتحول هذا الميل مع الأيام إلى صداقة:

ذلك بأنها كانت دليلي في سجوة الليل.. تحدد لي معالم الطريق المتعرج.. فأعلق بها بصري.. لتشدني إلى حيث أجدني على دروب القرية. وذات يوم.. سجا الليل. وغارت نجومه.. وكنت عائدًا من سفر في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، وفي غيبة القمر الذي كنت أبصر في ضيائه نخلتي.. أو بشير عودتي! وسرت في طريقي لا أدري أمشرق أنا أم مغرب.. وساءلت نفسي:

أين مني نخلة عالية كأنها «البوصلة» تحدد لي الجهات؟ وغاب تساؤلي فلم يتلق جوابًا.. تمامًا كما غابت النخلة الفرعاء في أطواء الظلام.. وحبست أنفاسي بينما صفير الرياح يصك مسمعي.. وفجأة.. ارتطمت بجسم غريب يقف على حافة الطريق.. وبين سبرات البرد.. وعواء الرياح

(١) المائدة: ١٥، ١٦.

أحسست بالدماء تزف من يدي! لقد صدمتني النخلة المعهودة فأدمت يدي. أجل.. النخلة التي كانت بالأمس تهديني.. إنها اليوم تؤذيني! قالت نفسي: هل عرفت السر؟ لقد غاب القمر المضئ.. فغابت المعالم.. وعم الظلام.. فاختلط الحابل بالنابل!

قلت لها: وهكذا الدين في حياة الإنسان!

فعندما يعمر الإيمان قلب الإنسان.. تمتد منه عبر الحياة أشعة تسعى من بين يديه.. ومن خلفه.. فيرى مواقع أقدامه.. فلا تزل منه قدم.. عندئذ.. تتسق خطوات الجوارح.. بلا صدام.. إلى غاية محددة واضحة.. كشفها ذلك النور المبين. وفي هذا الضوء الكاشف سيسخر العقل ذكاءه لخدمة الحياة.. ومن ورائه قلب سليم يمنحه أشواقه وآماله.. وعلى أثرهما تعمل كل الجوارح كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

وإذا الإنسان وحدة متماسكة.. أو قل شبكة من العروق والأعصاب سرت فيها شحنة من الإيمان أضاءت للناس معالم الطريق. وعندما ينطفئ ذلك المصباح في كيان الإنسان.. ستختفي ملامح الوجود من حوله. وكما يموج الناس عند انطفاء النور في محفل عام فترتطم الجسوم وتسيل الدماء.. تتصارع قوى الإنسان وملكاته في هذا الظلام لتصبح حربًا عليه.. لا عونًا له! إنها تتحول إلى معاول هدم.. بعد أن كانت معالم للهدى.. وأداة للإيذاء بعد أن كانت وسيلة للسكن.. تمامًا كهذه النخلة التي غاب عنها القمر.. فأدمت الجسم وكانت قبل طوق نجاة!

إن الدين رقيب: وفي غيبة هذا الرقيب.. سينطلق القلب ليعب من نعيم الحياة ولذاذاتها عبا.. وسوف يستحيل ذكاء العقل مكرًا ودهاء يسخر

الذرة.. ويطلق الصاروخ للحرب.. لا للسلام.

واليد.. والقدم.. واللسان.. كلها ستشد الإنسان في كل اتجاه.. بحيث يقف بينها على مفترق الطرق: بين غريزة ناشز.. وعقل عاجز! بين غريزة صماء لا تسمع.. عمياء لا تبصر.. وعقل تاه دليله فتفرقت به السبل.

ومن هنا تتضح لنا طبيعة المعركة بين الشيطان وجند الرحمن:

إن الشيطان المريد يحاول أن يفتح في قلب الإنسان ثغرة حتى يصل إلى قراره فيتمكن منه.. وبعد ذلك يمسك بزمامه إذا أفلح وأطفأ فيه ذلك النور الكاشف. ولكن الذين اتقوا: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

هؤلاء المتقون.. قد اتبعوا رضوان الله سبحانه فهداهم سبل السلام التي أفضت بهم إلى الطريق المستقيم.. فما زلت منهم قدم.. ولا غفل منهم القلب.. لأنهم اتخذوا الإيمان دليلهم في متاهات الحياة..



ثمرة الإيمان

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[١].

هناك قلوب قاسية. في أكنة من دعوة الحق.. تمر بها دلائل اليقين فلا تؤثر فيها إلا كما تؤثر النسمة العليلة في حجر أصم.

وإذا كان مثل هذا القلب يسير بصاحبه على غير هدى فيسوقه إلى «عذاب أليم» كما بينت الآية السابقة.. فإن هناك فريق المؤمنين الذين يختلفون عن هؤلاء سلوكًا ومقصدًا.

ويفصل بين هؤلاء وأولئك برزخ كبير.. يقف على ضفته الأخرى جند الرحمن وعلى ألحان الإيمان ينقلون خطاهم بقلب مفتح العين.. صادق النظرة.. يرى ببصيرته ما وراء حدود المادة.. ومشاهد الطبيعة.. ومن هنا يرفعون راية الحق الذي امنوا به.. ويضحون في سبيله. وفاء له.. وتطلعًا إلى هذا النعيم الذي يزرى بكل ما يتقلب فيه المترفون. وأولئك لهم جنات النعيم.

فهو «النعيم» لا نعيم وراءه. خالدين فيها؟! إنه الخلود إذن!

وهل هناك أمنية أحلى.. وأمل أعذب. من بقاء يرفع الإنسان فوق حدود الزمان.. وحدود المكان؟ ثم يظل بعد ذلك حيًا لا يبلى.. باقيًا لا

(١) لقمان: ٨، ٩.

يموت؟

وأنها لاستثاره حكيمة لحـافز راسخ في كيان الإنسان إلى الخلود! فكما أحضرت الأنفس الشحَّ بالمال.. فقد أحضرت حب الحياة أيضًا.. ولعن الله إبليس: لقد اسـتغل هذه الحاجة في نفس آدم عليه الـسلام فحاول إشبـاعها لينجح في امتلاك زمامه.. على نحو ما جاء في القرآن الكريم:

﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾[1].

وفتح عليه السلام حسـه ونفسه لنداء ملك عليه أقطاره. ثم هبط على الأرض فكنا.

وجاء محمد عليه الصـلاة والسلام ليقودنا من جديد إلى الجنة.. على حد تعبـير المرحوم الأستـاذ مصطفى صادق الرافعي. وذلك بعـد أن خرجنا منها في شخص أبينا آدم.

ويرسم القـرآن الكريم الطريق إلى الخـلود في الجنات.. إنه الإيمان.. والعمل الصالح.

وإذا كان بعض الناس يعد ويمنى.. ثـم لا يملك القدرة على الوفاء بما وعد.. وبالتالي يثـبط الهمم التي تتقاصر فـلا تكون عند حسن ظنه.. فإن الأمر بالنسبة لـلحق سبحانه وتعالى يختلف تمامًـا: فما وعد به لا ريب آت ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

العزيز.. القادر على تـنفيذ ما يعد.. دون مـعترض.. الحكيم الذي يربط بين الغاية ووسائلها.. تلك الوسـائل التي لابد أن تكون فيها من روح

---

(١) طه: ١٢٠ .

المقصد الشريف.. فإن الجنة وهي مهبط الطهر والصلاح. لا تكون مستقرًا إلا لكل عامل.. يبتغي وجه الله سبحانه.

وإنها لحكمة بالغة.. تلك التي تجعل من الإيمان والعمل والصلاح وسيلة إلى النجاح في الدنيا والآخرة..

فإن صحة الأساس.. وسلامته على وجه الأرض تفضي أخيرًا إلى السعادة هناك في السماء..

هذا توجيه كريم.. يجند طاقات الإنسان كلها لتعمل من أجل غرض كريم.. وحاجة نفسية.. وهو الخلود:

وإذا الحياة نضال مستمر.. وعمل دائب يكون الرخاء نتيجته المتوقعة.. إن الإيمان الراسخ.. كهذا الريح الساري:

إن الريح يكثف البخار ويجمده.. ثم يسوقه سحبًا تهبط على الأرض مطرًا فتنبت جنات وحب الحصيد: وكذلكم الإيمان ياقوم: إنه القوة الجامعة المانعة: فهو يكثف القوى المخلخلة.. ويجمد الإرادة الرخوة.. ثم يسوقها إلى واقع الحياة نتاجًا وعمرانًا... نتاجًا وعمرانًا تقف من ورائه ثمرات الإيمان الحقيقية من الإخاء.. والمودة.. والتعاون.

تلك الفضائل التي لابد منها في كل حضارة يراد لها أن تدوم.. وقد بهرت الحضارة الغربية الناس بمظاهرها لكنها فقدت الإيمان.. فصارت هيكلاً لا روح فيه ولا حياة.. وإذا كان الصاروخ ينطلق في الجواء العالية فيحقق غرضه لأن قاعدة إطلاقه سليمة قوية.. وكذلك الإيمان بشرطه: العمل.. والعمل الصالح.. العمل بروحه.. بالنية الصالحة: الصلاة في خشوع.. والزكاة عن طيب نفس.. والحج على متن الشوق.. والصوم بنفس ترق

فتجود.

ويمكن بعد ذلك أن تتجـه بك الرغبة إلى جنة الخلد وملك لا يبلى.. لأنك قدمت للحـياة أعمالاً حيـة.. أبقتها النيـة وخلدها الإخلاص. فكان جزاؤك من جنس عملك.



آية بين فهمين

[١]

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[١].

عن «جبير بن نفيل» قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله (ﷺ) وإني لأصغر القوم. فتذاكروا بالأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر. فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾؟

فأقبلوا علي بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن لا تعرفها. ولا تدري ما تأويلها؟!

حتى تمنيت أني لم أكن تكلمت وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حدث السن. وإنك نزعت آية ولا تدري ما هي؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان: إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه.. فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت[٢].

ماذا سمع جبير هنا؟ وبماذا حكم؟ وما هو الدرس الذي تلقاه من الصحابة؟ وعن أي شيء يسفر هذا الحوار؟

---

(١) المائدة: ١٠٥.

(٢) أدرجت هذه الفكرة في كتابنا نحو أسلوب أمثل، وأعيد نشرها هنا لزيادات طرأت عليها.

لقد سمع «جبير» الصحابة يتذاكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأهميته الواقفة بكل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام حتى لا يؤتى من قبله. فتسرع «جبير» مستشهداً بالآية الكريمة على صحة ظنه الذاهب إلى براءة المسلم من التقصير في البلاغ ما دام قد كمل نفسه بطاعة الله تعالى.. وعندئذ فلا عليه من ضلال الآخرين. بعد ما خرج من العهدة.

وأقبل عليه الصحابة عاتبين مجمعين على خطئه، حيث انتزع آية من سياقها، فجانبه التوفيق في تفسيرها. ثم واصلوا الحديث متجاوزين وجهة نظره. فلما فرغوا من الحديث لقنوه الدرس المفيد: إنك ما زلت في أول الطريق.. لم تتضح لك زوايا القضية.. فكانت نظرتك جزئية متسرعة. وغداً.. وعندما تتسع تجربتك.. وترى من محدثات الأمور ما ترى ستعرف أن فرار المسلم من الميدان لم يحن وقته بعد. وإنما عليه أن يبقى على ساحة فارسها المغوار. الذي لا يشق له غبار.. وإذا جاز أن ينسحب أحياناً.. فهو الانسحاب المؤقت.. عندما تنحسر الحكمة. ويتوارى العدل وتتحكم في الحياة قيم الشر.. وعندئذ فقط يجوز للمسلم أن يأوى إلى بيته فراراً بعقيدته.. ولكن إلى حين.

دروس من الموقف:

وقبل أن نوازن بين الفهمين مرجحين رأي الصحابة رضوان الله عليهم.. نلفت النظر إلى بعض الدروس في هذا الموقف الكاشف عن طبيعة الخلاف بين الأجيال.. وعلى أية كيفية كانت المحاورة.. وكانت المدارسة.

أ ـ لقد اتسعت مجالس الصحابة للصبيان تربية لهم وإعداداً.

ب - كان الصبيان حينئذ أهلاً لهذا التكريم بما حفظوا من كتاب الله تعالى. ثم بالاستشهاد بآياته تحت إشراف كبار الصحابة. وإن جانبهم التوفيق أحيانًا.

جـ - ظهرت ثمرة هذه التربية بهذا اللون من الشجاعة الأدبية التي حملت «جبيرًا» على أن يواجه برأيه كبار الشيوخ.

د - ثم ما كان من حيائه البالغ وندمه العميق على ما بدر منه بعد ما تبين له الحق.

هـ - توجيه الصحابة للصبي «جبير» بأن للقرآن حرمة تمنع من الجرأة إلا بسلاحها من العلم والفقه.

و - لم يتهموه في مستوى ذكائه. وإنما رجعوا باللوم إلى صغر سنه.. وقلة تجربته.

ز - بينوا له في النهاية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.. إلا في حالة واحدة يكفى عندها أن يكمل الإنسان نفسه ولا عليه من ضلال غيره.

وذلك عند غلبة الشح والهوى.. وتمكن خلق الغرور من قلوب الناس.

لم يكن جبير وحده:

ويبدو أن جبيرا ﷺ لم يكن وحده في هذا الفهم بل كان له رفاق على الطريق ونستأنس بما يلي:

١ - كان هناك جمهور من الصحابة يفهمون الآية كما فهمها «جبير»

ﷺ يشير إلى ذلك نداء أبي بكر ﷺ لهؤلاء مصححًا لهم هذا التصور وذلك قوله: «إنكم تقرأون هذه الآية. وتتأولونها على غير تأويلها».

ثم قال بعد أن نبههم إلى خطئهم: إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم، ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»[1].

٢ ـ روى أبو داود وابن ماجه والترمذي عن أبي ثعلبة الخشني أنه قيل له: كيف تقول الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. فقال: أما والله لقد سألت عنها رسول الله (ﷺ) فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك نفسك».

وإذن فقد كان هناك أناس تلقوا الآية الكريمة كما تلقاها «جبير بن نفيل» وحسم (ﷺ) النزاع مؤكدًا أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. دائمًا.

من آراء المفسرين:

ذهب بعض المفسرين إلى تأويل الآية على نحو ما ذهب إليه جبير بن نفيل: جاء في تفسير ابن كثير: «من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس. سواء أكان قريبًا منه أو بعيدًا.

قال العوفي عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية الكريمة: «يقول تعالى: إذا العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال. أو نهيته من الحرام. فلا

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

يضره من ضل بعده. إذا عمل بما أمرته به».

وقد أشار القرطبي إلى هذا المعنى بقوله: «وظاهر هذه الآية الكريمة يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ليس القيام به بواجب إذا استقام الإنسان وأنه لا يؤاخذه أحد بذنب غيره».

الرأي الأصح:

لكن القرطبي قد انتهى في تفسيره إلى ضعف ما سبق أن أشار إليه مرجحًا عموم المسؤولية وذلك قوله: «.. وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره لولا ما ورد من تفسيرها في السنة. وأقاويل الصحابة والتابعين».

ولكن يشترط لوجوب النصيحة أمران:

١ ـ رجاء القبول.

٢ ـ ألا يترتب عليها ضرر بالغ أو فتنة وذلك قوله: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعين متى رجى القبول. أو رجى رد الظالم ولو بعنف. ما لم يخف الأمر ضررًا يلحقه في خاصته. أو فتنة يدخلها على المسلمين: إما بشق عصا. أو بضرر يلحق طائفة من الناس، فإن خيف هذا فـ «عليكم أنفسكم» محكم واجب أن يوقف عنده»

جاء في تفسير أضواء البيان للآية الكريمة: «قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولكن نفس الآية فيها إشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور وذلك في قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد، وممن قال بهذا: حذيفة وسعيد ابن المسيب. كما نقله عنهما الألوسي في تفسيره. وابن جرير ونقله القرطبي عن سعيد ابن المسيب. فمن العلماء من قال: «إذا

اهتديتم» أي أمرتم فلم يسمع منكم. ومنهم من قال: يدخل الأمر بالمعروف في المراد بالاهتداء في الآية. وهذا ظاهر جداً. ولا ينبغي العدول عنه لمنصف».

ويريد الشيخ أن يقول: إن ضلال العصاة لا يضرك أيها المسلم.. إذا اهتديت.. ولن تكون مهتديًا إلا إذا أمرته.. وبإلحاح.. ثم لم يستجب لك.

أما إذا لم تأمره ابتداء.. فأنت لم تحصل في نفسك معنى الاهتداء. وعليك أن تستكمل عناصر الهداية فيك.. بمحاولة تكميل الآخرين. ليكونوا معك على الطريق المستقيم.

ثم يقول: «ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتد: أن الله تعالى أقسم أنه في خسر، في قوله تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ * ﴾. [العصر ١ ـ ٣].

فالحق وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبعد أداء الواجب لا يضر الآمر ضلال من ضل.. وقد دلت الآيات كقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾.

والأحاديث على أن الناس إن لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر عمهم الله بعذاب من عنده.

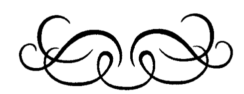
روى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂ أن النبي (ﷺ) دخل عليها فزعًا مرعوبًا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج. مثل هذه» وحلق بأصبعية.

بالإبهام والتي تليها. فقلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم. إذا كثر الخبث».

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله. ودع ما تصنع. فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله. فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. [المائدة ٧٨ ـ ٨٠].

ثم قال: «كلا. والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم. ولتأطرنه على الحق أطرًا ولتقصرنه على الحق قصرًا. أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم ليلعنكم كما لعنهم» رواه أبو داود والترمذي وقال: «حسن» وهذا لفظ أبي داود.



آية بين فهمين
[٢]

وضحنا آنفًا تلك الآراء بالنسبة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[(١)].

وبينا أنه ينبغي لكل ذي عقل أريب أن يرتع في رياض القرآن الكريم ويقتطف من قطوفه الدانية ما تزكو به نفسه وترتفع به همته، وترتقي في مسالك الدارجين إلى الله خطواته.

لذا كان فهم القرآن دين كل تقي، ومرمى كل متدبر ذكي، ولا ينقصه ما يداخله من فهم لما قرأ من آيات واستشف لما يتلو من معان بحيث يعرض ما فهمه على من هم أفقه وأعلم بذلك الأمر منه، ليجدد الفهم أو يزكيه مستنًا بسنة المصطفى (ﷺ) من ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي هذا المقال نستكمل جوانب هذا الموضوع.

لماذا تعم الفتنة؟

[في بعض أطوار انحدار الأمم تستحكم في الأمة عوامل البغي والفحشاء، وعدم المبالاة، والإجتراء على ملابسة الباطل وممارسة الخطا بصورة لا يرجى معها صلاح حيث يؤدي بها ذلك إلى العذاب المحقق.. الاستعمار أو القحط، أو الجوائح الطبيعية، ويكون فيهم من أهل الصلاح

(١) المائدة: ١٠٥ .

والحق من بريء من الإثم.. فإذا نزل العذاب بمثل تلك الأمة الفاسدة لا يشفع في دفع العذاب عنها أولئك الصالحون؛ لأن ارتباط عذاب الأمم بجرائم الأكثرية من بينها سنة كونية حتمية لكن إذا بعثوا من قبورهم يوم القيامة للجزاء عاملهم الله على حسب نياتهم من إرادة الطاعة والصلاح، والمقصود من الحديث قتل عادة السلبية في الأمم وتعليم السلبيين الذين يعتزلون مقاتلة الفساد بأن سلبيتهم لا تنجيهم ساعة القصاص في الدنيا وإن كانت نيتهم صالحة وعدم إقرارهم للفساد في أنفسهم يحسب لهم يوم القيامة][1].

لقد كان هناك في الجاهلية رأي عام يتعقب المسئ ويعزله عن المجتمع.. أفلا يكون المجتمع الإسلامي أولى بهذا التحريم؟

ففي سوق عكاظ: كان الخطيب يخطب. ويدين الغادر والمعتدي ويقول: ألا إن فلان ابن فلان قد غدر. فاعرفوا وجهه ولا تشاوروه. أو تجالسوه ولا تسمعوا منه قولاً. وكانت القبائل تخلع الفاجر من أبنائها. فتعلن أنها خلعته. ولا تحتمل له جريرة. ولا تطالب بدمه. إذا أصيب في جرم.

فانظر كيف لاحق المجتمع بالعقاب كل من خرج عن الصف حتى أنه صادر أفكاره التي يجب ألا تصل إلى الناس.

من آراء المحدثين:

يقول المرحوم الأستاذ البهي الخولي متأثرًا بما ذكره القرطبي والذي أشرنا إليه آنفًا: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن

(١) من مقال للدكتور محمد سعاد جلال.

ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

[فإن أكثر الناس لا يرى فيها إلا أن يشتغل كل إنسان بنفسه. ولا شأن له بضلال غيره، فإن هذا الضلال لا يضر إلا صاحبه... وهذا التفسير من وسوسة الشيطان، وتقاصر الهمم كما قلنا: فإنه يناقض ما ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناقضة صريحة... والقرآن لا يناقض بعضه بعضًا قال تعالى: ﴿ولو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾.

وقولهم: إن الضلال لا يضر إلا صاحبه يناقض قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

ويمكن في هذا المقام إيراد الأحاديث التي تهدم هذا التفسير. ولكننا نكتفي بإيراد هذه المناقضة، وبتفسير الآية تفسيرًا يستخرج المعنى من لفظها بدون تعسف. فالآية الكريمة من الوجهة النحوية مؤلفة من الأمر وجوابه: فالأمر هنا هو: عليكم أنفسكم ـ بالإصلاح:

والجواب المترتب على هذا الأمر هو: لا يضركم من ضل: والمقدمة أن نصلح أنفسنا بمثل ما في وسعنا من أسباب الإصلاح، والنتيجة أن هذا الإصلاح حصن لنا من كيد الأعداء. فلا يستطيع هؤلاء الضالون أن يلحقوا بنا ضررًا ما].

وإذن، فنحن أمام أسلوب من أساليب الدعوة صارم، يرفض السلبية المستوحاه من التفسير الآخر، والمنقوض بالسنة المطهرة، كما جاء على لسان الصديق ﷺ وبمنطوق اللغة التي تكلف المجتمع أن يكون على مستوى رسالته ملازمة لإصلاح النفس، على نحو يحبط كيد الأعداء، ويرد سهامهم

إلى نحورهم. ولـيس في الآية الكريمة ما يحـملنا على الفرار من السـاحة، اتكالاً على أننا حققنا الهـدى لأنفسنا، وهو ما يوحي به ظاهر اللفظ، بادي الرأي. إن حق المسرفين في الـنصيحـة لا يسقط وإن بلغوا القـمة فأسـرفوا وأعرضوا، وذلك قوله عز وجل: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْـرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ. وَمَـا يَأْتِيـهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَـانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف ٥ ـ ٧].

إن الأنبياء المبـشرين المنذرين على مدار التاريخ وجـدوا من الناس عنتًا وكان الظن بالناس أن يستجيبوا لما يحييهم من عقيدة التوحيد، وما قام عليها من نظام. لكنهم أعرضوا، بل ساروا في العناد إلى منتـهاه، فاتخذوا الدعاة إلى الله سخريًا، فكانوا منهم يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون. وكان ذلك ظاهرة اجتماعية بارزة واكبت الحياة: ومع ذلك كانوا ينهونهم.

حدود الأمر والنهي:

لا ينتهي دورك حين تستكمل في نفسك عناصـر الهداية.. إنك حينئذ «مهتـد» مع إيقاف التفيـذ إذا صح التعبير! فـإذا تقدمت على الطريق خطوة أخرى فحقـقت الهداية لغيرك.. فأنت إذا من المهتـدين. لكنك غير مطالب بجعل غيرك مهتديًا بالفعل.. بل قصارى جهدك أن تجعله على الأقل مهتديًا «بالقوة» أي صالحًا للاهتداء.. آخذًا سـبيله إليه بعد أن تكون قد نجحت في حمله على اسـتدبار المعصـية.. واستـقبال أفق الطاعـة. ولن تستطيع ذلك بالكلام وحده.. ومهما بلغت الموعظة كمالها.. فلابد من القدوة الحسنة.

إن كثيرًا من الشـباب يصرخون آسفين محتـجين على أناس لم يسمعوا كلامهم.. ومـا أكثر ما يخوضـون في قضايا الحكم ومواصـفات الحاكم..

غافلين عن المعاصي التي يعج بها الواقع الماثل والتي تدعوهم إلى ملاحقتها بالعلاج الحاسم. وفي بعض الندوات حاصر الشباب عالمًا فاضلاً بعشرات الأسئلة حول ما يجب عمله مع حاكم لا يطبق شرع الله. وكثيرة هي الليالي التي سهروها بحثًا عن النقول الغريبة في عيون التراث لمجرد أن ينتصروا على العالم في ميدان الجدل.... ولقد انتصروا - أو أزعموا - فعلاً.. وهللوا وكبروا.. ثم عادوا إلى بيوتهم وعلى رؤوسهم أكاليل الزهور من أجل نصر لم يكلفهم إلا عقائر يجأرون بها! وليتهم أنفقوا هذه الساعات في عمل صالح يمارسونه على أرض الواقع.. ويراهم الناس فنسجون على منوالهم.. ليتهم تفرغوا لهداية «المحكوم» قبل أن يتفرغوا للحاكم!... ولعمري إنها لأفضل طرائق الدعوة على الإطلاق.. وأسهلها أيضًا: إن هذا الحاكم لم يمنع مسلمًا واحدا من أن يكون في قمة الفضيلة.

إن مساعدتك للضعيف.. تعليمك الأخرق.. الصدقة على الفقير.. وفاءك بالعهد.. صدقك في الحديث.. حرصك على الصلاة في جماعة.. صلتك الرحم.

كل أولئك وغيره من ألوان العمل الصالح.. أنت قادر عليه.. وبه وحده تحقق إسلامك على الطبيعة وتأخذ بيد غيرك إلى مثله.

فليتك تخطو هذه الخطوة.. تاركًا مسائل الحكم لأربابها.. جاعلاً همك الأكبر أن تكون على الأرض قرآنًا يمشي.. ولن يمنعك حاكم من ذلك.. وأخشى أن أقول إن بعض شبابنا ترك دوره الأساسي في الدعوة ليدخل في حال غيره.. وضاعت ساعات عمره في قيل وقال. لا يغني عن الحق شيئًا.

[نبني كما كانت أوائلنا تبني]:

بعد رحلة إلى الجبهة في السويس ـ أيام حرب الاستنزاف ـ عدنا إلى القاهرة. ومثلنا بين يدي أستاذنا المرحوم محمد أحمد الغمراوي.

وقال زميلي في الرحلة للدكتور الغمراوي مزهوًا: لقد دخلنا الخنادق ووعظنا الجنود والضباط.. وكانت إسرائيل منا على مرمى حجر!

ورد الدكتور الغمراوي بهدوء: كم يساوي ما فعلتم؟!

لقد كنت مسلمًا. يعظ المسلمين.. إذن فما أسهل المهمة! وخير لك أن تهدي كافرًا إلى الإسلام؟!

وسكتنا جميعًا.. أمام دقة الجواب وعمق دلالته.. وأدركنا كيف كانت المهمة سهلة حين لم تكن إلا خطبًا ومواعظ في ظروف غير عادية.. ونسينا معنى الدعوة الحقيقي.. ومسؤولياتنا الحقيقية المتمثلة في إخراج واحد من الظلمات إلى النور.. وما أصعب المهمة حينئذ!..

وهو مثل نقدمه للشباب اليوم.. نعززه بثان يحيى صورة من جهاد أمتنا في سبيل نشر الدعوة في أقسى الظروف.. إلى جانب صورة أخرى للأجانب وكيف يرصدون وجودهم كله لأديانهم. وبلا مقابل... لعل في ذلك عبرة لمن أراد أن يذكر:

يقول المرحوم الدكتور محمود حب الله: «لا شك أن المظاهر المادية. والعمل بما توحي به العقيدة من أكبر العوامل التي تساعد على بقائها وعلى نشرها».

وكلما كانت المظاهر متكررة بتكرر الأوقات والأيام كان ذلك أدعى إلى

بقاء العقيدة ودوامها: فالصلاة «مثلاً» وهي أحد المظاهر الفعلية للإيمان بالله، لا تنحصر غايتها في تربية ملكة الخضوع، وإيجاد خلق التدين عند الإنسان فحسب.. ولكنها تهدف وراء ذلك إلى تثبيت العقيدة في نفوس المعتقدين وإلى ضرب الأمثال لهؤلاء الذين لا يعتقدون. رجاء أن تلين قلوبهم لذكر الله. وتدخلهم غريزة حب للعقائد في نفوس البدائيين من غير المعتقدين وتحويلهم إلى الاعتقاد. وذلك أمر طبيعي يجد ما يشهد له في علم النفس:

فالإنسان يميل بطبيعته ـ إلى الأديان ذات الشعائر منه إلى غيرها؛ لأن الأولى ترضي كل قواه النفسية والعملية. وأما حياة التدبر والتأمل وحدها فلا تشبع الرغبات الإنسانية.

ولقد نجح العرب نجاحًا كبيرًا في نشر الإسلام في كثير من أنحاء أفريقيا ولا يزالون يسجلون نجاحًا كبيرًا. من غير أن ينطقوا بكلمة. أو ينثروا جدلاً إلا حين يسألون. وكل ما هناك أنهم يقيمون شعائرهم الدينية جهارًا فيتطهرون ويصلون في أي مكان يوجدون فيه عندما يحل وقت الصلاة ويتصدقون، ويطعمون الجائع المحروم، ويحترمون الجميع من غير أن ينتظروا على ذلك جزاء أو يشكروا. فينظر إليهم الأفريقيون كأنهم من نوع إنساني أرقى روحًا. وأقرب إلى الإنسانية من كل الأنواع الأخرى التي اتصلوا بها من الناس. فيؤمنون بما يؤمنون به.

فالمظاهر المادية والعمل. والمثال. والقدوة الحسنة. والتوكيد والتكرار وما في العقيدة من منطق وحكمة ومقدار ما يدعمها من منطق وحكمة ومقدرة قوة المدافعين عنها بالحكمة ومقدار اتصالها بالحياة العملية للمؤمنين بها ومقدار تنظيمها لهذه الحياة ولجوانبها المختلفة ومقدار إشباعها لحاجتهم النفسية والعقلية ومقدار انسجامها مع اتجاهاتهم الفطرية كل ذلك.. من

وسائل نشر العقيدة وتقويتها ومن ضرورات الاحتفاظ بها أمدًا طويلاً»[1].

وفي الوقت الذي يدور بعض شبابنا حول نفسه.. يمارس الدعوة على طريقة: «محلك سر»!. يمارسها تجمعًا في مسجد.. أو نشيدًا في حفل.. وعلى بعد أمتار من بيته الآمن ومخدعه الوثير. في هذا الوقت نطالع نماذج لشباب آخر ترك أهله ووطنه وراح يضرب داعيًا إلى دينه أو مذهبه مضحيًا حتى بحياته.

جاء في دراسة عن أعمال المبشرين للدكتور عبد الودود شلبي ما يلي:

«وأذكر أنني ترددت كثيرًا جدًا على مركز من مراكز أعداد المبشرين في مدريد، وفي فناء المبنى الواسع وضعوا لوحة كبيرة كتب عليها: أيها المبشر الشاب، نحن لا نعدك بوظيفة أو عمل أو سكن أو فراش وثير.. إننا ننذرك بأنك لن تجد في عملك التبشيري إلا التعب والمرض، كل ما نقدمه إليك هو العلم والخبز وفراش خشن في كوخ فقير. أجرك ستجده عند الله. إذا أدركك الموت وأنت في طريق المسيح كنت من السماء.. ورغم ذلك فقد كنت أجد مئات الشباب يدرسون في ذلك المركز، ورأيت مرة في ميناء مالقة في أسبانيا سفينة كاملة خصصت للمبشرين وعلى هذه السفينة قيل لي: أن هناك ثلاثة آلاف مبشر ومبشرة، وكلهم ذاهبون إلى أفريقيا وهذه السفينة ستنزل في كل ميناء أفريقي بضع مئات من رجالها ـ والكثيرون منهم يتسللون داخل البلاد دون إذن السلطات، لأن السلطات بروتستانية في بعض البلاد، وهي لا تسمح بدخول المبشرين الكاثوليك.. ولكنهم يدخلون ويوغلون في الغابات، والعشرات منهم يقتلون دون أن يطالب بدمهم لأنهم

(١) الحياة الوجدانية ١٧٥ وما بعدها للدكتور حب الله ج١ ـ دار إحياء الكتب العربية.

متسللون، والكنيسة الكاثوليكية تحتج على قتلهم، ولكنها ترسل في الوقت نفسه بدل المفقود الواحد اثنين.. هذا ما يقدمه كل مبشر معلمًا كان أو طبيبًا أو مهندسًا أو غيره.. وفي الحقيقة نحن أحق من غيرنا بهذا الإحساس وأولى بهذه التضحية.. إلا أن ما يقع ـ للأسف الشديد ـ هو غير ذلك، إذ لا يزال المعلم المسلم في بلادنا يرفض الالتحاق بمركزه في الريف حيث المكان الخصب للدعوة، ولا يزال يبحث عن المسكن الأنيق والفراش الوثير.. إلخ.

لقد تأكد لأعداء الإسلام منذ زمن بعيد أن ما يقرؤه الطفل من قصص ومسرحيات وشعر، لا يقل خطرًا عما تقوم به الأسرة وعما يقوم به المعلم من غرس للقيم وتأثير في السلوك يبقى معه ـ أي الطفل ـ حتى آخر مرحلة من عمره..لذلك لم يتوان هؤلاء الأعداء من إغراق أسواقنا الثقافية بالساقط من الكتب والمجلات المعدة خصيصًا للأطفال، تستهدف صناعة هدف لهم غير هدف أمتهم وعقيدتهم، وذلك عن طريق نشر الأسطورة والخرافة والقصص الخيالية وغيرها التي تشكل عندهم ـ الأطفال ـ بعد ذلك خوفًا وإعجابًا بالبطولة الغربية وتنشيء في أعماقهم تبعية تحول بينهم وبين فهم مقدرات الأمور حيث أخطار الغزو الغربي الذي يجب أن يعدوا له منذ نعومة أظافرهم لمواجهته ومقاومته.. ولقد وظفت لذلك أسماء لكتاب مشهورين على الساحة العربية.. بل لقد أصبحت قصة الأطفال من الميادين التي يراهن عليها الشيوعيون في أكثر من قطر عربي لنشر مبادئهم بين الأطفال.

---

(١) من بحث في مجلة الوعي الإسلامي صفر ١٤٠٨ هـ.

لذلك وجب على العـاملين للإسلام وهم يعـدون العدة لدك حـصون الكفر والإلحاد والتبعية للأجنبي، العمل على إغـراق السوق الثقافية الخاصة بالأطفـال من كتب ومـجلات خـاصة ـ بمـا يسهم في تحـقيق هذا الهـدف العظيم.



المبادئ..والمنافع

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾[(١)].

عندما تبذل روحك دفاعًا عن دينك أو عرضك.. فمعنى ذلك أن هناك شيئًا أغلى من الحياة هو: مثلك العليا.. وشرفك الرفيع.. الذي لا يسلم. حتى يراق على جوانبه الدم.

ومن هنا يتقبلك الحق تبارك وتعالى شهيدًا. بما منحت الحياة بعدك من عناصر البقاء.

وتلك الحقيقة مقررة في منطق الإسلام ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ ويقف الجهل حائلاً بين الإنسان وبين فهم هذا السر. والعمل طبقًا له. فهو عبد للماديات.

فالمال في جيبه يستطيع أن يراه ويحسبه ويكتبه في سجلات ثروته. فيشعر أنه يزداد ويكثر. أما المال الذي يذهب منه. فهو لا يستطيع أن يرى أين يكثر وكيف يكثر. ومقدار الزيادة التي يحققها. ومتى تعود منافعه وفوائده عليه. فهو يفهم فقط أن المال قد خرج من جيبه.. خرج ولن يعود أبدًا. ولم يستطع الإنسان حتى اليوم بعقله أو بطاقته أن يفتح قفل هذا الجهل.

(١) المنافقون: ٧ .

والمنافقون هم الفائزون بقصب الصبر في هذا المضمار.. حين يحسبون الحياة فقط لقمة تسد الجوعة.. أو خرقة تستر العورة. فإذا ما حرم الإنسان ذلك استسلم وخارت قواه.

وبهذا المنطق الساذج يتعاملون مع المؤمنين ناسين أو متناسين أن وراء المال والجاه كنزًا من الأخلاق.. هو سر وجود المسلم في هذه الحياة.

تحكي الآية الكريمة عن المنافقين قولهم بشأن المومنين ﴿ **لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا** ﴾.

اقطعوا عنهم «المعونات الاقتصادية».. افرضوا عليهم سياسة التجويع... فإن فعلتم.. انفض السامر من حول رسول الله (ﷺ).. وبقى وحده في مهب الرياح!

ويمكن لهذا التهديد أن يؤثر لو كانت الحياة غذاء وكساء. أما وفي الحياة من حقائق الروح.. وبرد اليقين.. ما يزري بهذه القشرة الظاهرة.. فلا!

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه. فما فاته فيها فليس بضائر.

ثم.. إن هذا المنطق الساذج تدخل في أرزاق لا يملكونها: فلله سبحانه وحده خزائن السموات والأرض. فهو وحده الذي يملك حق المنع.. وحق العطاء.

يعطي من سكينة النفس لأصحاب المبادئ، ما لو علمه المنافقون.. لحاربوهم عليه بالسيوف! ويمنع عن المنافقين هذا المدد من رزق الباطن.. فإذا هم - على غناهم - تعساء.

ومن ثم.. تجيء حساباتهم خـاطئة عندما يحسون قطع المعونـة سبيلا إلى هزيمة المسلمين.. بينمـا أصحـاب المبادئ هناك.. في جنات ونـعيم.. سعـداء بما رزقوا من قناعـة ورضا.. وبما قدمـوا للحياة مـن منافع.. وما غرسوا من قيم.. هي خير مما يجمعون.



أطباء... وصيادلة

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(1).

ليس من مصلحة الدولة.. ولا من مصلحة الدعوة أن يتحول الشعب كله إلى دعاة!

ولكن الحكمة تقضي أن يكون إلى جانب الجيش المستعد.. إرهابًا لعدو الله.. وعلى خط موازٍ ـ يتم انتخابهم من كل فرقة.. من كل التخصصات.. وعلى مستوى الأمة كلها.. لتكون أصدق تعبيرًا عن مبادئها.. وأقدر على مواجهة الفتن ما ظهر منها وما بطن.

أما أن يُستصفى الممتازون للدنيا.. وتبقى النخالة للدين.. فذلك هو البلاء المبين!

وتبدو مسؤولية الدعاة المنتخبين هنا عسيرة منذ اللحظة الأولى:

فإيثار الفعل «نفر» على «خرج» مثلا.. يلقى بالعبء الثقيل على أكتاف الدعاة الذين لا تنحصر مهمتهم في مجرد الكلام.. وإنما عليهم استشعار أنهم نافرون في معركة لها من الأهمية ما للمعركة العسكرية إن لم تكن أخطر منها أثرًا.

وإذا لم تنحصر مهمتهم في ملء الأسماع بالكلام.. وكانت بالدرجة

---

(1) التوبة ١٢٢ .

الأولى تربيـة الأمـة وإعدادها لتـمـضي على سواء الـصراط.. فـلابد من اسـتيـعابهم لحـقائق الإسـلام عن طريق الإلمام بالحكم.. والوعي بالحكمـة الخفية.. ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

ولا تكفي الشـهـادات في الوصـول بالناس إلى الحق.. وأهم منهـا: بصيرة نافـذة إلى أعماق الإنسان.. وعلل المجتـمعات.. ليعالجـوا بحقائق الدين آفات الإنسانية.

ولابد من توفر قـدر مناسب من الشجاعـة الأدبية يحميـهم من التودد ومجاملة المنحرفين على حساب الحق.. وإن كانوا قومهم.

إنهم مستعدون لمواجهة أقوامهم بعيوبهم: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾.

ليؤكدوا بهـذه المكاشفة قدرتهم على البلاغ أولاً.. وليؤكـدوا لقومهم ثانيًا أنه لا مجاملة في الحق.. الذي هو دائمًا فوق لحمة النسب.. ومن هنا يكسبون احـترام الجمهور.. بل إنهم ليـفرضون احترامـهم عليه.. لتكسب الدعـوة من وراء ذلك قوة.. في شـخص أفراد لا يـأكلون بدينهم.. إنهم يعيشون له.. ولا يعيشون به!..

يخدمونه ولا يستخدمونه.

وفرصة النجاح مواتية في صـحبة دعاة من هذا الطراز، ولعل قومهم: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ فيحملهم الحذر على الخوف.. ثم على التوبة النصوح.

ولا يمكن للدعوة أن تصل إلى هذا المسـتوى.. برجال يمسكون الماء.. ولا ينبتون الكلأ!.. برجال يملكون مخـزونًا من أحكام الشرع.. يمضغونها مضغًا.. ثم لا يلمون بحكمة التشريع.. رجال: يعرفون نعمة الله.. ثم لا يستثمرونها!

يملكون السلاح ثم لا يجاهدون به:

وإذا احتاجت الدعوة إلى «صيادلة» يدخرون صنوف الدواء للطالبين.. فإنها أحوج إلى «أطباء» يأسون الجراح.. وتلك قمة النجاح.



حتى لا تكون التحية.. زهرة بلا رائحة!

﴿ وإذَا حُيِّيتُم بتَحيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسيبًا ﴾[1].

كل شيء حتى إلقاء السلام ورده ـ مما نظنه أمرًا عاديًا ـ يصبح موضوع مساءلة إذا ما قصرنا فيه! ﴿ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسيبًا ﴾.

وربما كان المتلقي أكبر مسؤولية.. ومن ثم.. فالآية الكريمة تركز عليه؛ فإذا حييت بتحية.. فليكن ردك بأحسن منها.. وعلى الأقل.. ردها كما كما أُلقيت إليك بلا نقصان..

ذلك.. بأن الذي ألقى إليك السلام. قد بدأ بالفضل.

ثم هو أعطاك من نفسه الأمان بسلام.. انبسطت به نفسك.. وزايلتك مشاعر خوف أراحك هو من مضاعفاته..

ولك أن تتصور شبحًا في الظلام يتحرك.. وبينما الفزع يحتويك.. إذا به.. أخوك.. يسلم عليك.. فيعطيك عهدًا بالأمان.. ليتغير الموقف كله.. فإذا أنت ماض في طريقك.. أو تزاول عملك أكثر اطمئنانًا.. وأثبت جنانًا.. وبالتالي أوفر نتاجًا.. يعود على المجتمع بالخير.. في نهاية المطاف.

ونلمح هنا بُعدًا أخر من أبعاد المنهج الإسلامي.. الذي يرضى منك

(١) النساء: ٨٦.

برد العدوان.. عدلاً.. قبل أن يأمرك بالإحسان.. فضلاً. وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾.

فمن عفا وأصلح.. وذلك ساعة تعرضه للأذى.. فأجره على الله سبحانه.. ولكن الحق تعالى ـ هنا ـ يأمرك بالفضل.. قبل أن يطالبك بالعدل؛ لأنك هنا تعيش لحظة سلام تنبسط فيها نفسك.. بجميل قدم إليك.. وتحية ألقيت عليك. فأنت إذن أكثر قبولاً واستعداداً للفضل.. وتقديم الأحسن.. في نشوة نفسك بمشاعر الأمان.. أما لحظة وقوع الأذى عليك.. فإن العدل.. أن تكلَّف بالعدل.. تقديراً لموقفك الصعب!

وإذا كان هذا واجب المتلقي.. فإن الذي ألقى السلام ليأخذ نصيبه من المسؤولية في صنع هذه اللحظات البهيجة:

وأقصد بالتنبية: بعض الذين يلقون إليك السلام بلغة الأرقام! والمكاييل والموازين؟

إنه يحسب ثواب التحية التي يردها على قدر ما نطق به من ألفاظها الواردة في السنة المطهرة.

فهو يلقيها: صارم الملامح.. مقطب الجبين.. شاخص البصر.. وكأنما هو بائع يعطيك السلعة.. ثم يطالبك بالثمن! بينما هو في الواقع لم يمنحك روح السلام.. وإن كان قد رسم هيكله العظمي بألفاظ تفوه بها!

أين تهلل الوجه.. وطلاقة التعبير.. بل أين الابتسامة الوضيئة التي تجعل للتحية قيمة.. بل إنها لتكفي أحياناً.. ولو لم تنطق بكلمة واحدة.

إن تحية خالية من هذه الروح، زهرة بلا رائحة.. صلاة.. في غير جماعة.. إنها كبحور «علم العروض»: بحر.. بلا ماء!!

التثبت قبل الحكم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾[1].

إذا كنا نقول في المجال العسكري لكي يحقق الصاروخ هدفه؛ لابد أن ينطلق من قاعدة سليمة. وإلا عاد فدمرها تدميرا.. فإنا نقول في المجال الإنساني، لكي تبلغ الكلمة هدفها.. لابد أن يفيض بها قلب سليم.. وثيق الصلة بربه.

وإلا فلو صدرت الكلمة من قلب خرب.. من قاعدة رخوة.. فإنها سترتد نقمة على مجتمع غافل.. ترك من صفه ثلمة سمحت بهذا الدمار.. الذي يفوق في آثاره ما يفعله الصاروخ الطائش!

إن القذيفة قد تصيب فردًا بعينه. فترديه قتيلا. ولكن الكلمة الخبيثة يتطاير شررها. لتصيب «قومًا»: لتصيب مجتمعًا بأسره. ولا يخفف من هذا الأثر أن كانت «بجهالة» لأن سنن الحق تعالى.. لا تحابي المغفلين.. وإن كانوا مؤمنين.

وجدير بالمؤمنين ـ كما تشير الآية الكريمة ـ أن يكونوا أبصر بالعواقب. فلا يقبلوا كلام الناس دون تمحيص.. وألا يسمحوا في البيئة الطهور أن تدنسها الأحقاد..

---

(١) الحجرات: ٦.

إن الحق سبحانه وتعالى يستدعيهم بوصف الإيمان أن يفوا بحق الإيمان عليهم.. لقد مُنحوا بالإيمان عنصر الثبات.. والأناه.. وإذا فرض عليهم الإيمان أن يقولوا «التي هي أحسن» فإنه يفرض عليهم أيضًا أن يستمعوا بالتي هي أحسن..

ومن حسن الاستماع ألا يجاملوا الفاسق وإن كان ذا مال وبنين.. على حساب الآخرين. ولو حاول أن يستغل إمكاناته فيجعل الخير العادي «نبأ» يستحق التعليق أو التصديق!

وهذا الاحتياط في تقبل الأخبار ينجيكم من ندم تستقبلون به يومًا كئيبًا لا يغسله اعتذار فات أوانه.

إن هذا الذي اتهم في سمعته له عينان.. وأذنان.. وشفتان.. وسوف يتكلم بالحق وبالباطل.. وسوف يهاجم المتكلمين.. والساكتين معًا.. وبنفس الحماس! وبذلك تضعف الثقة الجامعة المانعة.

إن الإيمان ليمنح أتباعه حسًا بصيرًا يدركون به طبيعة ذلك الفاسق.. ومآربه.. «الفاسق» الذي فسق عن أمر ربه.. فخرج به فسوقه عن الجماعة معزولاً.. فحاول أن يضرب ضربته من «الخارج» بعد أن عجز عن تفريقها من الداخل. حين «جاءكم» من بعيد.. بعد أن اكتنز جسمه كالسحلفاه. ليهدم بالكلمة الخبيثة هذا الصرح القائم.

وعلى المجتمع المتماسك.. باسم الإيمان أن يتلافى باليقظة.. ضربة الكلمة الخادعة.. كما يتلافى القذيفة الصادعة!



المعادلة.. الصعبة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

لأن الإيمان تصديق يبلغ حد اليقين.. فلابد أن يشع قبس منه على صلة المسلم بأخوته المسلمين.. فلا يؤاخذهم بالظن والتخمين.

ولأن التجربة الشخصية تكشف أحيانًا عن خطأ في التقديرات والظنون.. فإن الاحتياط يفرض على المؤمن ـ بحكم إيمانه ـ تجنب الكثير منها.. حماية لغيرة من أحكام لا يدري أين الخطأ فيها.. وأين الصواب.. وإذا كان الشاعر يقول:

من أجل عين... ألف عين تكرم..

فإنا نقول: من أجل ظن واحد يضر صاحبك.. يترك ألف ظن ولو حملت دليل الرجحانَ.

على أن هذا التدبير يحمي المؤمن أيضًا من ردود الفعل لدى ضحايا الظن الخاطئ. ذلك بأن للناس أعينًا.. ولهم كذلك ألسنة.

والموقف الأمثل: أن يحمد المؤمن ربه الذي عافاه مما ابتلى به غيره.. ولئن حدث.. وانتهت إلى المؤمن بعض الشائعات بلا تكلف منه.. فعليه

(١) الحجرات: ١٢ .

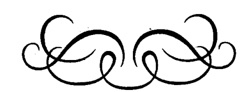
ألا يستثمرها مع غيره.. ممن يستضيفهم الشيطان على موائد من لحوم الآخرين. وأخُص بالحديث هنا.. لحظات الفراغ في حياة أناس يسترخون في الظل حول موقد «الشاي»!

لقد شربوا مع «الشاي» عصارة من دم أخ لهم في الله... اغتابوه ثم مرغوا سمعته في التراب.. بينما هو غائب.. لا يملك الدفاع عن نفسه!

وفي نفس الوقت ترى عجبًا: عندما ترامت إليهم صيحات النجدة.. بأن «بقرة» أخيهم هذا موضوع حديثهم.. سقطت في البئر ماذا فعلوا؟ طاروا إليه مسرعين.. قبل أن يفقد رأس ماله. طاروا.. بدافع من المغامرة.. وهي أمر محمود لدى الناس.. أو فعلوا ذلك دَيْنًا. يطوقون به عنق صاحبهم.. ليدفعه في الوقت المناسب.. أو أنهم أرادوا مجرد الخروج من العهدة.. وتفادي لوم الناس لو أنهم تقاعسوا!

وقلت للجالسين المتآمرين.. الجالسين إلى جوار النخلة ـ وهي مثال المؤمن في: خيريته.. وثباته.. وخضرته الدائمة.. قلت لهم: تنقذون «بقرته».. ثم تمزقون سمعته؟!!

إنها المعادلة الصعبة! اتقوا الله يا قوم.. اتقوه.. إن الله تواب رحيم.



من هنا.. تبدأ الحضارة

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[1].

عندما يطلق صبي ساقيه للريح.. عبر طريق ممتد. ثم يتلوه آخر.. هكذا بلا غاية. فمن منهما السابق.. ومن اللاحق؟

لا سابق هنا ـ ولا لاحق!!

لأن التقدم إنما يكون: عندما يوجود هدف محدد.. يقترب منه واحد.. فنسميه متقدمًا.. ويتأخر ثان.. فنسميه متأخرًا.

فإذا كان الأمر عبثًا وبلا غاية.. فلا يعدو أن يكون حركة طائشة.. تخطف الأبصار.. لكنها بلا مضمون.

وهكذا كانت حضارة عاد قوم هود: لقد شيدت دورًا وبنت قصورًا.

ولا تنكر الآيات على القوم ذلك.. لأن عمارة الأرض بعض أهداف القرآن التي تحقق رفاهية الإنسان. لكنها تشدد النكير على نهضة عمرانية تنطلق بدوافع العبث أو الترف. والاستهتار.. على يد العابثين اللاهين عن الحياة الآخرة.. والمتشبثين بأحلام السيطرة والخلود. إنها صحوة.. ولكنها صحوة لموت! الموت المرصود لحركة تمضي.. بلا روح.. وبلا ضابط من تقوى الله سبحانه وتعالى. والالتزام بشرعه.

وإذا بقيت في الجسم بقية من عافية تمسك البنيان المتماسك.. فإن ذلك

(١) الشعراء: ١٢٨، ١٢٩ .

لن يدوم طويلاً.

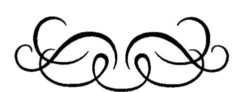
فقد أتى المجتمع من داخل النفس واستطاع العبث.. والاستهتار - وهو العملية الردئية - أن يطرد العملة الجيدة: الفضيلة من القلوب. وبذلك فقدت نور البصيرة..

وكل خطوة تخطوها.. فإنها تحقق دائمًا عكس المطلوب!

وتلك سمة من سمات الحضارة الحديثة.. التي تمضي على نفس الطريق.. إلى ذات الغاية، إنها تتحرك.. لكنها لا تتقدم! ولقد شيدت القصور.. وأسست المصانع.. ومشت فوق القمر.. بيد أنها في غيبة الإيمان بالله تعالى تدور حول نفسها.. لتثبت في النهاية كروية الأرض! وقد أثبتتها فعلاً!

لكنها - حتى اليوم - لم تمكن الإنسان من التحكم في خيرات هذه الأرض والإفادة من سنة الله تعالى فيها. واكتفت الحضارة المادية بإثبات أمر قد يكون عبثًا وترفًا.. إلى جانب تقدم الإنسان الحقيقي.. والذي لا يكون أبدًا بعدد المصانع. لكنه بالدرجة الأولى مرتبط بباطن الإنسان.. وشحنه بدوافع الكمال - ثم الانطلاق به إلى آفاق الفضيلة.

وعندئذ تكون الحضارة - لو فعلت ذلك - سلاحًا من أسلحة القدر.. يرحب به الإسلام.. ويمهد أمامه السبيل. من أجل سعادة الإنسان.



النظرية..والتطبيق

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾(١).

قد يجد العـابد نفسه بالليل ساجـدًا وقائمًا. . لكن عبـادته تظل حبرًا على ورق. . وإن شئت فقل: لونًا من الأرق! إذا لم يسفر صبحه عن حركة دؤوب. يقتحم بها العقبة؛ فيعطي من ماله هذا المحتاج. . بعد أن أعطى من وقته لربه الغني سـبحانه وتعالى. ويسـتلفت النظر هنا: صدقُ الآية الكريمة في التعبـير عن منهج الإسلام الراشد حـيال الواجدين والفاقدين مـعًا: إنها تضيف المال إلـى الواجدين: ﴿ .. فِي أَمْـوَالِهِمْ ﴾ تقديرًا لغـريزة التملك. واعترافًا بالجـهد المبذول في تحصيل المال. وما يتـرتب على ذلك من انبساط النفس بالعطاء. . في ظل من الإحسان بهذا التقدير لدوافعها.

ولكن هذا العطاء لا يصل إلى الفقير تفضلاً أو استعلاء، لأن ذلك من شأنه أن يخدش حياءه.

وما كـان للإسلام أن يقدر شخـصية الغني. ثم لا يأخذ في الحـساب كرامة الفقير! ومن هنا تقرر الآية أن هذا العطاء، ﴿ .. حَقٌّ ﴾ ليتقبله المحتاج بمشاعر الاعتزاز بدين لم يتركه مستعبدًا تحت رحمة غني: إن شاء أعطى وإن شاء منع.

إنه يقف إلى جانبه. . حـين جعل له ذلك الحق نصيبًا مـفروضًا. . ثم

---

(١) المعارج: ٢٤، ٢٥ .

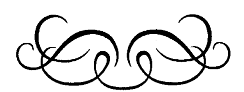
يتقدم به على طريق تكريمه خطوة أخرى إذ يطالب الغني بمال عزيز عليه.. فيعطي الفقير من صميمه وجوهره.. وليس من أطرافه وحواشيه.. كما يفيد حرف الجر «في». فلا يحيله مثلاً على مدين له مماطل.. ليطالبه بدين في حكم المعدوم؟! وإنما يعطيه من المال الحاضر.. والذي يعتز به صاحبه فعلاً.. وتناوشه غريزة التملك حتى لا يفرط فيه.

ثم إنه «حق معلوم» مقدر من قبل الشارع الحكيم. وليس قابلاً للتلاعب أو التحايل.. تحاشيًا للنزاع.. وإبقاء على الود بين الطرفين.

ولا بأس على الغني حين يعطي أن يبدأ بما بدأ به الحق سبحانه وهو: السائل.. مع شدة حاجة المحروم إلى المال.. مبادرة من الإسلام للقضاء على ظاهرة التسول التي تشوه جمال الحياة.. وجمال النفس أيضًا.

إننا نحيل المحروم إلي تجلده ومصابرته.. يحرسانه من الانهيار والتبذل لنسعف هذا الملحف في السؤال.. أحيانًا على الأقل.

وبهذا المنهج الحكيم يعيش الأغنياء والفقراء جنبًا إلى جنب.. ولا تكون بنا حاجة ـ كما تريد الشيوعية ـ إلى تحريض الفقراء على الأغنياء.. بعد أن بادر الأغنياء بالعطاء على هذا النحو الكريم. فحققوا بهذه المبادرة معنى الأخوة. بقدر ما جنبوا المجتمع كله من حرب طاحنة تأكل الغني.. والفقير.. على سواء.



العمل في الإسلام بين الكم والكيف

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾(١).

عندما يشتد إحساس الإنسان بمسؤوليته في موقع عمله.. فإن ذلك الإحساس يدفعه إلى إجادة العمل.. إبراء للذمة.. وإثراء للحياة.. لكنه قد لا يحصل في النهاية على الثمرة المجزية لهذا العمل..

وقد يحزنه أن يرى.. صدقه.. وأمانته.. وصحوة ضميره.. بضاعة مزجاة في سوق لا تروج فيها إلا بضاعة الكذب.. والخداع!

وقبل أن تزحف ظلال من الأسى نحو قلبه.. يؤكد له الحق سبحانه أن أجره محقق الوقوع:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ..إِنَّا لا نُضِيعُ.. ﴾.

إنه إذن لن يضيع أبدًا.. من حيث كان وديعة لدى من لا تضيع عنده الودائع سبحانه وإذا ضاعت ثمرة العمل في زحمة العيش.. وصخب السباق.. وإذا كبا بالمؤمن جواده يومًا.. بينما سبقته دابة عرجاء. إلى تحصيل متع الدنيا.. والإدلال بها..

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ فـ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾.

الأجر إذن مدخر هناك.. أجر من أحسن عملا.. أي عمل. ولو بدا

(١) الكهف: ٣٠.

للعين المجردة ضئيلاً.. فليس في الإسلام عمل كبير.. وعمل صغير.. إنما هناك عمل صالح.. وآخر طالح. وإذا صح أن يوصف بالكبر.. أو الصغر.. فليس لأن الأول عمل الغني.. والآخر عمل الفقير. بل بمقدار ما يحصل من وصف الصلاح، وما يستجمع من عناصر الجودة والإحسان، ولو كان العمل نظافة الطريق.. أو إماطة الأذى عنه!

لقد كان (ﷺ) يخصف نعله.. ويرقع ثوبه.. ويراه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فينسجون على منواله.. ويقيسون حياتهم عليه. وعندما أراد أن يُعد غذاءه يومًا مع بعض صحابته.. واختار كل واحد من العمل ما يُرضي غروره النفسي.. تولى هو مهمة جمع الحطب.. بعد أن فر منها الجميع. وبذلك رفع قيمة العمل إلى قمة عليا.. يرتفع إليها صاحب المنصب الصغير.. إذا أحسن عمله.. بينما ينحط الكبير.. إذا ما هوت به نفسه إلى درك الإهمال!

إن فطرة الإنسان قد تدفعه إلى العمل بحثًا عن الطعام أو الكساء.. بيد أن همة المسلم ترمي به إلى بعيد.. في ضوء إيمانه بربه سبحانه.. فيحس بأن الله تعالى يراه. ومن ثم يجئ عمله صالحًا.. مصلحًا للحياة من حوله..

وإذا لم يمتد عمره فلم يقطف ثماره.. فإن حرصه على الإحسان لا يفتر أبدًا.. فالدار الآخرة هي الحيوان.. وثوابها ينبغي أن يكون مستراد آمال الإنسان.

لقد اتخذ المغرضون: ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومع ضخامة البناء وروعة التقسيم.. إلا أن مسجدًا كمفحص قطاة أربى منه

في الميزان. لأنه عـمل صالح أسس على تقوى من الله ورضـوان. فلا تهم الإسلام ضـخامة العمل.. لأن عنصـر الإحسان فـيه هو مناط الحكم له أو عليه.



لا يأس.. مع الإيمان

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[1].

على الرغم أن الوالد هنا قد ابيضت عيناه من الحزن على فراق ولده يوسف.. ومع تحذير أولاده إياه من الهلاك لو أرخى لأساه العنان.. إلا أنه يرتفع فوق مستوى الحزن.. ويتخطى هذا التحذير.. ثم يتجه بقلبه إلى الله.. الذي يعلم منه سبحانه ما لا يعلم الأبناء. يعلم أنه. لا يأس مع الإيمان. وأن المؤمن في معية الله سبحانه وتعالى يرى بنور الله من الحقائق ما يخفى على عشاق الدنيا. ويحس في ظلمات الليل البهيم بوميض الحقيقة تتراءى لعينه من بعيد.. لأنه ينظر بنور الله.

ورغم اختفاء الولدين بلا أمل في عودتهما كما يقول الواقع الماثل.. ومع ظهور بوادر التآمر من قبل إخوة لم يقدروا الأبوة ولا الأخوة قدرها.. فإن الوالد ينتهزها فرصة.. فيعلمهم درسًا في الإيمان بالله تعالى.. وعدم اليأس من روحه..

﴿ يَا بَنِيَّ ﴾: هكذا يستعطفهم.. ويثير في أعماقهم عاطفة الحنان.. فما زالوا أبناءه على ما ارتكبوه من خطأ.. وما زالت الرابطة المقدسة باقية.

وإذا كان هو يكلفهم اليوم بعملية البحث عن يوسف وأخيه.. فإنه

(١) يوسف: ٨٧.

يعدهم لذلك بإيقاظ همتهم الباعثة على العمل.. بنزيذ اليأس. ولتكن الثقة بالله بديلا يمدهم بالنشاط والحركة.

وكما أن تركيب الراء والواو في لفظ (روح) يفيد الحركة والخفة في طلب الأمور.. فليشمروا للهمة عن ذراع ويكشفوا عن ساق.. بحثًا عن الأخ الغائب.. فإنه: ﴿لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

إن اليأس في تناول الحياة لا يكون إلا إذا فسدت فطرة الإنسان وانحلت عقيدته.. فظن أنه ـ سبحانه ـ غير قادر ـ أو غير عالم.. أو ليس بكريم.. وعندما يمنحك الإيمان بالله تعالى ثقة مطلقة بقدرته تعالى وعلمه وكرمه.. فإن اليأس لن يرف من حولك أبدًا.. لأن منطق الواقع.. ولأن مقاييس البشر.. إذا عجزت عن حل الإشكال.. فإن لله تعالى قدرة عليا.. وعلمًا أوسع.. يهيمن بهما على الكون كله.. وفي ضمنه ما تعاني أنت من مشكلة لا تساوي إلى جانب الكمال الإلهي نقيرا.

وبعد: فإلى الطبيب الذي توسل إليه المريض أن يبحث له عن علاج.. فقال له.. هذا لون من الأمل الكاذب. أقول له: إنه إذا كانت قواعد الطب ترفض علاجًا معينًا لعدم جدواه.. فإن الطبيب يخطئ الهدف حين يطبق هذه القواعد تطبيقًا صارمًا.. لأنه يقضي على البقية الباقية من الإيمان في نفس مؤمن تتقاذفه أمواج بحر هائل.. وهو في حاجة إلى ربان ماهر يبقي على هذا الخيط الرفيع.. ليظل موصولا بخالقه سبحانه.. وهو وحده القادر على أن يجيب المضطر إذا دعاه.. والقادر على أن يميت مثل هذا الطبيب.. ويبقي مريضه هذا رمزًا حيًا.. وأملاً تجيش به صدور العاجزين.

التطفيف.. كالجنون.. فنون!

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[(١)].

عندما يضعف الإيمان بالآخرة في الصدور.. فإن الضمير الإنساني يفقد أهم عناصر القوة فيه.. ومن ثم.. لا يمارس نشاطه بالقدر الكابح لهوى الإنسان.. الذي ينطلق في غيبته على هواه.. مدفوعًا بأنانيته.. وسوف يكون أشد اندفاعًا في صخب الأسواق.. وما تحفل به من صور الإغراء.. من حيث تبدو مظاهر الربح.. فيتبعها بحثًا عنه من أي طريق.. وفي غمرة الكسب.. ربما لا يكتفي التاجر بأن يظل تاجرًا. ولابد أن يتقدم خطوة أخرى.. ليكون جشعًا.. حتى يشبع نهمة نفس لا يملأ عينها إلا التراب!

لقد تحولت نفسه برغباتها إلهًا يعبد من دون الله.. ومن صور الطاعة للمعبود الجديد.. أن توفر له متعته الوحيدة.. بإذلال الآخرين. ولا بأس أن يكون الخداع والنفاق شطارة يدل بها ويزهو..

إنه يحرص على حجم المكيال والميزان خوفًا من القانون.. ولكنه يستبد بالمشتري فيبيعه بالنقص ما اشتراه من المزرعة جزافًا.

وتظل الحاجة إلى إشباع النفس تفتق الحيلة، فقد تتآكل الصنجات بين يديه.. ثم يكيل وهو مطمئن إلى أن حقه في الربح محفوظ!

(١) المطففين: ١ ـ ٣ .

وقد يصدق في المكيال والميزان معًا. لكنه الصدق الكاذب.. إن صح التعبير. لأنه يتخذ ذلك سبيلاً إلى إخفاء ثمن السلعة الحقيقي.. فيبيع بعشرة ما اشتراه بثلاثة! والتطفيف.. كالجنون.. فنون!

وبهذا النفاق.. والخداع.. والكذب.. يجمع ثروة.. قد يتسع مداها بأسلوب لا تطوله يد القانون.

من هنا كان عقابه صارمًا عند الله تعالى؛ لأنه كلما اشتد خفاء الجريمة كان جزاؤها صارمًا قاصمًا.. من أجل ذلك يهدد المولى عز وجل بالويل والدمار هؤلاء المطففين.

وأية قيمة لثروة فقدت عنصر الأمانة.. ووقفت بصاحبها على مشارف واد من العذاب.. والويل.. لا فكاك منه؟

وممن هذا الوعيد؟ من العالم بمسارب النفوس سبحانه..

فكل حركة لتاجر جشع هي مع علم الله تعالى تقع في دائرة من الضوء.. مكشوفة الزوايا.. واضحة المعالم. ثم هو سبحانه قادر على تنفيذ وعيده بالخسران.. فلن يعجزه ملك السوق هربًا!

وهذا هو أسلوب القرآن الكريم في ترويض النفوس بالخوف.. والرجاء.. تجد فيه الحكومة سندها الشرعي في مقاومة الجشع..

ويرى فيه الدعاة إلى الله كيف يفرض عليه أن ينزل إلى الشارع ليواجهوا قضايا الناس اليومية بالعلاج.. ولن يجدي التعميم في الدعوة شيئًا.. في وقت تستشرى فيه رذائل الشيطان بأسلوبها المغري..

وأخيرًا يجد فيه المطففون أنفسهم صورة للأنانية البغيضة.. وكيف

يمسك التاجر بعصاه الغليظة يلهب بها ظهور «زبائنه»بينما هو يتقلب في نعيمهم.

لقد خاطوا له الثوب.. ومهدوا له الطريق.. وبنوا له البيت.. بل وأمدوه بثروة قد تكون كبيرة.. لكنها في غيبة عواطف المودة في صدور الناس تجعل ربحه صفرًا!!



حياة.. بلا حياة

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾[1].

عندما يستبد بك انفعال ما. .ماذا يحدث؟ يتصبب العرق. . تتلاحق الأنفاس. . وتزداد ضربات القلب. والنتيجة: قصور في النظر إلى ما حولك. . ومن حولك. . ومن ثم. . يختل الحكم على الناس. وعلى الأحداث.

نفس هذه الورطة وقع فيها هؤلاء عندما استبد بهم انفعال الفرح بالدنيا: لقد أفقدهم ملكة التمييز. . فلم يروا حقائق الأشياء كما هي. . فَسدَ عندهم التصور. . فساء التصديق. . وعاشوا رغم ترفهم حياة. . بلا حياة!

وعلى رأس الحقائق التي أعماهم عنها فرحهم الطاغي: إن الله هو القابض الباسط. وإن النعيم الذي يتقلبون فيه إلى جانب نعيم الآخرة لا يساوي صفرًا!

على ما يقول (ﷺ): «والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر ماذا يرجع إليه».

وذهول الإنسان عن هاتين الحقيقتين يفقده معنى الحياة. فلا يحس

(١) الرعد: ٢٦ .

لنعيمها بحلاوة. وإن شَغَل في حيزها مكانًا مرموقًا.

وماذا يبقى للإنسان إذا فقد الإيمان وهو نقطة الانطلاق الصحيحة.. إلى دار هي الحيوان؟

إن استحضار هذا المعنى في وعي الإنسان هو الذي يجعل للحياة قيمة ولنعيمها وزنًا.

وهنا نتساءل: هل معنى ذلك أن هناك خصومة قائمة بين الإسلام وبين الحياة وما فيها من نعيم؟

ويمكن أن نقول: نعم.. وأن نقول: لا.

نعم: يخاصم الحياة اللاهية العابثة. والتي تتخذ دور اللهو وساحات اللعب قبلة! الحياة التي لم تر للفضيلة فائدة محسوسة قريبة.. فرفضتها.. واتخذت من دونها المكيال والميزان إلهًا يعبد من دون الله.

ونقول: لا خصومة بين الإسلام وبين الحياة التي تتذوق فيها نعيم الدنيا وتفرح به فرحًا لا ينسيك خالقه سبحانه وتعالى.

والمؤمن أشد فرحًا بما هو أبقى من هذا النعيم الزائل: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[١].

وإذا كان الفرح بالدنيا لدى كبريات الدول يخنق صوت الحق وسط دوي المصانع.. وبريق المخترعات.. فإن ذلك لا يخفي حقيقة أن المؤمنين هم الفائزون.. وأن المستقبل لهذا الدين العظيم.

لماذا؟ لأن المسلم يتعامل مع الحياة مدركًا مغزاها.

(١) يونس ٥٨ .

ثم هو يتقلب على دروبها وتتربى روحه على قيثارة الألم مرة.. وعلى أنغام السرور أخرى.. فيبذل في سبيل الله صابراً.. ويفرح بنعمته شاكراً. يفرح بلا بطر. ويتحمل الهموم الثقال بلا جزع.. غير أنه لا يتحمل لمسة واحدة من عذاب الضمير..

هذا الضمير الصاحي.. كالديابان اليقظ... يضبط الخطى فلا تزل.. ويحرس القلب فلا يسكره نعيم زائل.. انتظاراً لنعيم لا يزول.



التقوى.. وكرامة الإنسان

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[1].

تحدثت الآيات السابقة من سورة الحجرات فيما تحدثت عن ضرورة التخلي عن رذائل التجسس والاغتياب والسخرية من أجل بناء الأسر والمجتمعات على أصولها الجامعة.

وإذا كان الهوى المتقلب من وراء هذا الشتات في العلاقات الفردية والاجتماعية.. فإن آيات اليوم تستدعي البشر ليتحاكموا إلى مقياس واحد: هو التقوى يعفيهم من هذه الآفات: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم.. ﴾.

إن في كل أمة طاقات ومواهب ليست لدى الأخرى.. ومن شأن التصارع أن يذهب بهذه الطاقات سدى.. بقدر ما يكون التعارف سبيلاً إلى تلافيها في لقاء يثمر الخير والبر.

ولكي نستثمر ذلك التلاقي على الخير فإن الحق تعالى يأمرهم بالتقوى.. ليتحاكموا إليها في وزن الأحداث والرجال.

(١) الحجرات: ١٣ ـ ١٥ .

فمن أراد الفخر فعليه بالتقوى. ومن سره أن يكون أكرم الناس ـ فليتق الله.

وإنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله.

وفي ظل هذا المقياس تسقط دعاوى الفارغين من الناس.. وحين زعمت الأعراب الإيمان دون أن تملك مقوماته ردها الحق تبارك وتعالى إلى هذا المقياس مقياس التقوى..

إن مجرد دعوى الإيمان لا تدخل بالإنسان في زمرة المؤمنين.. وإلى أن يدخل الإيمان في قلوبهم.. فهم مسلمون فقط والطريق مفتوح أمامهم ليحصلوا عناصر هذا هذا الإيمان بطاعة الله ورسوله وتحكيم شرعه الحكيم. وحينئذ فسوف يعطيكم الله أجركم كاملا.. ويرحمكم رحمة لا تبقى من خطاياكم شيئًا.

وما أكثر دعاوى الإيمان والإخلاص ممن لا يرتفعون إلى مستواه وهم كهؤلاء ما زالوا عند أول درجات السلم فليحاولوا لعلهم يصعدون.

وعليكم أن تفتحوا أبصاركم لتروا هذا النموذج العالي في الطاعة متمثلاً في جماعة المؤمنين الذين: آمنوا بالله ورسوله إيمانًا ظهرت بركاته في أقوالهم وأعمالهم.. ووصل إيمانهم حدًا من الرسوخ لا يتطرق إليك شك أبدًا.. ثم.. هم حراس هذا الإيمان: أرواحهم على أكفهم.. فداءله.. وأموالهم كلها مرصودة لإعلاء كلمته.. وأولئك هم الصادقون.. لأنهم صدقوا الأقوال بالأفعال..

من جزاء المؤمنين

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ * فَذَكِّرْ... ﴾[1].

إذا لاقى المسلمون من سفر الحياة نصبًا.. فإن مسك الختام في جنة الرضوان ليُنسيهم ما لاقوه من نصب ووصب..

ومن صور النعيم ماتصوره الآية الكريمة: فالذين آمنوا.. ثم وعلى هداهم سار أبناؤهم فإن الله تعالى يجمع بين الآباء والأبناء في ظلال الجنة.. حتى ولو لم يكن الأبناء على مستوى الآباء في الإيمان.

يقول (ﷺ): «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه، لتقربهم عينه».

ثم تلا هذه الآية.

إن اجتماع الأحبة نعمة في ذاته تضاف إلى ما يتقلبون فيه من صنوفه.

وإذا كانت مغارم الحق قد منعتهم في الدنيا مما يعب منه المترفون..

---

(١) الطور: ٢١ ـ ٢٩ .

فإنهم اليوم: يمدون: بفاكهة.. ولحم.

وليس هذا فقط وإنما هم يشتهون.. فقد تتاح الفاكهة لكن عزوف النفس لا يجعل لها قيمة.. إن اليد التي خضبها الكفاح.. والقدم التي أرهقها السير في مناكب الأرض سعيًا على الرزق أو دفاعًا عن الحق.. والجسوم التي غشاها من المعاناة ما غشى هاهي ذي تستريح اليوم.. ليطوف عليهم غلمان.. موقوفون على خدمتهم وإن لعبت خمر الدنيا بالرؤوس من بعد الكؤوس فإن خمر الآخرة مما تسعد به النفوس وإذا عبث العابثون في الدنيا ففي الآخرة هم في قمة عقولهم وفي هذه الجلسة الهادئة الوادعة يتجاذبون أطراف الحديث...

يتأملون في صور التكريم والتنعيم.. ثم يتساءلون عن أعمالهم التي وصلت بهم إلى هذا المستوى من التكريم..

وتسجل الآيات ذلك الجواب: كنا نحسن المعاشرة لأهلينا: برًا بالولدين.. وحبًا للأخوة.. ورعاية للجوار..

كنا نفعل هذا ونحن على غاية ما يكون الإشفاق والحذر حتى نظل هكذا مطيعين ولا نحبط أعمالنا بالإنحراف عن هذا الخط المستقيم. فمن الله علينا فوقانا العذاب النافذ في المسام.. والزحزحة عن النار في ذاته نعمة.. ما بلغناها بأعمالنا مهما عظمت هذه الأعمال.. فلا تساوي شيئًا إزاء نعمتيه: نعمة الزحزحة عن النار، ونعمة الجنة ونعيمها، ثم نعمة الصحبة المباركة.

إننا في ظل دائم من إحسانه وبره سبحانه.. ومهما قصرنا في أعمالنا فإننا مشمولون برحمته المنشورة على الكون..

إنها نهاية يتضاءل إزاءها ما يتحمله المؤمن من أهوال الدنيا:

فما أرخص الثمن.. وما أجزل الربح..

وما أشد خسارة الذي أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.. فما لهذه المتعة من قيمة إزاء ما يتقلبون منه اليوم من عذاب مقيم.



الفتح المبين

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[1].

عندما أبرم (ﷺ) معاهدة الصلح مع المشركين في الحديبية أحس المسلمون بمشاعر الخيبة لما لم يتمكنوا من أداء العمرة.. وكان لطف الله تعالى بهم أن أراحهم من وخز هذه المشاعر بما ساقته هذه الآيات الكريمة من بشارات نوهت بكرامة الرسول (ﷺ) عند ربه.. والثناء على المؤمنين الذين أيدوه ونصروه. بقدر ما فضحت هؤلاء الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله (ﷺ).

ومع أنه لم تسل قطرة دم واحدة إلا أنه، كان فتحًا.. بكل تأكيد وبكل المقاييس لم يكن فتحًا.. بيِّنًا في ذاته.. وإنما كان مبينًا؛ بما كشف من معالم جديدة وحقق من مغانم ما كانت تخطر على بال:

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم. وأسلم في ثلاث ستين خلق كثير. وكثر بهم سواد الإسلام.

قال الشعبي:

لقد أصاب رسول الله (ﷺ) في الحديبية ما لم يصب في غزوة: غفر

(١) الفتح: ١ ـ ٣.

الله له ما تقـدم من ذنبه ومـا تأخر وبويع بيعـة الرضوان . . وأطعـموا نخل خيبر . . .

وبلغ الهدى محله . . . وظهرت الروم على فارس

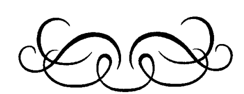
ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس .

وإذن فقد كان صلح الحديبيـة فتحًا . . للرسول الكريم، صار به طاهرًا مطهرًا من الذنوب . . وأتم الله عليه نعمته . . فانتصر في معركته مع الشيطان وفي معركـته مع الكفار . . فكان على غاية مـا يكون الهدى . . الذي كشف الله تعالى به المعالم . . وتوج حياته كلها بالنصر العزيز . . المكين .

وفي ظل هذا الرائـد الذي لا يكذب أهله . . منَّ الله تعـالى بالـسكينة على الذين ثبتوا معه في أحرج اللحظات . .

ولقوا خير مـا توقعوا . . حيث نزلت عليهم السكينة مـددًا من السماء صاروا بهـا أقوى الأمم كمـا يفيد مـعنى السكينة التي تعني : ثبـات الفؤاد . وسعة الصدر . . . وبالتالي :

وضوح الرؤية الكاشفة المفرقة بين الحق والباطل . . وإذن فبالصلح فرق الله تعالى بين أدعياء الإصلاح . . والمصلحين حـقًا . . . وبعد أن كان النصر مقصورًا في الأذهان على مجرد الغلب في معركة عسكرية . . صار بالدرجة الأولى متمثلاً فيما تملكه الأمة من أخلاق عظيمة تصنع المواقف العظيمة .



من صور التيسير

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[1].

يذكر المفسرون أنه في أول فرض الصوم لم يكن يحل للمسلم أن يباشر أو يأكل أو يشرب لو نام الصائم بعد إفطاره.. فإذا صحا بعد نومه من الليل ـ ولو كان قبل الفجر ـ لم تحل له المباشرة كما لم يحل له الطعام والشراب.

وقد حدث أن بعضهم لم يجد طعامًا عند أهله وقت الإفطار فغلبه النوم. ثم صحا فلم يحل له الطعام والشراب فواصل إلى الحد الذي بدت فيه المشقة في أخذ المسلمين بهذا التكليف فتلطف الحق تعالى بعباده.. فأنزل هذه الآية التي تحل لهم المباشرة ما بين المغرب والفجر.. إلى جانب حل الطعام والشراب.

ولكن السياق هنا يرتفع بالعلاقة الزوجية عن معنى الحيوانية الهابط وذلك قوله تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾.

(١) البقرة: ١٨٧ .

فكلاهما ستر للآخر.. على النحو الذي يجعل منهما كيانًا واحدًا.. وحين يستر عيب صاحبه كزنه يستر عيبه هو.. ويحفظ وده حفظًا يصيران به روحًا واحدة تسكن جسدين.. تتم المودة بينهما عندما يقول أحدهما للآخر: يا أنا!!

ولعلنا ندرك سرًا من أسرار لغتنا الجميلة حين تسمى الفتى ليلة عرسه عروسًا.. والفتاة كذلك.. عروسًا. وحين تطلق على كل منهما لفظ.. «زوج».. حتى إذا نطقت بالاسم شمل الاثنين وفي نفس اللحظة.

وتبدو الرحمة الإلهية التي لم ترهق الصائمين من أمرهم عسرا: فالخالق سبحانه يعرف ما قد تجره مخالطة الزوجين من إثارة للشهوة.. فأباح المباشرة بالليل تقديرًا لطبيعة الإنسان.. هذا التقدير الذي صار درسًا للدعاة.. كي يعينوا الواقعين تحت وطأة الذنوب.. حتى يتوبوا.. لا أن يكونوا سوط عذاب يضاعف من آلامهم.

وإذ يحل تعالى المباشرة.. فإن ذلك مما يفرض على المسلم أن يستهدف بها ما أراده الله تعالى من الولد الصالح الذي يمتد به العمر.

وحين يبيح سبحانه وتعالى الأكل والشرب فإنه يبيحه إلى أن يشرق الفجر.. ثم صوموا إلى أن يجيء الليل ولا تواصلوا حتى ترهقوا أنفسكم.. إرهاقًا يذهب بحكمة الصوم.. وهنا تظهر حكمة تحديد مدة الصوم لتحقق العبادة غاياتها مع بقاء الصائم مستعدًا لصوم يوم جديد بمزاج معتدل وقلب سليم.

فإذا حدث وقررتم الاعتكاف .. فلا مجال للمباشرة حينئذ.. لتتيحوا بهذا الزهد وقتًا للنفس تتصل فيها بربها بعيدًا عن زخرف الدنيا.. ولتستطيع

مدة الاعتكاف أن تتذوق معاني في الصفــاء لا تستشعرها لو أخلت بواجبات الاعتكاف . .

وتلك حدود الله . . فلا تقربوها . . اجعلوا بينكم وبينها مساحة؛ حتى لا تسقطوا في الحرام . . واغتنموا فرصــة نعمة بيان ما أحل الله وما حرم . . لتشكروها بالتقوى التي تقف بكم على ربوة النجاة .



الليلة المباركة

﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

أقسم الحق تعالى بالكتاب المبين.. وكما يقول المفسرون: «إن القسم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف»[2].

وتطالعك من خلال الآيات الكريمة جوانب من هذا الشرف.. فهو الكتاب.. ولا كتاب سواه.. فحكمه العدل. وقوله الفصل. ومنه تشع أنوار الهدى.. لتبين للحيارى سبل السلام. وكان نزوله في ليلة مباركة. ومن بركتها ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. فصلت فيه الأمور تفصيلا.. وذللت قطوفها تذليلا.. فبان الحق.. وبان الباطل.. وتلك أعظم منة الله تعالى على الإنسانية.

إن مشكلة الأمم اليوم هي: اختلاط الأوراق.. وتداخل الأمور فيما يشبه الضباب المانع من رؤية الحق.. وخلال هذا الضباب الكثيف يمارس المبطلون هواياتهم المفضلة في إضلال الآخرين. فلما نزل القرآن الكريم.. من أفقه العالي.. بدد الظلام.. فزهق الباطل.. فكان هو الفرقان الذي أنقذ الإنسان من براثن الطغيان.

وإذن.. فقد كان نزوله في ليلة مباكة حقًا.. ليلة وضحت فيها

(١) الدخان: ١ ـ ٦ . (٢) الفخر الرازي .

المعالم.. فلم تذهب طاقات الناس بددًا.. وإنما تفرغ كل لما كلف به، ولم يشغله ما تكفل به الله تعالى به.

وكما قيل حقًا: «إنها لمباركة حقًا تلك الليلة التي يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية. والتي يبدأ فيها استقرار المنهج الإلهي في حياة البشر والتي يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة في هذا القرآن ترجمة يسيرة تستجيب لها الفطرة وتلبيها في هوادة وتقيم على أساسها عالمًا إنسانيًا مستقرًا على قواعد الفطرة واستجاباتها متناسقًا مع الكون الذي يعيش فيه. طاهرًا نظيفًا كريمًا بلا تعمل ولا تكلف. يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولاً بالسماء في كل حين»[1].

ويلاحظ هذا الاكتفاء بوصف النذارة دون البشارة التي يأتي في العادة مقارنًا لها.. وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ذلك بأن الأمر على غاية الأهمية فقد كان الظالمون على غاية التمرد والغفلة. فكانت النذارة وحدها صوت النذير يحركهم من رقادهم بقوة تنتزعهم من ضلالهم انتزاعًا.. إنه الحزم الذي يقسو على المريض أحيانًا.. لا يريد تدميره بقدر ما يريد إيقاظه..

ولهذا كانت النذارة بالقرآن رحمة من الله السميع العليم.. تبصر الإنسان بعيوبه.. ثم بعاقبة أمره. ليحس.. ثم لينهض نافضًا عنه صدأ العناد.. ويالها من رحمة مهداة من رب العباد.. لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا.

(١) في ظلال القرآن.

ليلة.. ارتفع بها قدر الإنسان

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ *﴾(١).

لأن الله تعالى يقدر الأمور في ليلة القدر ويفصلها تفصيلا.. فهي لذلك: الليلة ذات القدر العالي والشرف الرفيع.. ومن مظاهر هذا الشرف: أن الله تعالى أنزل فيها القرآن.. فصارت به أثمن حلقة في سلسلة الوجود..

وحين نتأمل في السورة المباركة.. أبعاد هذا الشرف فإنا واجدون فيها عجبًا. فضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ مشعر بعظمة القرآن الكريم، المرودة إلى عظمة منزله سبحانه وتعالى.. هذا القرآن الذي لم يصرح باسمه في الآية الكريمة.. تنويهًا به وإشعارًا بأنه غني عن التعريف بما له من خصائص.. تجعله الكتاب ـ ولا كتاب سواه.. مما يفرض على الأمة أن تحسن صحبته تلمسًا لأقباس من هذا الشرف العظيم.. واحتكامًا إليه فيما يحدث لها من أقضية. ولقد نزل القرآن العظيم بالليل.. ولم ينزل بالنهار: ولليل إذا سجى خصائصه: ففيه انقطاع عن الشواغل ونسبة الرهبة في القلب أشد.. بالإضافة إلى جو الصفاء.. الذي يتيح لمنافذ الإدراك في النفوس أن تتفتح على ما في الكون من آيات. يشير إلى هذا قوله تعالى

(١) سورة القدر .

لَيْلاً ﴾. ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾. ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾.

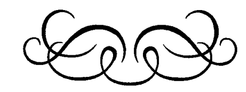
ولعل في هذه اللفتة الكريمة ما يلقي على المسلم حيال القرآن عبئًا ثقيلاً. ليقرأه على مكث.. وفي لحظات الصفاء الخصبة.. وحين تنازعك الأشواق لتستقبله بعقلك وقلبك معًا.. فإذا أنت منه في روض مونق. وفيها أيضًا ما يلفت نظر الأمة إلى ضرورة المكان المناسب والزمن المناسب لبحث القضايا المصيرية... التي نظلمها حين نبحثها على عجل.. وفي صخب تغيب في دوامته أصوات الحكماء. وإنها لليلة مباركة حقًا.. تلك التي هي خير من عمر مشحون بالعبادة..

وإذن فهي فرصة المؤمن الراغب في المزيد من العبادة: ليجعل ساعته يومًا.. ويومهُ عامًا.. وعمره أعمارًا..

إن هذا الحجم الصغير.. يمكن بالعبادة ـ أن يكون شيئًا مذكورا.. لقد جعل الله الصلاة في الحرم.. بمائة ألف في غيره.

وتقرأ سورة الإخلاص.. فكأنما قرأت ثلث القرآن.. فلنحاول أن نجعل من حفنة التراب.. كائنًا يلامس السحاب.. ولنبدأ رحلة العودة.. إلى البيت الذي اتخذناه مهجورا.. وها هو ذا البيت يبدو قريبًا.

وأبرح ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الديار من الديار.



الفتح المبين

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا * ﴾(١).

كان فتح مكة نصرًا من الله تعالى مؤزرًا.. بالسلاح الماضي والحجة الدامغة معًا.. ولقد جاء في أوانه.. فكف الله به بأس الذين كفروا.. وزالت دولة الشرك.. فزالت معها الحواجز المانعة.. فتدفق النور إلى فجاج الأرض جميعًا.. فدخل الناس في دين الله أفواجا.

وإذن.. فاستقبل هذه النعمة العظمى بما هي أهل له: من تنزيه الله تعالى.. الذي يسر لك مالم يكن يخطر على بال بشر.. ثم بحمده على هذا النصر الذي جاءك في ميقاته المعلوم.. حيث توفرت أسبابه. وكل ما قدر الحق تعالى من الأزل.. سيكون في موعده..

وإذا كانت النفوس أحيانًا تستيئس فتستبطئ النصر المأمول بدافع العجلة التي هي طبيعة الإنسان.. فإن واجبك الاستغفار من مثل هذا الخاطر [هضمًا لنفسك واستقصارًا لعملك] وإيمانًا بأن ربك لن يودعك.. وإنما هي قضية الابتلاء.. ليميز الله الخبيث من الطيب.

وتأمل كيف قدم السياق [الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس فذكر أولاً من الخالق أمرين: أحدهما: التسبيح. والثاني: التحميد.

ثم ذكر في المرتبة الثالثة: الاستغفار وهو حالة ممزوجة من الالتفات

(١) سورة النصر.

إلى الخالق وإلى الخلق]. وهو منهج في العبودية شعاره: [ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله] وهو منطق أعلى كما يقول الرازي من قولهم: [ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده].

وهكذا مع كل انتصار.. يكون التسبيح والحمد والاستغفار.. وإن ناسًا نسوا الله في نشوة انتصارهم الذي نسبوه إلى أنفسهم.. فأذاقهم الله لباس الخوف.. بما أخلفوا الله ما وعدوه.

فليبق الفتح المبين دليلاً على الطريق بما حفل به من دروس منها: ظهور قيمة العفو عند المقدرة وآثارها البارزة في تصفية النفوس من أكدارها. ثم ما كان من تواضعه (ﷺ) حين دخل مكة خاشعًا.. خافضًا رأسه.

وتبرز قيمة المساواة حين دخلها وقد أردف أسامة بن زيد وهو ابن مولى رسول الله (ﷺ).. ولم يردف أحدًا من أبناء هاشم.. ولا من أشراف قريش. وحين أرادها بعض المتحمسين ملحمة تتفجر فيها الدماء.. أرادها الرسول (ﷺ) مرحمة تصان فيها الدماء.. وفتحت قريش أعينها على هذه القيم الرفيعة.. فدخلوا في دين الله أفواجا.. ثم صاروا من بعد جندًا للحق.

إن فتح مكة لم يكن فتحًا عسكريًا بالمعنى المعروف اليوم.. بل كان قبل ذلك فتحًا للقلوب.. التي ولدت به من جديد.. فأحياها بعد ممات.. وهكذا يظل الإسلام.. دين السلام.. وأين منه اليوم ما نراه ونسمعه عن جبارين.. ثارت أممهم لتناقشهم الحساب.. فسالت الدماء أنهارًا.. ليبقى الجلادون على كرسي محمول على جماجم الضحايا.. فإلى الإسلام.. إلى دين السلام.

نعمة الرسالة

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1].

تحدثت الآية السابقة عن رحمة الله تعالى.. والتي وسعت كل شئ.. وفي طليعة الفائزين بها: بنو إسرائيل إذا هم أدوا حق الله تعالى.. بالتقوى.. وحق الإنسان بالزكاة.. صادرين في كل ذلك عن عاطفة إيمانية جياشة بآيات الله سبحانه وتعالى.. متبعين الرسول الذي يبلغهم عن الله تعالى ما كلفه بإبلاغه.. يعينهم على ذلك الإيمان أمور:

١ ـ فهو أمي.. ومع ذلك يتربع على قمة الكمال العلمي والنفسي وتلك معجزة من شأنها أن تلوي أعناقهم لتخضع لها.

٢ ـ بالإضافة إلى أنه مذكور عندهم في التوارة والإنجيل ولا ينبغي إنكار الشمس الطالعة في وضح النهار.

(١) الأعراف: ١٥٧ ، ١٥٨ .

٣ ـ وهو مذكور في الكتب السابقة بوصف كونه منقذهم من الضلال.. وهاديهم إلى الله تعالى:

أ ـ يأمرهم بالمعروف الذي تحكم الفطرة الصافية بحلّه.

ب ـ وينهاهم عن المنكر المرفوض من قبل هذه الفطرة النائية بطبعها عنه.

جـ ـ والواقع شاهد بذلك: فها هو ذا يحل لهم الطيبات.. ويحرم عليهم الخبائث.. فكان ذلك دلالة على أنه الدين الحق.. من حيث كان التعبير الصادق عن النفخة الإلهية التي صار بها الإنسان إنسانًا.

د ـ ولقد خفف عنهم مشقات ضربت عليهم ليلاً طويلاً.. ويفرض عليهم الوفاء أن يشكروه.. لا أن يحاربوه.

فالذين شكروا هذه النعمة فآمنوا بالله تعالى.. وعظموا رسوله ونصروه.. وأخذوا سبيلهم على ضوء نوره الكاشف.. أولئك هم المفلحون.. أما الذين أداروا ظهورهم له .. وكذبوه.. فقد جنوا على أنفسهم..

ومهما ضللوا.. فإن ذلك لا يخفي الحقيقة التي أمر الرسول بإعلانها وهي: أنه رسول الله إلى الناس جميعًا.. ولو كره المضلون.. ومنه تعالى يستمد العون على مواصلة الجهاد.. فهو سبحانه القادر على نصره.. فالأرض جميعًا قبضته. والسموات مطويات بيمينه.

ومن مصلحة البشير أن يذكروا هذه الحقيقة الحاملة على اتباع النبي الأمي الذين يؤمن بالله وكلماته: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وظيفة الرسول

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

لا يعرف قيمة النور إلا من عاش في الظلام زمنًا طويلاً.

من أجل ذلك كان المؤمنون أكثر الناس إدراكًا لنعمة الرسالة التي جاءهم بها محمد (ﷺ) نورًا وهدى.. بعدما عاشوا في غياهب الجهل دهرًا طويلاً.. والآية الكريمة تمن على المؤمنين خاصة بنعمة إرسال محمد (ﷺ).. لأنهم المنتفعون بهديها.. الشاعرون بالفرق الهائل بينما كانوا فيه.. وما صاروا إليه..

وإن إحساسهم بالنعمة الجزيلة ليزداد.. لماذا؟

١ـ لأنه بدأ رحلته المجيدة من بينهم.. من أرضهم.

٢ ـ ثم هو من جنسهم:

أ ـ عربي مثلهم.. يفهمون كلامه بيسر.

ب ـ ثم إنهم عايشوه.. فلمسوا عن قرب ما كان يتحلى به من عظيم الأخلاق.

جـ ـ أي أن دلائل عظمته وأحقيته بالرسالة لن تكلفهم مشقة البحث عن أهليته.. فهي متاحة بين أيديهم.

(١) آل عمران: ١٦٤ .

د ـ ثم هو من أنفسهم.. من أشرفهم نسبًا.. ومن شأن سليل الشرف العالي أن ينزه نفسه عن النقائص.. ولو حاول الكذب ما طاوعته نفسه.

ثم هو يبذل فطرته النقية.. فإذا قال صدق.. وإذا وعد لم يخلف.

٣ ـ ولقد جاءهم بمنهج كامل في نفسه.. ومن شأنه أن يجعل منهم خير أمة أخرجت للناس:

ومن خصائص المنهج:

أ ـ يتلو عليهم آيات الله.. فيغسل أسماعهم من فاحش القول.. وما ألفوه من القيل والقال.

ب ـ ثم يقود حملة التطهير إلى أعماق القلب البشري.. فيزكيه.. ويطهره من علل الباطن: من الكبر، والحقد، وسوء التدبير، وسوء الاعتقاد..

جـ ثم يعلمهم ما في الكتاب من مبادئ سامية.. تحلية لهم. بعد تلك التخلية.. ينفضون بها عن عيونهم آثار نوم طويل.. وغفلة أضاعوا فيها أيامهم في محبة العاجلة.

وما أعظمها من نعمة إذا تصورنا النقلة الهائلة التي تمت بها: فلقد كانوا من قبلها: غارقين.. في.. ضلال.. عميق.. عميق.. ثم هو ضلال بلا حدود.. شمل مساحة النفس كلها.. ثم هو بين. ظاهر لكل ذي عينين.. فلما جاء محمد (ﷺ): انتشلهم من هذا القاع..، وطوى ستار ليل بارد طويل، فتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً، والذي كان انقسامًا، صار ودًا ووئامًا، والذي كان خصامًا.. صار أعمالاً جسامًا.

الرحمة المهداة

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾(١).

كانت رسالته (ﷺ) رحمة مهداة. ونعمة مسداه حتى بالنسبة للكفار:

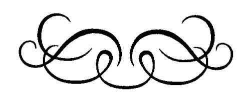
فقد أمنوا به مما عذب الله تعالى به الأمم السابقة: من عذاب الخسف، والمسخ، وعذاب الاستئصال، فعاشوا في ظل من رحمته (ﷺ).. تلك الرحمة التي بلغت الذروة بحقيقة التوحيد: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

لقد كانوا يعفرون جباههم للحجر.. وللشجر.. وللبشر. فبلغ بهم الهوان أن عبدوا من هو أقل منهم قدراً.. فمرغوا بإنسانيتهم في التراب. فجاءهم (ﷺ) بالتوحيد.. يرفع به جباههم لتكون كما خلقها تعالى.. عالية سامقة، وليحميهم في نفس الوقت من تمزق النفوس التي توزع ولاءها في كل اتجاه.. ولا تستقر على حال من القلق.. وحين يدعوهم إلى ما ينقذهم لا يفرضه عليهم فرضًا.. وإنما يجعل الأمر إلى اختيارهم. ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾؟

(١) الأنبياء: ١٠٧ ـ ١١٢.

فـإن تولوا يا محـمد . . فـقل : لقد صـرنا في معـرفة الحق سـواء . . وانتهت مهـمتي عند هذا الحد . . واقفًا عند حدود بشـريتي . . فلا أدري ما يفعل بي ولا بكـم . . فلا وصاية لي عليكم . . وإنما عـلى البلاغ وعلى الله الحساب . ﴿ **إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ** ﴾ .

وإذا سـول لكم شـيطانكم أن بقـاءكم أغنيـاء . . سـالمين . . ظافـرين أحـيانًا . . دليل عـلى إفلاتكم من قـبـضة القـدر . . إذا سـول لكم ذلك . . فاعلمـوا أنكم واهمون . . فلعل تأخير العـقاب يكون ابتلاء . . ومتـاعًا إلى أجل محدود قريب ، تنالون فيه جزاءكم المرصود على ما قدمت عقولكم من خرافة . . وقلوبكم من حـسد . . وعندما يحين وقت عقـابكم فهو نازل بكم لا محالة . ﴿ **قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ .



شهر القرآن

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

إذا كان الإنسان قد ولد بالقرآن ميلادًا جديدًا فقد وجب عليه أن يشكر هذه النعمة التي وجد بها نفسه بعد أن كانت من قبل ضائعة في ضلال مبين.

ومن صور الشكر صوم شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن.

إن القرآن كتاب الله تعالى.. والصوم من دون العبادات كلها له سبحانه وحده.. ومن ثم كان من التوافق والتوفيق أن نشكر النعمة بما يناسبها.. ويمكن لنفائلها في النفوس.. كل الناس..

بل إنه في باب الهدى بالمقام الأسنى.. الذي لا يبقي عذرًا لإنسان.. إلا أن يستكبر استكبارًا يتجاهل به دلائل الهدى التي تأخذ بحجزه إلى الخير.. لكنه لا يريد! ويكفي أن الله تعالى فرق به بين الحق والباطل.. فأبصر الإنسان طريقه.. وخرج من عتمة الضلالة إلى حيث النور والحياة. وتقضي شريعة العدل أن نشكر هذه النعمة بما حدده المنعم سبحانه: فمن كان حاضرًا واستيقن من رؤية الهلال فليصمه..

(١) البقرة: ١٨٥ .

لكن المشرع العظيم حكيم أيضًا حين قدر علة المريض.. وظروف المسافر فأباح لهما الفطر تيسيرًا.. إلى أن تحين الفرصة من قضاء ما عليه..

وفي حالتي الصوم والفطر معًا تلمح مظاهر التيسير في شرع الله تعالى.. لينعكس من هذا التيسير على خلق المسلم قبس من سماحة القرآن.. هذا الخلق الذي يصبح ثمرة من ثمرات الصوم.. والذي يرطب جفاف المعاملات الإنسانية..

إلى جانب ما يحصله الصائم من فضيلة الشكر.. شكر المنعم سبحانه.. على نحو يجعل من الاعتراف بالجميل في علاقات المسلمين دينًا واجب السداد..

وياليت الصائمين يعلمون.. كيف يهب الله تعالى النعم.. ثم يشكرها. وكيف يخنس الإنسان الكنود.. فينسى النعمة.. ويتجاهل الجميل يقدم إليه.. ذاكرًا في الحالين نفسه التي تواتيها اليوم فرصة العودة إلى الله تعالى.. ذاكرة.. صابرة.. شاكرة...فهل تعود؟



التربية القرآنية

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[1].

أنزل الله تعالى القرآن متلبسًا بالحق.. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ ﴾ فلما هبط إلى الأرض ظل كذلك حقًا.. لا تطوله مؤامرات التحريف وذلك قوله تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

وإذن.. فالحق لحمته.. وسداه.. فلا تشغل نفسك بما لم تكلف به.. وارصد كل طاقاتك لوظيفتك التي هي: البشارة والنذارة، بهذا القرآن الذي كان نزوله منهجًا للتربية ليعينك الله تعالى به على صياغة خير أمة أخرجت للناس...

لقد أنزل عليك الكتاب مفرقًا.. يلاحق كل يوم ما أحدث الناس من أمور.. يقول فيها فصل الخطاب.. الذي يميز به الله بين الحق والباطل.. فخذ الناس بهذا المنهج المكيث الحكيم: فاقرأه وأمتك معك على مهل، فإن ذلك أيسر للحفظ، وأعون على فهم عميق لمراميه..

إن الذين يمضغون ألفاظ القرآن، مقصرون في حق القرآن.. وليت الذين يمسكون بالمصحف لائمين غيرهم بالتقصير.. ليتهموا أنفسهم بالظلم

(١) الإسراء: ١٠٥ ـ ١٠٩ .

حين يتعاملون مع القرآن بلغة الأرقام.. فالأهم عندهم كم يقرؤون.. وليس مهمًا: كيف يقرؤون.. وهذه الكيفية هي الأساس في تربية الناس..

وأعظم من السباق في قراءة القرآن.. أن تتوقف أمام الآية لتستخرج من بحورها ما لذ وطاب من قيم الإيمان... ولقد نزل الحق تنزيلاً.. وعلى المدى الطويل.. ليتسرب منه إلى أعماقنا رحيق يسري في دمائنا.. فإذا أقوالنا.. وأفعالنا عليها من عزة القرآن دليل.

وها هو ذا القرآن يعلن عن نفسه.. وعن منهجه في التربية.. فهل أنتم فاعلون؟ آمنوا به.. أو لا تؤمنوا.. لا بأس، فالقرار قراركم.. وإيمانكم به لن يزيد القرآن كمالاً.. كما أن تخيلكم عنه لن يلحق به نقصًا..

ويكفي أن الله تعالى يسره لمن هو أفضل منكم من العلماء فآمنوا به.. بل انفعلوا به: ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾.



المال والتربية القرآنية

يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾(١).

حين يدرك المسلم أن بسط الرزق وقبضه ظاهرتان مـردودتان إلى مشيئة الله عز وجل.. فـإنه سيريح ذهنه المكدود.. وأمله الممدود من إذلال نـفسه في سبيل صـفقة.. لا يملك وسائل تحـقيقهـا.. ليعود بنشاطه إلى حـجمه المقدور لـه.. عاملاً في حـدود طاقتـه. غيـر متـجاوز بالآمال وشـطحات الخيال.

وإذا كان طبـيعيًا أن تشـغل قضيـة الرزق الإنسان حيثـما كان إعفـافًا لنفســه.. وكفاية لحاجـته.. فلا ينبغـي أن يلهيه التســابق المذعور عن حق المسلمين عليـه، لكن المال عزيـز على الإنسان... ومن ثم فـالأيدي الندية بالعطاء قليلة..

من أجل ذلك تحرض الآية الكريمة الفقـراء والأغنياء جميعًـا لينفقوا.. ويسابقـوا.. وهي في تحريضـها على الإنفاق تسـقط الحواجـز المانعة والتي تمسك يد الفقير.. والغني على سواء. فـقد يمتنع الفقير عن البذل حين يرد الحياء يده تحت وطأة الشعور بضآلة المبذول...

---

(١) سبأ: ٣٩.

وكأن الآية الكريمة تقول له: ما أنفقت من شيء - مهما كان قليلاً ضئيلاً - فهو مقبول: ربما كان قرشك البسيط رغيفًا يسد الجوعه.. أو حبة دواء تسكن الألم.

ثم إن الإسلام يرحب بكل بادرة في اتجاه الخير.. فيمسك بها.. ثم يصلها بالواقع.. لتقوى بالممارسة اليومية.. ثم تصبح عادة محببة إلى النفس... وإلا.. فلو استقل الفقير ما ينفقه فأمسك فإن هذه الرغبة في الإنفاق سوف ترتد حسيرة إلى الداخل. فلا ترى النور..وحينئذ فسوف تموت دوافع خير لم نمكّن لها في نفوسنا .. وعلى هذا الفقير.. أن يذكر أخًا له على طريق الخير.. سقيا كلبا فغفر الله له.

وعاد الرجل الذي كان عودًا تحرى لحاؤه.. وكاد أن يكون حطبًا للنار. عاد بهذه اللفتة اليسيرة غضا.. يأخذ بالإنفاق سبيله إلى جنات عدن.

أما فيما يتعلق بالغنى: فقد يمسك الحرص يده.. فلا يبسطها بالعطاء.. ذلك بأن حياته قائمة على الجمع والطرح.. فلو تصدق بمائة مثلاً فسوف تصبح الألف تسعمائة؟!

وتصوره لزملاء السوق الذين تربو أرصدتهم في البنك .. سوف يقضي على كل أمل في الإنفاق..

ولكن الآية الكريمة تملأ وعيه بهذه الحقيقة: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ مهما كان كبيرًا غاليًا .. فإن الله تعالى يعوضه.. ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ نعم قد تختفي المائة من جيبك. إلى جيوب الآخرين.. ولكن ما رأيك في مودة تنبعث من قلوب هؤلاء إلى قلبك الذي يتلقاها راضيًا سعيدًا؟ وأين ثروة الجيوب.. من ثروة القلوب؟

ثم. إن ما تنفقه من جيبك سيصير جنودًا تقف إلى جانبك ومن بين يديك ومن خلفك.. وبهذه الشعبية تذلل أمامك الصعاب.. فإذا أنت تضيف إلى ثروة الرجال.. ثروة المال.. واذكر جيدًا إن كان في قلبك بقية من مقاومة.. إذكر أن الله تعالى هو الذي خلق الثروة.. وهو الذي أعانك على استثمارها.. وما أنت فيها إلا خازن أمين..

وتلك نعم يمن به عليك: ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سبحانه وتعالى لتنعكس على طبعك من هذه الخيرية أقباس يصلح الله بها من أمر الناس.. بما تعطيه من مال وجهد تشكر عليه. الذي اختصك بهذا العطاء سبحانه شكرًا تسعد به عياله تعالى من الخلق.. وسوف يولد شكر النعمة.. نعمًا أخرى.. تؤكد كيف كان الإنفاق بذورًا وضعتها في تربة خصبة.. فصارت جنات وحب الحصيد..



من ثمرات الكلمة الطيبة

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1].

في مجال الطاقة يقولون: يمكن تسليط شحنة كهربيه على غاز خامل فتتولد منه «إلكترونيات» يمكن استخدامها في الحياة..

وفي المجال الإنساني يمكن أن نقول: إن تمثل كلمة التوحيد بالعقل والقلب.. قادر على أن يخلق في الإنسان طاقة فاعلة تعيد تكوينه من جديد. وإذا بالغرائز التي تمزق الإنسان.. إذا بها ـ كما قيل ـ تغير اتجاهها: تصبح نزعة التملك لعمارة الحياة.

ويصير العلم نورا يكشف.. لا نارًا تحرق.. وإذا القوة ديديان يحرس الحقل.. بدل إيذاء الخلق.

* ومعنى ذلك أن عقيدة التوحيد في قلب المؤمن تصبح قاعدة الإنطلاق إلى الرخاء. هذا ما يشير إليه نسق الآية الكريمة التي توضح خصائص الكلمة الطيبة بعامة.. ثم كلمة التوحيد بخاصة.

إنها كلمة مركبة من حروف. لكنها كشجرة. بكل ما تشير إليه من خضرة. ونضرة.. وجمال.. ثم إنها طيبة.. مثمرة.. منتجة..

(١) إبراهيم: ٢٤، ٢٥.

والطيب هو: الحلال.. الذي تستلذه الحواس. وهو الطاهر.. الزاكي.. المبارك..

قال تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [1].

أي أن الأعمل الطيبة تكون من الطيبين كما روي: إن المؤمن أطيب من عمله، والكافر أخبث من عمله.

ثم إنها ضاربة الجذور في أعماق الأرض.. فهي ثابتة.. دائمة العطاء تستمد من الأرض غذاءها.. وفي السماء كذلك.. من حيث كانت سامقة فرعها في السماء.. تأخذ حظها الوافر من الهواء والضياء.

وليست هي موسمية تعطيك الثمار بين الحين والآخر. ولكنها تعطيك كل حين

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾. وأجمل ما فيها.. أن عطاءها بإذن ربها.. تلطفًا بك وشفقة عليك. وتقديرًا لك.

ومن تمام لطفه سبحانه وتعالى بالناس.. كل الناس أنه يضرب لهم الأمثال.. لعلهم يتذكرون..

إن فطرة التدين ولدت معهم.. وحقائق الإيمان مركوزة في طباعهم.. لكن غاشيات الهوى قد تضرب عليهم ستار النسيان فينسون.. وهذا هو الحق سبحانه يتلطف بهم.. فيذكرهم.. بما يحملون في كياناتهم من عناصر الهدى.. فهل يستجيبون.. ويتذكرون؟

إن المؤمن بكلمة التوحيد.. ثم بكل كلمة طيبة يرطب بها لسانه

---

(١) النور: ٢٦ .

يستطيع أن يكون شيئًا مذكورًا.. عزيزًا... يستطيع أن يكون سلعة غالية الثمن.. فلا يبيع نفسه إلا للقادر على دفع الثمن سبحانه وتعالى..

وكما يقول جلال الدين الرومي: [إن سلعتك التي لا يرغب فيها مشتر قد اشتراها الكريم تكريمًا وتفضيلاً. إنه لا يرفض قلبًا من القلوب إنه لا يقصد الربح].

وإذ يضرب الحق تعالى الشجرة مثلاً.. فإن قلب المؤمن بكلمة التوحيد.. ولسانه بالكلمة الطيبة يكون أزكى.

إن الحدائق: تبطئ في الثمار.. وتسرع في الفناء.

وقلب المؤمن: يسرع في النمو.. ويبطئ في الزوال. فليصعد من الثرى.. إلى الثريا. وليصعد من التراب.. إلى رب الأرباب!! ليصبح عندئذ: شمسًا.. لا ينتابها الأفول. وزهرة.. لا يعتريها الذبول.



من سمات الأبرار

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾[1].

عندما تلصق زهرة ناضرة بشجـرة ذابلة.. فإن ذلك لن يجعل الشجرة الضامـرة.. مزهرة!.. إن هذه الفروع الذابلة في حـاجة إلى وابل من المطر يحييها بعد مماتها.. لتأخذ سمتها. مع غيرها من أشجار الوادي. وهذا مثل منهج الإسلام في إحياء النفوس التي توشك بالحرمان أن تموت.

كان ذلك المنهج على قدر قامتها رافعًا من قيمتها. فُصل عليها تفصيلاً انسـجم مع طبيـعة الـفرد وطبـيعـة المجتـمع. فلم يكن هناك تبـاغض ولا تناقض.. وإنما الود بعد الخصام.. والوئام بعد الانقسام.

والآية الكريمة خط من خطوط المنهج الإسلامي الرامي إلىٰ التوافق بين الواجدين والفاقدين وصولا إلى هذا الود المنشود.

فالمحـروم في حاجـة إلى الطعام.. والأمن مـعًا. وواجب الأبرار أن يطعموا الطعـام. على أن يكون الطعام له قيمـة عند صاحبه. بل إنه ليـحبه حبًا تمكن من قلبه كما يفيد الحرف ﴿ عَلَىٰ.. حُبِّهِ ﴾.

ثم يأخذ المال سبيله إلى نقاط الضعف في الصف المؤمن. وإلى مواطن

(١) الإنسان ٨، ٩.

الخلل فيه حتى يستوي الصف على سوقه. وما أكثر الموائد الحافلة بأطايب الطعام. وليس لها في ميزان الإسلام حساب.

ولنتصور ذلك المسكين أكل.. فشبع.. فهل انتهت معه مهمتنا؟ أبدًا.. إنه في حاجة إلى إشباع نفسه الطامحه إلى التكريم الأدبي:

لقد رأه الصغار في البيت يأكل أفضل مما يأكلون.. وخارج البيت أيضًا ترقبه أعين الطفيليين.. فلنقف إلى جانبه لنطرد عنه خواطر الهوان:

وذلك ما تكلفت به الآية الكريمة في نصفها الثاني: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ إننا لا نطعمكم طلبًا للثناء من أحد. كما أننا لا نرضي غرور أنفسنا.. ولا نزعة الإستعلاء فيها. وإنما هو عطاء.. خالص.. وشكر.. على نعمة أقدرنا الرزاق عليها حين منحنا وسائل تحصيلها. وقبل ذلك منحنا الجود نفسه.

وإذا كان الخلق جميعًا عيال الله تعالى.. فقد أصبح الطعام أمانة يتعاورها البشر. ولا ملك هناك لأحد. ولا منة لأحد على أحد. ولقد كانت السيدة عائشة ﵂ تبعث بالصدقة إلى أهل بيت. ثم تسأل المبعوث عما قالوه. فإن ذكر دعاء.. دعت لهم بمثله. ليبقى ثواب الصدقة خالصًا لها عند الله تعالى. ولا تتم الصدقة كما لا حتى يقول المطعمون في مواجهة الطاعمين. ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ ليخرج المضيف من القضية بالكلية. فلا وجود له هنا.. إلا أن يكون واسطة في إيصال الحق إلى ذويه.. وإذا كان من جزاء.. فمن الله.

وما يكون من شكر فلله تعالى.. الذي رحم عبده الغني فحماه ـ عن طريق هذا المسكين ـ من القسوة وهي أعتى أمراض القلوب.

بهذه الضـيافة.. فـالفضل لله ثم لكم أيها الآكلون. وصـدق الرسول الكريم حين وصى رجلاً اشتكى إليه قساوة قلبه: «أدن اليتيم منك.. وامسح رأسـه.. وأطعـمـه من طعـامك.. فـإن ذلك يلين قـلبك.. ويقـدر على حاجتك».



الشخصية المسلمة في مواجهة الأحداث

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

الفرح الشديد بما آتانا الله من خيرات. كالحزن الشديد على فقدانها. كلاهما صدمة عصبية قد تسكت نبض قلوبنا.. أمام مفاجآت لم تكن لنا في حساب.

وحماية للإنسان من مضاعفات هذا الإنفعال القاتل في السراء والضراء.. تمسك بنا الآية الكريمة على خط اعتدال حفاظًا على حياتنا قبل أن يذهب بها الانفعال سدى. فما أصابكم من مصيبة.. جلت أوقلت...

في الأرض: جدبًا.. وقحطًا. أو نقص ثمار.. أو غلاء أسعار، أو في أنفسكم من مرض أو هم.. أو حزن. كل أولئك: مثبت في كتاب محفوظ.. لا تناله الأيدي.. ولا مبدل لكلماته ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾. هو ثابت حتى قبل أن يخلق الله تعالى الكون.. واستقرار هذه الحقيقة في القلوب.. من شأنه أن يرطبها باليقين.. والقرار.

فما دام الأمر قدرًا مقدرًا فلنستقبله راضين.. ولنستجب له طائعين.. فما لنا من خيرة في أمورنا.. ولكن الخير فيما اختاره لنا ربنا سبحانه .

(١) الحديد: ٢٢، ٢٣ .

وتعالـى. . فإذ صور الوهم للـناس استحـالة أن تنضبط هذه لأحـداث التي تفوق الحصر في كتاب. فإن لدى المؤمنين الجواب بأن ذلك على الله يسير. . يسير. فليحسن المسلم استقبال الأمور بقلب سليم.

ولا يعني ذلك تحريم الفرح والحزن بقانون. . فذلك ما لا يكون! ذلك بأن الذي خلق القلوب سبحانه. . لم يكن ليرميـها تعالى في البحر. . بحر الهموم مقيدة ثم يمنعها من البلل!

وكما قال ابن عباس ﵄ : [ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن. ولكن إجعلوا للمصيبة صبرًا وللخير شكرًا].

الممنوع إذا هو مـا يدخل في دائرة اختـصاصك: أن يخـرج بك الحزن إلى منطقـة اليـأس على مـا فـات. . لتـصـبح أيامك بكاء على مـاض لا يعـود. . . وأن يدخل الفـرح بالنعمـة في منطقـة الإستـعـلاء والخيـلاء. . والاستكبـار على عباد الله. . ولله في خـلقه أناس نجحـوا في فلسفة الحـياة برؤية إسلامية. . فكانوا في خضم المصـائب أصلب عودًا. . وأجمل صبرًا؛ قطعت يد عـالم عـابد. . وفي نفس الوقت. علم بمـقتل ولد لـه. فقـال: اللهم: أخذت عضوًا. . وتركت أعضاء. وأخذت إبنًا. وتركت أبناء. فإنك إن كنت أخذت لقد أبقيت. . وإن كنت إبتليتنا. . لقد عافيتنا!!

لقد كان الرجل محكومًا بروح القرآن القائل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾.

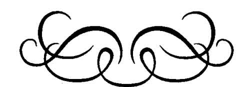
وها هو ذا يحاول أن يعـد نعمـة الله عليه. . فلا يسـتطيع. ثم يطرح منها ذراعه المقطوع. . وولده القتيل فإذا باقي الطرح نعم تستحق الشكر!

إنه لا ينكفئ على مـا مـضى. . بكاء وعويلاً. . لـكنه يركز على مـا

بقى.. فإذا هو من نعم الله في رخاء.. وأكبـر هذه النعم.. ماحباه الله من أصدقـاء.. لا يجاملونه بالـبكاء كما تفـعل النساء. وإنما يـشدون من أزره بالقول السديد: لقد جاءه صديق يعوده فقال له:

إنا لله وإنا إليه راجـعون... والله ما انتظرنا منك الفوز في مـصارعة ولا سباق.. ولقد أبقى الله لنا ما كنا نحتاج إليه منك؛ رأيك وعلمك!

وهكذا يتواصون بالصبر فبقـيت أنفسهم كالمعدن النفيس لا تصدأ أبدًا. وإذا كانت الضربة القوية تفتت الزجاج فإن الضربة نفسها تصقل الحديد!!



خلاف لا يفسد للود قضية

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١).

الأصل في الدعوة أن تكون بالفعل.. قبل أن تكون بالقول.. وبالالتزام قبل أن تكون بالكلام.

لقد كان المسلم يضرب في مناكب الأرض تاجرًا.. فكان بأمانته وصدقه قدوة تسير على الأرض جيئة وذهابًا.. فيراه الجاهلون بالإسلام صورة للأدب العالي.. فيدخلون في دين رأوه واقعًا.. لا جدلا فارغًا يثير غبارًا يحجب الحق فلا تراه الأعين...

هذا هو الأصل وعلى أساسه مضى السلف الصالح.. فكانت بلاغة الصمت.. أقوى من كل دليل. فإذا فرضت ظروف الدعوة الملحة الدخول في جدل يستهدف الحق.. فلا مانع.. بشرط أن يتم ذلك الجدل على أوفى صور الحسن والكمال. وهذا بعض ما يفهم من الآية الكريمة.. وفي ثلاث كلمات منها:

إنها تقول لنا: لا تجادلوا أبناء عمومتكم من أهل الكتاب على صورة من الصور إلا على الصورة التي.. هي.. أحسن..

فلم تقل الآية. «بما هي». بل قالت: ﴿ بِالَّتِي هِيَ ﴾ . و«التي» أصل

(١) العنكبوت: ٤٦ .

في باب الموصولات.. فهي غير «ما» التي تكون موصولة ونافية..

وإذا فالتعبير بها: إشارة إلى ضرورة أن يكون جدال أهل الكتاب على نحو أصيل.. لا دخيل.. جدال يعلو فوق المراء.. والعناد.. وفوق الألغاز.. والمغالطات. وليكن نصًا في المراد.. كما أن «التي» نص في باب الموصول.

وإذا تعددت نماذج الحسن في باب الجدال.. فينبغي أن يكون بالتي «هي» دون غيرها.. أحسن النماذج جميعًا.. بحيث لا يتردد المجادل بين صعود.. وهبوط.. تحت تأثير مزاجه. بل عليه أن يلتزم بالطريقة التي هي.. بالذات.. أحسن الطرق. فإذا تم الحوار على هذا النحو الأصيل.. بقي الود موصولاً.. وبقيت احتمالات العودة إلى مثله قائمة.. غدًا أو بعد غد. إنه خلاف.. ولكنه لا يفسد قضية الود.

فإذا خرج الطرف الثاني عن الخط.. فلجأ إلى الخلط.. فقد وجب على المسلم الملتزم أن ينهي حوارًا يضر ولا ينفع.. ليظل وفيًا لمبدئه في احترام آراء الآخرين والفرار بهم من جدل عقيم لا يخدم قضية الحق.

ومعنى ذلك أن المجادل المسلم الذي التزم بأعلى صور الجمال والكمال.. عليه ألا يقابل السيئة بالسيئة.. فليس ذلك من طبعه.. ولا من وظيفته.. فإذا ظلم الطرف الآخر.. وحاول تحكيم الهوى.. فالحل الأمثل هو: الانسحاب.. ثم إعلان الإسلام الذي به نؤمن بكل رسل الله.. إيمانًا يصير به المسلم شخصية رحبة.. عالمية بل تاريخية.. لا تخضع للهوى المتقلب.. وإنما هي تدور مع الحق حيث دار.. منطلقة من قاعدة راسخة كانت بها شاهدة على الناس.

المحكم والمتشابه

يقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١).

تشير الآية الكريمة إلى أن القرآن آيات محكمات هن أصل القرآن، وأخر متشابهات..

محكمات واضحات لائحات. تضمنت العقائد والعبادات.. والمعاملات وجميع الشرائع المنظمة للسلوك الفردي والجماعي. مما هو نص في موضوعه لا يحتاج إلى تأويل..

أما المتشابه فهو: ما يحتاج في معرفته إلى تأمل وتدبر. فقد تشتمل الآية على أكثر من معنى يدل عليه اللفظ ولا يجد عقلك مرجحًا لبعضها على بعض. وقد تكون الآية وصفًا لجلال الله سبحانه وتعالى.. فلا يستطيع عقلك القاصر تصور كنه العظمة الإلهية..

وقد تساءل الباحثون: لم كان في القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم ولم يكن كله محكمًا يستوي في فهمه كل الناس.. لا

(١) آل عمران: ٧.

سيما وهو كتاب هداية وإرشاد.. والمتشابه يحول دون الهداية؟

وأجاب العلماء بأجوبة تدل على حكمته سبحانه إذ أنزل كتابه محكمًا.. ومتشابهًا من أجل الهداية ذاتها:

لقد كان كلام العرب قسمين:

١ـ ما يفهم معناه سريعًا.. ولا يحتمل غير ظاهره.

٢ـ ما جاء بطريق الكناية والمجاز.. والمعاني فيه متزاحمة. وهذا القسم هو المستحسن عندهم.

فأراد الله تعالى إنزال القرآن بالنوعين تحقيقًا للإعجاز فكأنما يقول لهم:

عارضوه بأى النوعين شئتم.. ولن تفعلوا! على أن احتياج بعض الآيات إلى التأمل وإعمال الفكر باب إلى نهضة علمية يتنافس فيها المتنافسون لتحصيل فنون من العلوم متنوعة تعينهم على فهم كتاب الله تعالى... وإلا.. فلو جاءت كل الآيات ظاهرة المعنى.. لا يستوي العلماء والجهلاء. ولماتت الخواطر بتوقف البحث والاستنباط.

فإن نار الفكر ـ كما قيل ـ تقدح زناد المشكلات والمعضلات ولهذا قال حكيم: عيب الغنى: أنه يورث البلاده ويميت الخواطر.

وفضيلة الفقر: أنه يبعث على إعمال الفكر واستنباط الحيل في الكسب.

وتوضح الآية الكريمة اختلاف ردود الفعل أمام هذه الآيات: فأما مرضى القلوب: فقد أخذوا الموقف الذي ينسجم فلوبهم التي زاغت عن الحق. فأداروا ظهورهم للحقائق الواضحة.. ثم أثاروا الغبار.. في حملة

تضليل.. معتمدين على جهل العامة الذين لا يصدقون بما لا يصل إليه عمبهم ولا تدركه حواسهم. أما الراسخون في العلم فقالوا:﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾

لقد أدركوا ما في النسق القرآني من رحمة بالأمة.. وتنشيط لملكات الخير فيها.. فكانوا كما علمهم الرسول:

ما عرفتم من محكمة.. فاعملوا به. وما جهلتم من متشابهه.. فآمنوا به. ولقد عملوا.. وآمنوا..

أما الزّائغون.. فكانوا أسوأ عملا.. وأكثر زللاً. ﴿مَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾.



في ظلال القرآن المكي
تأملات في سورة الماعون

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذي يُكَذِّبُ بالدِّين * فَذَلكَ الَّذي يَدُعُّ الْيَتيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَام الْمسْكين * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذينَ هُمْ عَن صَلاتهمْ سَاهُونَ * الَّذينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ * ﴾(1).

تمهيد:

كان هناك حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا.. على معنى أن ٣٦٠ حزبًا سياسيًا تتوزع مشاعر الناس حينئذ.. فيعفرون جباههم التي خلقها الله تعالى عالية.. يعفرونها لحجر أصم! فلما جاء محمد (ﷺ) بالتوحيد.. لم يعد لهذه الأصنام وجود. وأصبحت الأمة بحقيقة التوحيد حزبًا واحدًا هو الذي فاز وحده بالفلاح: ﴿ألا إنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ولم يرتفع المسلمون إلى هذه القمة اعتباطًا، أو بالوراثة على نحو ما قال الشاعر:

ونرعى حمى الأقوام غير محرم علينا   ولا يُرعى حمانا الذي نحمي

إن الصدفة.. أو التحكم لا يصنعان مجدًا.. فإذا مات الطبيب فليس من حق ولده الفاشل أن يفرض نفسه طبيبًا.. دون أن يحمل شهادة في الطب.. لابد أن يسير على درب أبيه ويدفع الثمن.

(١) سورة الماعون .

ركائز التقدم:

وقد وضعت السورة الكريمة للوصول إلى القمة ركائز منها تنطلق الأمة إلى الآفاق العليا:

أولاً: تكافل اجتماعي ينشر جناحه على الضعفاء ليأخذوا مكانهم بين إخوتهم عاملين مثلهم.

وثانيًا: صلة بالله تعالى عن طريق الصلاة.. طاعة لله تعالى.. وما تثمره من تعاون على البر.. والخروج من سجن الأنانية ليصبح ما في بيتك وما في جيبك متاحًا وفي متناول يد أخيك المحتاج.

من فقه السورة الكريمة:

ونطالع في مستهل السورة الكريمة هذا التساؤل: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.

ويتوقع خالي الذهن أن يكون الجوب مثلاً: ذلك الذي يقتل نفسًا بغير حق.. أو من يرتكب الفاحشة مثلاً. ولكن الحق تعالى يقول: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ . وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

فالذي يدع اليتيم ينهره.. ويرده.. وكان الدع عادة له يكذب بالدين كله، مفلس بالتالي من كل عناصر الخير... ذلك بأنك باسم الإسلام مكلف بتكريمه. وإلا.. فباسم المروءة والنخوة. فإذا لم تحسن إليه.. وزدت على ذلك أن نهرته وأهنته فلا دين لك.. أو لك دين.. لكنه بلا روح.

مقياس الإيمان:

إن النفوس مجبولة على أن تعطي غيرها مقابل عوض وعلى أنها

تخاف ممن له شوكة وبأس. واليتيم والمسكين.. لا يخيفان.. فلا عوض لديهما يعودان به على من أحسن إليهما. فمن أعطاهما فهو المؤمن حقًا.. ومن منعهما فهو مكذب بالدين وإن نقش اسمه في قائمة المسلمين.

ثم يتوعد الحق سبحانه وتعالى المصلين الذين لم تنههم صلاتهم عن الأنانية والبخل... ومن سمات هؤلاء الذين يتوعدهم سبحانه: أنهم ساهون عن الصلاة.. فهم المنافقون.. وليسوا من الساهين فيها.. كم يحدث للمؤمن أحيانًا.. ثم يجبر بسجود السهو.

منهج علمي في التثبيت قبل الحكم:

وكما يقرر المفسرون: في السورة الكريمة منهج علمي يلزم كل باحث أن يجمع أطراف النصوص في القضية المعروضة ولا يقتصر على بعضها. بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾.بمعنى أنها آية ومع ذلك فهي مرتبطة بالتي تليها. آية مستقلة ولا وقف عليها وإلا فسد المعنى كما قال الشاعر الإباحي:

دع المساجد للعباد تسكنها   وسر بنا إلى حانة الخمار يسقينا

ما قال ربك ويل للأولى سكروا   بل قال ربك ويل للمصلينا

ويلزم المنهج ثانيًا المسلم ألا يشهد على مجرد قول يسمعه إلا إذا قيل له اشهد. أو إلا إذا سمع الحديث من أوله إلى آخره.

موسم الحج وشائعات المغرضين:

وهذا الذي أشارت إليه السورة الكريمة لفت نظر للأمة الإسلامية اليوم. فموسم الحج هو الفرصة الإيمانية التي تعيش فيه أمجد أيامها:

فالكعبة المشرفة قلب الأمة النابض.. وهي ـ كما قيل بحق ـ تسحب الحجيج. من كل فج عميق.. أي تسحب الدم من شرايين الأمة.. ثم لتصبه من جديد في هذه الشرايين.. التي تعود بعد الفريضة محملة بعناصر الحياة الراشدة..

ولكن بعض النفوس المغرضة تتخذ من التفريق وسيلة لإشاعة الخوف والقلق. يخلطون قولاً باطلاً.. بقليل من الحق.. بغية التشويش.. وعلى صورة تطمس الحقائق فلا تظهر بكل زواياها.. لخدمة أغراض دخيلة..

والسورة الكريمة تنذر كل مسلم؟ ويل للمصلين.. ويل للحجاج.. ويل لأي حزب.. ويل لهم جميعًا إذا ااحتطبوا في حبل الشاعر الماجن الذي أسلفنا قوله.. ثم كانوا كهذا الذي إذا رأى حسنة أخفاها.. وإذا رأي سيئة نشرها..

ويفرض علينا التوحيد.. أن نستمسك بثمرته وهي: الوحدة.. هذه الوحدة التي نعيش اليوم أعيادها.. وحرام ألا نستمتع بها.. وإذا كان الحق تعالى في هذه السورة الكريمة يتوعد المرائين: والذين يمنعون حتى المغرفة.. والإناء.. فكم يكون الوعيد بالنسبة لهؤلاء الذين يمنعون لواء الأمن أن يرفرف على الأمة في عيدها الأكبر.. إنهم لأشد جرمًا.. وأكبر إثمًا.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره.

ولنذكر ذلك الرجل المؤمن الذي وهب حجته لمن لم تقبل حجته.. ونتأمل كيف وثقت آصرة الإيمان بين المؤمنين إلى هذا الحد.. الذي وصل فيه الانتماء إلى أمة الخير ذروته.. وإنه لنموذج حي.. يسفه أحلام أناس يظلمون.. ثم يتحدثون عن العدل. ويتحدثون عنه بحرارة بينما يضمون نعجة الغير.. إلى نعاجهم!!

تأملات في سورة الضحى

﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ * ﴾[1].

اشتكى النبي (ﷺ) فلم يقم ليلتين. أو ثلاثًا فأتته امرأة فقالت: يا محمد: ما أرى شيطانك إلا قد تركك. لم يقربك ليلتين أو ثلاثًا. فأنزل الله ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾[2].

لقد كان الموقف شديد الوطأة على قلب رسول الله (ﷺ) لتأخر نزول الحى الذي كان أنس حياته وورووحها..

وزاد من شدته أن امرأة عابثة.. وربما كانت من بنات عمه.. تنوب عن المجتمع الوثني في إعلان الشماتة.. ولكن الوحى الأعلى يقطع الطريق على الأعداء فيسكت نيرانهم التي أججها الحقد الدفين: ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾.

أبدًا.. ما ودعك ربك لا في ليل.. ولا في نهار.. وما أبغضك. ولئن تأخر عطاؤه قليلاً.. ولحكمة.. فهو كائن لا محلة وما تزال عناية الله ترعاك في الدنيا.. بانتصارك.. وإعلاء كلمة الحق.. وفي الآخرة بما هو

---

(١) سورة الضحى.   (٢) متفق عليه عن جندب البجلي.

خيـر وأبقى.. حتى ترضى والواقع خـير شاهد بعطاء ربـك الذي لم يتخل عنك لحظة: [لقـد كان أبو طالب إذا جن الليل وحل وقت النوم يتـركه مع أولاده ينامون. حـتى إذا أخذ كل مضجعـه عمد عمـه إلى واحد من أبنائه فأقامه وأتى بمحمد (ﷺ) ينام موضعه وذهب بولده ينام مكان محمد (ﷺ) حتى إذا كـان هناك من يريد به سوءاً فرأى مكانـه في أول الليل ثم جاء من يريده، بسوء وقع السوء بابنه ويسلم محمد (ﷺ) .

قال المفسرون: ومن لـطيف الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف: أن الموادعه تشعر بالوفاء والود. فأبرزت فيها كاف الخطاب: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي لم تتأت موادعتك وأنت الحبيب والمصطفى المقرب.

أما «قلى»: ففيها معنى البغض فلم يناسب إبرازها، بل قال عز وجل: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ إمعانًا في إبعاد قصـده (ﷺ) بشيء من هذا المعنى كما تقول لعزيز عليك: لقد أكرمتك.. وما أهنت..

لقد قـربتك.. وما أبـعدت.. كراهيـة أن تنطق بإهانتـه وكراهيـته أو يصرح بهـا في حقه. فـأنت تصرح بكاف الخطاب في التكريم.. وتحذفـها فيما لا يريضيه.

وكـيف يظن ظان أن ربك قـلاك.. وحـيـاتـك في ظل مـولاك جنة وارفة.. وعطاء بلا حدود؟ وأنت معترف بذلك يا محمد تمامًا.

ألم يجدك يتـيمًا فأواك في بيـوت كنت بها واسطة العقـد ـ وخرجت منها سيـد الغد.. وكافل اليتـامى؟ ووجدك ضالاً غافـلاً ما كنت تدري ما الكتـاب ولا الإيمان فصـرت إمـام المرسلين. ووجدك عـائلاً.. فـقيـرًا.. فأغناك.. بنفس عرضت عليها الدنـيا.. فأبت.. واتخذت من القناعة كنزًا

لا يفنى؟

وإذا كان ذلك حـقا. . وإنه لكذلك ـ فـخذ سـبيلك القـاصد شـاكرًا بعملك هذه النعم. . . فارحم اليتيم. . ولا تعبس في وجهه. . وأما السائل تزجره. .

فليسعد النطق إن لم يسعد الحال. .

وحين يتم ذلك بتوفيق ربك. . فأكرم بها من نعم. . تعلنها. .

[إن لم تكن ورق يومًا أجـود بهـا   للســائلين فـإني لـين العـود]

[لا يعدم السائلون الخير من خلقي   إمـا نـوالي وإمـا حسـن مـردود



تأملات في سورة الشرح

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ *﴾[1].

في سورة الضحى.. وفي معرض تقرير نعم الله تعالى على رسوله (ﷺ) قال المفسرون: إن الله تعالى قال: فآوى.. فهدى.. فأغنى.. ولم يبرز سبحانه ضمير الخطاب هكذا.. فآواك.. وأغناك.. لئلا يثقل عليه المنة بنعم مادية..

أما في سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فقد أبرز الضمير لأنها نعم معنوية خص الله بها محمدًا (ﷺ) ولا بأس من إبراز الضمير إشعارًا بهذه الخصوصية.. ولما لهذه النعم من آثار عظيمة: وأولها: شرح الصدر..

لقد جعل الله صدره رحيبًا.. وسيعًا.. بالإيمان.. وثمرته من المعرفة.. والحكمة.. حتى وسع الصديق.. والعدو جميعًا.. وهرعت إليه قلوب الملايين.. وانتهت عنده أنات المعذبين فوسعها كلها..

وإذا كان شرح الصدر عدة الدعاة في مواجهة الصعاب.. فإن إعفاءه من مشقة البلاغ.. يصرف الهم القاتل عنه حتى يواصل المسير نعمة أخرى وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

---

(١) سورة الشرح.

ثم رفع الله ذكره في العالمين كما قال حسان:

أغـــر عليـــه للنبـــوة خـــاتم من الله مـشـهـود يلوح ويشـهـد
وضم الإله اسم النبي إلى اسـمـه إذا قال في الخمـس المؤذن أشهد
وشق لـه من إســـمـــه لـيـجـله فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن شـأن هذه الرعايـة الإلهيـة أن تجـعل ثقتك بربـك بالغة درجـة التشـبع.. لتظل على رجـاء السعـة بعد الضـيق.. والرخاء بعـد الشدة.. والفرج بعد الكرب. ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

بل إن اليسـر يأتي متزامنًا مع العـسر وفي صحـبته.. حـتى لا ينفرد الضـيق بقلبك.. وعـدًا من ربك مؤكـدًا. بل إنهـما يسـران.. مع عسـر واحد.. ولن يغلب عسر يسرين!

وأمر آخر: فالعسر محصور بالألف واللام.. فهو محدود.. مهما بدا شديدًا خانقًا..

أما اليـسر. فهو منكر.. حـر من قيد الألف واللام.. فـهو واسع.. واسع.. ضخم.. ضخم.. يحتوي العسر.. فإذا هو زاهق!

وإذا كان الأمر كـذلك.. فاستدبر مؤمرات البـشر.. وأقبل على ربك سبحانه.. متوجًا عمرك كله بعمل الخير.. وإياك والفراغ القاتل..

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ إذا فـرغت مـن عـمل الدنيا.. فخذ حظك من عمل الأخرة ليكون وقـتك مشغولاً: إما للدنيا.. وإمـا للدين ولا مكان هناك لـلفـراغ.. أو الملل.. لأنك راغب إلى الله.. ليل. نهار.. وفي معيته سبحانه نجاة من الفراغ..

قال بعض المفسرين: وفي قوله: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ حل لمشكلة الفراغ التي شغلت العـالم: حيث لم تترك للمسلم فراغًا في وقته... لأنه إما في عمل للدنيا. وإما في عمل للأخرة.

وقد روي عن ابن عباس؛ أنه مر على رجلين يتـصارعان. فقال لهم: ما بهذا أمرنا بعد فراغنا... وروي عن عمر أنه قال: إني لأكره لأحدكم أن يكون خاليًا سبهللاً لا في عمل دنيا ولا في عمل دين.

ولهذا لم يشك الصدر الأول فراغًا في الوقت.



تأملات في سورة عبس

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[1].

في سبب نزول هذه السورة ذكر المفسرون: أن رسول الله (ﷺ) كان مشغولاً بدعوة صناديد قريش. فجاءه ابن أم مكتوم. وكان أعمى. وقال: أقرئني يا رسول الله. وعلمني مما علمك الله. وكرر ذلك.

فعبس رسول الله معرضًا عنه.. منصرفًا لما هو مشغول به من دعوة أعيان قريش. فنزلت.

والآيات عتاب لرسول الله (ﷺ) لأنه تجاوز الأولى به حين أعرض عن رجل معذور بعماه الذي لم يمكنه من فقه الموقف..

إنه كفيف البصر.. ولكنه وقاد البصيرة.. أبصر الحق وآمن به. وجاء - مع عماره - طلبًا للمزيد.. وهو أقرب إلى الفطرة وأبعد عن السلطان والجاه فليس لديه حرص على منصب يضيع ولا جاه يهدر... وقد وجد في الدين عزته ورفعته.

كيف تنصرف عنه.. مقبلاً على قوم عميت بصائرهم.. فلم يدركوا

---

(١) عبس: ١:١٢ .

الحقيقة.. ولم يبصروا ما رآه الأعمى؟!

من غير شك كان إنصرافك طمعًا في إيمان القوم ولكن.. أي شيء يدريك أنهم سيؤمنون؟ وأي شيء يجعلك داريًا بحال ابن أم مكتوم..؟ لعله لو أقبلت عليه أن يتطهر ويزداد إيمانًا ولعله أن يسمع بتوجيهك صوت فطرته آتيًا إليه من الأعماق.. فتنفعه الذكرى؟

وفيم الاهتمام بصناديد قريش ومهمتك معروفة: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾.

وقد بلغت.. فلا بأس عليك لو أعرضوا..

إنما البأس في الإعراض عن هذا الأعمى.. الضعيف.. الذي أسلم فعلاً.. وجاء يسعى رغم ظروفه الصعبة.. والخشية تملأ قلبه حرصًا على مزيد من اليقين.

[كلا..] فذلك ما لا يكون: إنه تذكرة.. وأنت مذكر.. فمن شاء اتخذ إلى الهدى سبيلا.

ومع هذا العتاب.. فقد بقي الرسول (ﷺ) كما وصفه ربه: ﴿عَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. وفي هذا الموقف أيضًا كما أشار إلى ذلك المفسرون.

أولاً: اكتفى رسول الله (ﷺ) بتقطيب الجبين ولم يقل شيئًا.. وابن أم مكتوم لا يرى ذلك العبوس.

ثانيًا: إن تقطيب الجبين وانبساط أسارير الوجه لحزن أو فرح يكاد يكون جبليًا مما كان منه (ﷺ).

ثالثًا: كان (ﷺ) مطمئنًا إلى رسوخ الإيمان في قلب ابن أم مكتوم..

بخلاف هؤلاء الذين يتألف قلوبهم.

رابعًا: وقـد صارت لابن أم مكتـوم مكانة خاصة بسـبب هذا الموقف وكان رسول الله (ﷺ) يكرمه ويقول: إذا رآه: «مرحبًا بما عاتبني فيه ربي».

ويبقى الدرس الكبير للدعاة.. ومـا يجب عليهم من تلطف بالضعفاء والإقبال عليهم.. والتودد إليهم.



تأملات في سورة الكافرون

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[1].

في سبب نزول السورة الكريمة سورة الكافرون ذكر المفسرون:

أن المشركين عرضوا على رسول الله (ﷺ) أن يترك دعوته ويملكوه عليهم أو يعطوه من المال ما يرضيه فرفض.. فقالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فسكت عنهم فنزلت.

ومعنى السورة:

يا أيها الكافرون: إقتراحكم هذا مرفوض.. ولن أفعل ما تطلبونه مني لا في الحال.. ولا في الاستقبال..

وأنتم أيضًا لن تعبدوا في المستقبل إلهي الذي أدعوكم إلى عبادته وليكن معلومًا لكم أن موقفي هذا وموقفكم ثابت لن يتغير، فكوني لا أعبد ما تعبدون.. صفة دائمة أبدًا.. لن تزول ورفضكم بعبادة ربي أيضًا وصف ثابت لكم لن يتغير وهذا ما أفادته الآية الرابعة والخامسة.. وهما: ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾. ﴿ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾.

حيث أكدت الآية الرابعة.. ثباته (ﷺ) على التوحيد. ورفض الشرك. ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾.

(١) سورة الكافرون.

وأكدت الآية الخامسة **استمرار** شركهم: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

والأمر على **مايقول سبحانه**: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وإذن فالخلاف **كان واضحًا** بين الفريقين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

فهو الانفصال.. **بلا اتصال**.. فلا تطلبوا المستحيل.

أجاب المفسرون **أن السورة** وردت في جنس الكفار. وإن أسلموا فيما بعد فهو خطاب لهم **ماداموا** كفاراً.

وقيل: إن المراد **مَن حقت** عليهم كلمة ربك منهم بالبقاء على الضلال الذي استحقوه بإصرارهم.

وفي السورة من **الناحية** العملية كما جاء في تفسير أضواء البيان: **فيها** منهج إصلاحي هو: **عدم قبول** أنصاف الحلول في القضايا المصيرية لأن فيما عرضوه مساواة للباطل **بالحق**.. وتعليق للمشكلة بلا حل حاسم.

فجاءت السورة الكريمة وانتهت المعركة بهذا التمايز بين الفريقين.. معلنة نهاية المهادنة وبداية المجابهة.



تأملات في سورة قريش

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ * ﴾[1].

تمهيد:

أحصى بعض الباحثين الآيات المكية الواردة في شأن العبادة فوجدها ٢١٠ آية وأحصى الآيات المدنية النازلة بشأن العبادة أيضًا فألفاها ٧٨ آية.

فكانت آيات العبادة المكية أكثر.. واستنتج من ذلك:

اتساع معنى العبادة ليشمل الفرائض التي نزلت بها الآيات المدنية ويشمل أيضًا مجموعة القيم التي يجب أن يحصن المسلم بها نفسه... والتي تترسب في أعماق القلوب التي تشعر بجلال الله ـ تعالى ـ وجماله شعورًا يملك عليها أقطارها.. وهو ما توحي به الآيات المكية التي تزرع في النفوس الخشية واليقين... والخضوع لله القادر الخالق الرازق المهيمن... وتلك هي القوى المحركة التي ينطلق بها المسلم عاملاً آملاً .

سورة قريش:

في تعليل هذه التسمية تقول كتب اللغة:

التقرش: الوحدة والائتلاف. أو التكسب. أو نسبة إلى سمك القرش

---

(١) سورة قريش.

الذي يأكل ولا يأكل ويعلو ولا يعلى عليه.

وكأن القرآن الكريم يقول لقريش ـ كما قيل بحق ـ لماذا لا تكونون عند حسن بكم: إنكم طلائع الوحدة... فلماذا لا تجيبون داعي الله الذي جاءكم بما يدعم وحدتكم؟ ثم إنكم تجار طوافون في البلاد ـ وإذا كان الأمر كذلك. فلماذا لا تتاجرون تجارة تنجيكم من عذاب أليم: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١].

الأمن السابغ: هذه النعمة الكبرى:

إلى جانب ما يوحي به اسم «قريش» من دعوة الإيمان بالله تعالى.. فقد كان هنك مسوغ كافٍ يحملهم على الإيمان وهو ما أشارت إليه السورة الكريمة:

١ ـ صيرورة رحلة الشتاء إلى اليمن... ورحلة الصيف إلى الشام مألوفة لهم: مأنوسة الطريق. بعد ما كانت مخوفةً محفوفةً بالمخاطر.

٢ ـ إطعامهم بعد أن جاعوا فأكلوا الجيف والعظام.

٣ ـ جعل الله الحرم أمنًا: .. بينما يتخطف الناس من حولهم.

تأملات في النسق القرآني:

أولاً: نلاحظ تنكير لفظ «جوع» ولفظ «خوف» والتنكير هنا للتفخيم.. فلم يكن جوعًا عاديًا.. كما يجوع الناس.. على رجاء أن يشبعوا في يوم قريب ولم يكن كذلك خوفًا مما يعرض للناس.. ثم

---

(١) الصف: ١١ .

ينحسـر.. كأنما هو سحابة صـيف.. ولكنه الجوع الذي اضطرهم إلى أكل الميتة.. والخوف الذي انعكس على الباطن قلقًا وتمزقًا...

وإذن فالمخاطبون بهذه الـنعم أدرى الناس بعظمها.. لأنهم أشد الناس إحساسًا بها.

ثانيًا: يطالبهم الحق تعالى أن يعبدوه شكرًا لهذه النعمة السابغة.. ولا يجعلوا شكر نعمائه أنهم يكفرون ويكذبون.

لكنه تعالى وهو يدعوهم لما يحـييهم يقول لهم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ البيت الذي صار مستراد آمال الإنسان في كل زمان ومكان.. الذي جـعله الله مـثـابة للناس وأمنا.. وجـعله قـيـامًـا للناس.. وإذا كنتم أول المتفاعين بالبيت العتيق.. فلتكونوا أول العابدين.

ثالثًـا: نلاحظ أن نعمة الإطعام بعد الجوع.. جاءت في إطار الحديث عن نعمة الأمن.. أول السورة وأخرها.

فإيلافهم الرحلتين يعني أنـها صارت شيئًا مـألوفًا لا يكلفهم عناء... ولا حراسة. أي أن أعصابهم التي كانت تتحرق من قبل خوفًا.. وأموالهم التي كانت تنفق صيانة.. توفرت لهم اليوم.. بهذا الأمن السابغ..

الأمن الذي جاء بعد الخوف.. وإذن فإن له مذاقًا خاصًا على ما يقول الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومجيء الحـديث عن الإطعام مندرجًا بين أحاديث الأمن.. يؤكـد ما ذكره الأطباء قديمًا وحديثًا من ضرورة توفر الأمن لتتم عملية التمثيل الغذائي

بنجاح . . . فقد يكون الغذاء دسمًا حافلاً بصنوف العناصر اللازمة لبناء الجسم . . لكن توتر الأعصاب . . وشيوع الخوف مانع من الهضم وبالتالي مانع من استفادة الجسم بما فيه طعام وشراب!

وإذا كان الأمن في البيت العتيق اليوم نعمة كبرى تتيح للحجيج من كل فج أداء الفريضة على أوفى معانيها . .

فإن كل مسلم في فجاج الأرض جميعًا يتحمل نصيبه من المسئولية ليبقى ذلك البيت مثابة للناس وأمنا . .

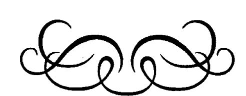
وليبقى موسم الحج عيدًا أكبر نستروح نسماته جميعًا . . ألا وإن نعمة الإطعام بعد الجوع . . . والأمن بعد الخوف لتنسحب على كل من يؤدي الفريضة شكرًا للمنعم سبحانه . . . هذا الشكر الذي يأخذ صورته العملية بالتمكين لعنصر الأمن في مهبط الأمن ومستراد الأمل .

يقول الرازي :

(اعلم أن الإنعام على قسمين : أحدهما : دفع ضر وهو ما ذكره في سورة الفيل .

والثاني : جلب النفع . وهو ما ذكره في هذه السورة) .

ولما دفع الله عنهم الضر . وجلب لهم النفع . وهما نعمتان عظيمتان . أمرهم بالعبودية . وأداء الشكر ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ الآيات .



من بلاغة القرآن

يقـول الحق (سـبحـانه): ﴿ فَـقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَـدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَـلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِـيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٧ ـ ١١٩].

في الآية الأولىٰ :

يحذر الحق (تعالىٰ) آدم أولاً... وزوجه ثانيًا من الشيطان، وهو عدوهما المبين... من أن يكون سببًا في إخراجهـما من الجنة معًا... فإن حدث وتسبب في إخراجكما... فسوف يكون الشقاء من نصيبك أنت وحدك...

ومن ثمَّ قال (سبحانه): ﴿ فَتَشْقَى ﴾... ولم يقل: فتشقيا... كما قال قبل ذلك: ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾.

ذلك:

بأن الرجل قيم على المرأة...

والشقـاء بمعنى التعب في تحصـيل المعاش وظيفـة الرجل وحده... الذي رشحته مواهبه للانفراد بهـذا الحمل الثقيل...

* * *

فانظر كيف دل بالإفراد على قانون من قوانين الاجتماع البشري... يؤكد قِوامة الرجل على المرأة... قِوامة مردودة إلىٰ أهليته وكفاءته...

أما الآية الثانية:

فتلاحظ أن الجوع مقابَل بالعري...

والظمأ مقابل بالضحىٰ... مع أن الأمر للوهلة الأولىٰ يبدو غريبًا...

ونستمع إلىٰ ابن القيم يفصل القول هنا فيقول:

«من له غـرض في دقـائق المعـاني يتـجـاوز نظره قـالب اللفظ إلىٰ لُب المعنىٰ.

والواقف مع الألفاظ مقصور علىٰ الزينة اللفظيـة، فتأمل قوله (تعالىٰ): ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾، كـيف قابل الجوع بالعري... والظمأ بالضـحىٰ... والواقف مع القالب ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ... والعري ... بالضحىٰ.

والداخل إلىٰ بلد المعنىٰ... يرىٰ هـذا الكلام في أعلىٰ الفصاحة والجلالة لأن الجوع ألم الباطن... والعري ألم الظاهر.

فهما متناسبان في المعنىٰ.

وكذلك الظمأ مع الضحىٰ: لأن الظمـأ موجب لحرارة الباطن، والضحىٰ موجب لحرارة الظاهر.

فـاقتـضت نفي جمـيع الآفات ظاهرًا وباطـنًا، وفي هـذا البـاب حكاية مشهورة ، وهي: أن ابن حمدان قال يومًا للمتنبي:

قد انتقد عليك قولك:

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردىٰ وهو نائـم

تمر بك الأبطال كلـمىٰ هزيمـــة   ووجهك وضاح وثغرك باســـم

وكان الأولىٰ أن يقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف   ووجهك وضاح وثغرك باســـم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

فيتم المعنى حينئذ.

لأن انبساط الوجه ووضوحه، مع الوقوف في موقف الموت أوفق بأوصاف الكماة ـ الأبطال ـ .

والسلامة من الردى مع مرور الأبطال كلمى ـ مجروحة ـ هزيمة أعجب في حصول النجاة»[1].

* * *

يقول الحق (تعالى):

في سورة فصلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الآية: ٣٦].

وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ٢٠٠].

وفي سورة المؤمنون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

يلاحظ: اختلاف التذييل في الآيات الثلاث... وهو اختلاف يعبر عن المقصود في كل موقع بما يناسب المقام:

ففي سورة فصلت... وفي الآيات السابقة على هذه الآية الكريمة... يحرض الحق (تعالى) المؤمنين على العفو عن المسيء... بل إنه يزين للمظلوم

(١) «بدائع الفوائد» ج ٣ / ٢٤٠ .

أن يبلغ من العفو قمته العليا... وذلك بالإحسان... إلى من؟ ... إلى من أحسن إليه؟... لا... فذلك أمر فطري... لكنه يطالبه بالإحسان... إلى من أساء إليه... سائرًا بنفسه في الاتجاه المعاكس لرغبتها في الانتقام.

ولما كان التكليف على هذا النحو شاقًا... جاء (تعالى) بضمير الفصل «هو» ثم قال: «السميع» بالألف واللام... لتتعاون «أل» وضمير التوكيد... في إقناع المظلوم... ليتخذ من الله وكيلاً... ثم يجعل من العفو سبيلاً... فالله هو (سبحانه) ... السميع... لكل ما حدث... وهو مكافئك... وناصرك... في معركتك مع الشيطان.

* * *

أما في سورة الأعراف:

فالمكلف مأمور بمجرد الإعراض (وأعرض عن الجاهلين) ... وتلك مهمة تبدو سهلة إلى جانب التكليف الصعب في سورة فصلت... فلم يقتض السياق ذكر ما يعين على أمر يبدو للوهلة الأولى سهلا ميسوراً.

* * *

وفي سورة غافر كان التعبير:

فاستعذ بالله إنهُ هو السميع البصير...

فجاء قوله «عليم» أولا في سورة فصلت والأعراف، ثم «البصير» ثانيًا، ذلك بأن أعداء الحق هما:

الشيطان...

والمجادلون باسمه في آيات الله، عنادًا.

ولما كـان الشيطان مـسـتـورًا عنا... لا نراه... فإن الله (تعـالى) أعلم به منا... ومن ثمَّ ناسب أن يجيء «عليم»... لندرك إحاطة علمـه (تعالى) بهـٰذا الشيطان الذي لا نراه...

وذلك لحكمة هي:

أن يقوي أمل العبد في النصر على الشيطان الرجيم... بالمضي في العبادة على طريق... وإن كـان محـفوفًـا بأشـواك الوسوسـة... إلا أن كل تحركـاته مشمولة بعلم الحق (سبحانه)...

فامض أيها المؤمن على الطريق المستقيم... فلست وحدك...

* * *

ولما كانت أعمال هـٰؤلاء المجادلين ظاهرة للعين المجردة... فناسبها التعبير بقوله (تعالى) «البصير».

* * *

وسبحان من هـٰذا كلامه.



من أدب القرآن الكريم في الخطاب

ما حكاه المفسرون في قوله (تعالى): ﴿**قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين**﴾.

والقائل هنا: سليمان (عليه السلام).

ففيه أدب حَسَن من آداب الخطاب:

فسليمان (عليه السلام) واحد من عظماء الدنيا... ومما يليق بالعظماء أن يصونوا ألفاظهم عن مواجهة أصحابهم بالخطاب المؤلم الجارح... عند احتمال الخطأ منهم.

من أجل ذلك: قال: أم كنت من الكاذبين... فتجنب المواجهة بالكذب مثل: أصدقت... أم كذبت... فراراً من الإحراج والإحساس بالهوان...

أي أن المخاطِب لا يرمي بالتهمة كأنها شيء يحبه... وإنما يستبقي في قلبه قدراً من الثقة... فلعل له عذراً وأنت تلوم...

ومثل ذلك قوله (تعالى) حكاية عن المنافقين:

﴿**قالوا نشهد إنك لرسول الله**﴾ ثم قال: ﴿**والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾ أي: في ضميرهم المخالف للظاهر.

لم يواجهه بتهمة الكذب ... لأنه: قد يكون كاذبًا بالميل... وليس كاذبًا في الواقع ونفس الأمر.

فكان ألطف من قوله: أصدقت أم كذبت.

وقد نشأ عن هـٰذا الخطاب القرآني أدب متميز:

فمن الأدب عند احتمال الكذب أن يقال: ليس الأمر كذلك، أو نحوه، فقد يحتمل الأمر أن المخاطب: تعمد الكذب.

ويحتمل أنه غلِط... أو لبَّس فأخرج الباطل في صورة الحق.

ومتىٰ تعددت الاحتمالات... ولم يتعين الكذب الصريح... فإن الأمر علىٰ ما يأخذنا به القرآن من أدب الخطاب...

وقد وعي الفقهاء هـٰذا الدرس:

فعندما يحتدم الجدل... وتأخذ المعركة الفكرية سبيلها إلىٰ الانفعال الذي قد يذهب بأحلام الرجال...

في هـٰذه اللحظة... يتذرع المجادلون بضبط النفوس الجوامح علىٰ إيقاع لغة القرآن المجيد...

وهو ما التزم به القرآنيون من فقهاء الإسلام؛ حين آثروا أن يقولوا في مثل هـٰذه اللحظات الفاصلة:

نطالب بالدليل...

قد يكون خطأ المجادل في الدليل...

وقد يتوقفون عن إبداء الرأي احتياطًا...

وإذا أغلظوا في الرد ـ أحيانًا ـ لم يزد علىٰ قولهم:

ليس الأمر كذلك...

أو ليس بصحيح.

وهنا تبدو ضخامة النعمة في جعل القرآن بلسان عربي مبين... فكان

ذكرًا لنا... يتقاضا ألا نمل من شكره أبدًا...

يقول الزمخشري:

«نزله باللسان العـربي لتنذر به؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي لتـجافوا عنه ـ أصلاً ـ ولقالوا: ما نصنع به؟ لا نفهمه!...

فيتعذر الإنذار به... وفي هـٰذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك... لأنك تفهمه وتُفهِمه قومك.

ولو كان أعجميًا لكان نازلاً على سمعك... دون قلبك... لأنك تسمع أجراس حروف لا تفـهم معانيها، ولا تعـيها، وقد يكون الرجل عـارفًا بعدة لغات... فإذا تكلم بلغـته التي أتقنها أولا... ونشأ عليـها... وتطبع بها... لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام... يتلقاها بقلبه...

ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت.

وإن كلم بغير تلك اللغة... وإن كان ماهرًا بمعرفتها... كان نظره أولاً في ألفاظها... ثم في معانيها...

فهـٰذا تقرير: أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين»[1].



(١) «الكشاف» تفسير سورة الشعراء.

متعة النفس... ومتعة الحس

في سورة الصافات يقول (تعالى): ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ [الآيتين: ٤١ ـ ٤٢].

الفواكة: متعة مادية.

وهم مكرمون: متعة نفسية.

ثم:

وعندهم قاصرات الطرف: متعة نفسية.

عين: متعة مادية.

وفي متعة النفس فليتنافس المتنافسون.

إلا إن هناك نعمتين:

نعمة الإيجاد ... من عَدَم.

ونعمة الإمداد... من عُدَم.



إشارات قرآنية

﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

تشير الآية الكريمة إلىٰ أهمية الرفق والعفو، حتىٰ يبدو الداعية في أجمل صورة.

وإلا ... فإن الرسول (ﷺ) مع أن الناس متأكدون أنه رسول ... إلا أنه (ﷺ) لو كان فظًا غليظًا ... لانفض الناس من حوله ... وتجاهلوا أنه رسول ...

* * *

وإذا كان الناس كذلك مع من يتأكدون صدقه، فكيف إذا كان الداعية اليوم قاسيًا غليظ القلب ... في الوقت الذي لا تتأكد من صدقة؟!

إن الداعية مأمور ـ أولاً ـ بحسن الخلق.

فحسن الخلق: حسنة ... لا تضر معها معصية، كما وأن سوء الخلق معصية ... لا تنفع معها الحسنات: العلم ... والعمل.

«كان مالك يقول:

رأيت في هـٰذا المسجد سبعين عالمًا يستنزل بهم المطر ... لكنهم لا يفهمون ما يخرج من رأسي»!!



لا يضار كاتب ولا شهيد

عند كتابة الدين... قد يصيب الكاتب حذرٌ مًّا... وقد يزهد الكتَّاب في الكتابة صيانة لأنفسهم من هذا الضرر المحتمل... فيؤثرون السلامة وإن أضر ذلك بطرفي القضية: الدائن والمدين.

ولكن الإسلام يريد للمؤمن أن يضحي في سبيل مصلحة المجموع: الكاتب والشاهد معًا...

ولذلك لم تقل الآية: ولا يُضَرّ كاتب ولا شهيد، ولو جاءت الآية على هذا النسق... لجاز للرجل أن يمتنع عن الكتابة أو الشهادة لأدنى ضرر...

لكنها جاءت هكذا «ولا يضار» بزيادة في البنية ليكون المعنى:

لا بأس أن يتحمل الكاتب والشاهد الضرر الخفيف... ولا يحمَّل الضرر البليغ.

* * *

الشاهد هو:

من رأى الحدث إجمالاً... ولا يعرف أسبابه... ولا تفاصيله.

أما الشهيد: فهو: يعرف حقيقة العطاء: هل هو: وفاء لدين... أو أمانة... أو قرض.

ولا تقبل إلا هذه الشهادة من «الشهيد» ولذلك آثرها القرآن على كلمة «شاهد» الذي تُرَدُّ شهادته.

أولياء الشيطان... وأولياء الرحمن

يقـول (عـز وجل): ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ * وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٥ ـ ٦٢].

أصحاب الجنة:

فاز الطائعـون بالجنة... جزاء ما قـدموا من طاعات يحـققون بهـا اليوم جميل الفوائد... وخير العـوائد... في دار الخلد التي صاروا أصحابها... فهي خالصة لهم... لا يشـركهم فيهـا أحد ممن أخلفوا الله ما وعدوه فـعصَوْه ... فحرمهم العصيانُ من دخولها.

لقد شُغل الطائعون في الدنيا بالعبـادة... وما تسْفر عنه من نشاط إيجابي أسهموا به في رقي المجتمع... وإرساء قواعد الحق... لقد عزفوا عن الفاني... طموحًا إلى الباقي... فنالوه... بل صاروا أصحابه الجديرين به...

وفي الوقت الذي ينادي فيه الكافـرون بالويل والثبور وعظائم الأمور... فإن الطائعين مشغولون عن الحساب وعن العذاب... مشغولون بالسرور مرتين:

مرة بالنجاة من هذه الأهوال... ومرة بمتعة ما هم فيه من صلاح الحال.

بل إنهم مشغولون فعلاً... ولكنه «شغل» من طراز خاص:

شغل لا تدركه العقول: بلا عرق، ولا دموع... كما كانوا في الدنيا.

فاكهون: في أمن... وانبساط... وراحة... نظير ما أجهدوا أنفسهم في الدنيا...

* * *

وحتى تتم سعادتهم كمالاً... يلحق بهم أعزاؤهم ليكونوا معهم... وفي مقدمة هٰؤلاء الأعزاء: أزواجهم:

أزواجهم اللائي كانوا يتركونهم في المضاجع أحسن ما كنّ... إنهن معهم الآن... يؤنسونهم...

«في ظلال على الأرائك متكئون».

في ظلال: «فيها برد الأكباد، فهي غاية المراد».

ثم إنهم على الأرائك متكئون...

والاتكاء يعني: الفراغ... والتمكن... والصحة... لأن المريض لا يتكئ.

«لهم فيها فاكهة»: إنه لا جوع هناك... وإنما هو التفكه والتنعم...

ولا تقول الآية: «يأكلون»... فهم أحرار: يأكلون... أو يَدَعون... أو ينظرون... فلهم مطلق المِلكية والتصرف...

إن بين أيديهم ما يرغبون... فهم به مستمتعون: وإذا أكلوه... لا يأكلونه بأمر الطبيب... وإنما يأكلونه تشهيًا وتلذذًا... واختيارًا.

«ولهم ما يدعون»

كل ما يدور بخلدهم من ألوان النعيم متاح لهم... بل هو بين أيديهم.

كل ما يحتاجونه حاصل لهم...

ولاحظ من دقة التعبير ما يلي:

«أنه (تعالى) قال: ﴿لهم فيها فاكهة﴾ فالفاكـهة هناك في الجنة... ثم قال (تعالى): «ولهم ما يدعون» لم يقيد ذلك بالجنة.

فإجابة حاجتهم ليـست فقط في الجنة... وإنما قبل ذلك في الدنيا لهم - أيضًا - ما يطلبون بمعنى أنهم في الجنة الآن... وإن كانوا ما يزالون في الدنيا.

* * *

النعمة الأعظم:

وأعظم النعم على الإطلاق «سلام قولا من رب رحيم».

فالسلام يجمع كل هذه النعم، وهو سلام لا يحده وصف.

يقول القشيري:

«ولا ارتيـاب في أنه: لا شيء يعـدل هـذا في النعـيم، وقـرة العين، والشرف، وعلو القدر.

ولا شك أن هذا هو المقصود بالحقيقة... فهو قلب النعيم في ذلك اليـوم... الذي هو قلب الوجـود حـقًا... فـصح أن هـذه الآية قلب هـذه السورة، كما كانت هذه السورة قلب القرآن»[1].

* * *

من أبعاد النعمة:

وهناك للنعمة بعد آخر وهو ما يشيـر إليه قوله (تعالى): «وامتازوا اليوم أيها المجرمون»... إنهم ينادون اليوم: «لا دواء لألمكم... ولا شفاء لسقمكم»

(١) نظم الدرر للبقاعي.

لا تحاولوا الاختلاط بالمؤمنين... وهكذا تتم النعـمة كمالاً... عندما... يغيب الرقيب... وينأىٰ العدو!!

* * *

العتاب المر:

ثم يقـول (سبـحانه وتعـالىٰ): «ألم أعهـد إليكم يا بني آدم ألا تعـبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين».

لقد حذرتكم دون الجن، فوجهت إليكم خطاب التكليف: يا بني آدم... ليكون ذلك «من موجبات الطاعة والعرفان».

«لا تعبدوا الشيطان»:

ولقد كانت علة النهي عن عبادتِه كافية في النفرة منه:

١ ـ فهو ظاهر العدواة جدًا من جهة عداوته لأبيكم.

٢ ـ ومن جهة أمره لكم بالتخالف والتخاصم.

٣ ـ ومن جهة تزيينه للفاني...

«الفاني الذي لا يرغب فيه عاقل، لو لم يكن فيه عيب سوىٰ فنائه...

فكيف إذا كان أكثره: أكدارًا وأدناسًا، وأوضارًا؟...

فكيف إذا كان شاغلاً عن الباقي؟

فكيف إذا كان عائقًا عن المولىٰ؟

فكيف إذا كان مغضبًا له... حاجبًا عنه؟»[1]

(١) نظم الدرر.

«لقد وصاكم الله (عز وجل) إيصاء عظيمًا:

بما نصب من الأدلة، وبما منح من العقول... وبعث من الرسل، وأنزل من الكتب في بيان الطريق الموصل إلى النجاة».

ولكنكم عبدتموه...

لا تقولوا إنكم فقط اتبعتموه... سموا الأشياء بأسمائها... إنكم عبدتموه وهل العبادة إلا الطاعة في الأمر... والانتهاء في النهي؟ لقد أمركم فأطعتموه... أي: فعبدتموه...

ثم استنكفتم عن عبادة الله الذي خلقكم ورزقكم... لقد أطعتم عدوكم... ثم عصيتم من يحبكم...

لقد آثرتم الضَّربَ في التيه... على غير هدى... بينما الصراط المستقيم بين أيديكم... يناديكم: إنه أقصر المسافات بين نقطتين...

فهو يوفر الوقت والطاقة والمال... لكن أعداء أنفسهم ظلموا أنفسهم حين كانوا عن هذا الصراط ناكبين...

* * *

ولقد كان لكم في التاريخ شواهد تمنعكم من طاعته...

«لقد أضل منكم جبلاً كثيرًا»...

وهذه آثار فأسه ترونها رأي العين...

«أفلا تعقلون» لتدركوا بالفعل سوء صنيعكم؟

لقد مضى زمن العتاب... فلا عتاب... وإنما اليوم يوم العقاب...

هذه جهنم التي كنتم توعدون ... اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون...

وعندئذ ... يتحول الكافر إلى أجزاء... وتفاريق... عندما تشهد عليه جوارحه...

وحينئذ ينضاف إلى عذابه عذاب الحياء:

«فإن حياء الكفور من المنعم من أشد الآلام».

ولهذا يقول المذنب: افعلوا بي ما يأمر به السيد... لكن لا تحضروني بين يديه.

أليس بكافٍ لذي نعمة حياءُ المسيء من المحسن؟!

أما بعد ...

فإن استحقاق الجنة لا يكفي فيه الحب وحده؛ لأن المحبة قد لا تحمل على الطاعة، اتكالاً على الحب.

وكم في الناس اليوم كذلك: من يحبون... لكنهم لا يؤيدون... فيستمر في العصيان متماديًا.

ومن يتنكر لهذه الحقيقة ... فالمجنون أعقل منه: لأن المجنون وإن لم يكن في الآخرة من أهل الدرجات لكنه ناجٍ.

وفرق بين الرجلين:

أما أحدهما فلم يعرف الطريق... فأقام بمكانه فهو لا يبعد عن الطريق كثيرًا...

وأما الآخر: فقد سار عكس المقصد... وإذن فإنه يبعد عن الطريق اللاحب كثيرًا... وصدق القائل:

«إن البلاهة أدنى إلى الإخلاص من فطنة بذاء».

ثمن الانتصار.. وثمراته

يقول الله (تعالى) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج: ٣٨ ـ ٤١].

تمهيد ...

كات الكفار يتفننون في إيذاء المؤمنين... بكل ما يستطيعون من صنوف الإيذاء.

فجاءت البشارة بأن الله (تعالى) «يدافع» عن الذين آمنوا... «يدافع» بالفعل المضارع... وما يشي به من تجدد هذا الدفاع واستمراره... فكلما أحدث الكفار إيذاً ... كلما أحبط الله (تعالى) مفعوله... وتلك هي البشارة الأعظم... بأنهم مهما كان حجم الإيذاء... فإن الله (تعالى) لن يصلح عمل المفسدين... والمستقبل للمؤمنين... لأنهم في حماية الله (تعالى)... ومن كان في حماية الله (عز وجل) فلن تطوله يد آثمة... ولن يؤثر فيه عدوان.

* * *

سبب النصر ...

وليس للأسماء ولا للألقاب دخل في أحقية هـذا الدفاع ... والمهم هو تحصيل وصف الإيمان ... حتى يكون عاطفة سائدة ... وهـذا معنى قوله (تعالى): «الذين آمنوا».

لقد رفض الجندي المسلم «صاحب النقب» أن يعلن اسمه ... واعتذر عن قبول جائزته ... إلى الحد الذي جعل قائده في المعركة يتمنى أن لو كان مع هـذا الجندي ... وذلك قوله: «يا ليتني ... مع صاحب النقب» هـذا الجندي الذي فر بعد المعركة، ولم يلحق به أحد ... ذلك بأن الأوصاف هي مناط الأحكام ... وليست المنازل بالرتب ولا بالألقاب.

* * *

سبب هزيمة الأعداء ...

وإذا كان (تعالى) يدافع عن الذين آمنوا ... فإنه سبحانه يخذل الذين كفروا ... لماذا؟

لأنهم تَرَدوا في دركات الخيانة، فلم يحصلوا أسباب النصر :

١ ـ يفعلون مكارم الأخلاق إن فعلوها رياء.

٢ ـ يخونون أنفسهم مرتين:

أ ـ مرة بالعزم على العصيان.

ب ـ ثم بمباشرة المعصية فعلا.

ثم يخونون غيرهم كـذلك، وأسوأ من هـذا كله: أنهم يخونون ربهم (سبحانه وتعالى).

وإذن... فلما حصّل المؤمنون حقيقة الإيمان... نصرهم الله (تعالى)... ولما خان الكافرون العهد... طردهم (سبحانه) من ساحة رضوانه، وكان جزاؤهم ذلك عدلاً:

فأعلى صور الخيانة أنهم أقروا بالخالق الرازق... ثم عبدوا غيره!

وإذا كان الحق (تعالى) لا يحب من اتصف بمطلق خيانة... ولا من اتصف بمطلق كفر... فكم يكون غضبه (سبحانه) عظيمًا على من وصل فيهما إلى نهاية الشوط... فصار خوّانًا كفوراً.

* * *

من مظاهر الحكمة الإلهية:

ومن معاني «الدفاع» عن الذين آمنوا... أن يأذن لهم تعالى بحمل السلاح... ردعًا للمعتدين... «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» يأذن لهم (تعالى) في القتال ـ أولاً ـ كمبدأ... ثم يتدرج بهم على طريق المسئولية... ليقول لهم بعد ذلك: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا» فإذا تمادى الأعداء في طغيانهم قال لهم: «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة».

وهكذا ينشئ فيهم إرادة القتال على المدى الطويل... من حيث كان القتال سبيلاً إلى الموت... وإذن فمن الحكمة أن يكون الدواء متئدًا... لا طفرة حتى لا تفاجأ النفوس بما يعرضها للموت.

* * *

ولما كان الكفار على الجانب الآخر أكثر عددًا وأقوى عدة... فقد يصيب المسلمين من الوهْن... ما يمكن منهم أعداءهم ومن أجل ذلك يجيء الوعد

بنصرهم مدعومًا بمختلف أدوات التوكيد:

«ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» ذلك بأن نصر المؤمنين ـ وهم ضعفاء ـ كان مستبعدًا في منطق العادة... ولكنه (تعالى) يربط على قلوبهم... ويثبت أقدامهم.

* * *

من مظاهر الظلم:

لكن لماذا يؤذي الكافرون المؤمنين... بل ويقاتلونهم؟

تجيب الآية الكريمة:

«الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله...».

إن سبب الإخراج وهو «التوحيد» هو في الواقع سبب القرار... ولكن الأمر على ما يقول الشاعر:

إذا محاسني اللاتي أدل بها كانت عيوبي... فقل لي كيف أعتذر

وليس في المؤمنين عيب... ولكن هكذا تخيل المكابرون، وصار الأمر على ما يقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب!!

وهكذا كان قدر المخلص دائمًا.

يخدم الناس... ولا يدخر في خدمتهم جهدًا... وبنفس القوة يؤذية الناس... ولا يدخرون في إيذائه جهدًا!!

* * *

وإذا كان ولا بد من جلاء... فهو قدر المفسدين في الأرض... ليبقى

المصلحون في أراضيهم... يعمرونها بالتوحيد... ويسعدونها بالرخاء.

أما أن يطرد أصحاب الأرض منها... ليتفرد بها الغرباء... أما أن يخرج الموحدون... ليستعلي المشركون... فذلك هو الوضع المقلوب الذي لا يستتب به الأمن ولن يستتب الأمن إلا إذا اعتدل الميزان... واستقام هذا الوضع المعكوس...

من أجل ذلك كان لا بد من المدافعة... من التضحية... استجلابًا لنصر لا يأتي إلا بالفداء... وحتى تظل دور العبادة عامرة بالرُكع السجود... فعلى أهل الأديان أن يواجهوا معًا عدوهم المشترك!

* * *

الأجدر بالنصر...

ولكن الله (تعالى) جعل للنصر والهزيمة سننًا لا تتخلف... وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة موضحة ملامح الأجدر بالنصر:

«الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر...».

وتلك هي مواصفات الجندي الجدير بالنصر:

١ ـ أن يراقب الله (تعالى).

٢ ـ أن يكون في الدنيا زاهدًا.

٣ ـ أن يكون مصلحًا اجتماعيًا...

ومن تخلى عن الصلاة... والزكاة... ولم تتحرك في قلبه إرادة الإصلاح... فليس له في النصر نصيب.

«لأنهم ليسوا من حزب الله (تعالىٰ) ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر... بل هم حزب الشيطان وأولياؤه... ومثلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليه... ثم يطلب الأجرة... ومن كان هذا شأنه فلا عقل له».

ولأن الرسول (ﷺ) هو الذي يحمل هم الدعوة... وهو الذي يلاقي في سبيلها ما يلاقي... فإن الحق (تعالىٰ) يخاطبه مؤنسًا له... حتىٰ لا يستيئس: فيقول (تعالىٰ) عن أعداء الحق: «وإن يكذبوك... فقد كذبت قبلهم قوم نوح...».

وإلحاق تاء التأنيث... إشارة إلىٰ ضعفهم... وضآلتهم... وإنهم معه علىٰ ما يقول الشاعر:

زعمت سكينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب



تهافت المشركين

يقول (عز وجل): ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ * فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٣٤ _ ٤٥].

* * *

تمهيد ...

يقولون في وصف المتقين:

هناك ما يسمى بالفرس الـواقي، وهو: الفرس: الموجوع الحافي، والذي لا يضع حافره حتى يرى: هل الموضع لين ومناسب؟

وكذلك المتقي: إنه يقدر لرجله قبل الخطو موضعها:

لا يتـحـرك، ولا يسكن إلا وهو على بصـيـرة من رضـا الله (تعـالى) وسخطه... فلا يفـعل ما يفعل ولا يترك ما يتـرك... إلا وهو على بصيرة من أمره... وعلى غاية ما تكون التقوى... والحذر.

يتقي الجهل... بالعفة.

والشره ... بالعفة.

والجبن ... بالشجاعة.

والجور ... بالعدالة.

مدفوع في ذلك كله ... بصلاح القوة العـملية، الناشئة عن صلاح القوة النظرية.

* * *

جزاء المتقين ...

وهـؤلاء المتقون هم الواصلون بالتقـوىٰ إلى خير الجزاء «إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم».

والجزاء هنا ذو شقين:

فالناس يقولون: إن رضا صاحب الدار مقدم على النظر في الدار نفسها:

أ ـ فالمتقون مكرمون أولا بجوار ربهم الكريم «عند ربهم» ... وتلك متعة القلب.

ب ـ وبعد ذلك: لهم ... وحـدهم ... النعيم، وهو : متعـة القالب ... نعيم خالص ... بريء من: المكدر ... والمشوش ... والمنغص.

ثم هو نعيم دائم: لا يفارقونه ... ولا يفارقهم ...

* * *

وهكذا حكم القـضاء العـادل ... بين الفـريقين ... فلا تسـوية هناك بين الفجار ... والأبرار.

القياس الفاسد

ولكن المترفين... من طول تنعمهم... يفسد النعيم عقولهم... فلا تهتدي إلى الحكم الصحيح، ومن دلائل ذلك : أنهم قالوا للمؤمنين:

إن لم يكن بعث... فقد استوينا معكم في المآل... وزدنا عليكم أننا فزنا بلذات الدنيا التي حرمتم منها... ولو فرض وكان بعث... فنحن - أيضًا - أحسن منكم، أو على الأقل نساويكم.

لأن الله (تعالى) لما فضلنا في الدنيا بالنعيم... فسوف يكون المستقبل صورة للماضي... لأنه (سبحانه) ما آثرنا باللذائذ إلا لأننا آثر عنده ... منكم.

وهكذا يتقلب المترفون في النعيم... فيفسد الترف ملكاتهم على ما يقول (سبحانه وتعالى) «ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قومًا بورًا».

* * *

القرآن يفند مزاعم المبطلين:

ولقد رد الله (تعالى) هذه الفرية بقوله (سبحانه): «أفنجعل المسلمين كالمجرمين».

كيف يكونون سواء في الحكم... مع أنهم لم يكونوا سواء في العمل؟!

كيف تستوي نهاية الأبرار... ونهاية الفجار؟!

لقد عاش المجرمون دنياهم بالطول والعرض... غارقين في الترف... بينما عاش المسلمون حياة الشظف؟ فتنازلوا عن حقهم في النعيم ليضاف إلى

الدنيا التي ملأوها بصالح العمل... وطيب الكلم؟

كيف يستوي من أسلم وجهه لله وهو مؤمن... ومن أجرم... من قطع كل صلة له بالله (تعالىٰ)... ثم بالناس؟

* * *

هٰذا الذي ذهبتم إليه مدفوعين بالاعتزاز بالمال... والاغترار بالنعيم... من أين جئتم به... هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين...

ولا برهان... ولا حتىٰ أثارة من علم؛ لأن الأحكام إنما تستمد من:

١ ـ العقل.

٢ ـ أو النقل.

٣ ـ أو شهادة العقلاء.

وكل ذلك منفي هنا: «كيف تحكمون». أي عقل سوَّل لكم ذلك؟ لا عقل... وهل لديكم... «نقل» تعتمدون عليه؟

«أم لكم كتاب فيه تدرسون» ... لا كتاب... ما هو ذلك العقل الذي حملكم علىٰ التسوية بين من أساء ومن أحسن... بين السوي... والغوي؟!

وأين هو النص الذي تنطلقون منه إلىٰ هٰذا المنطق المقلوب؟

إنه إذا لم يكن لكم عقل... فأين النقل؟

كيف تنكرون هٰذا الإنكار ... وفي وضح النهار... إن واقع حياتكم يرفض هٰذا المنطق المعكوس: فأنتم لا تسوون بين خادم يطيع سيده... وخادم يشاكسه!

بل إنكم لا تسوون في المعاملة بين من أساء إليكم، ومن أحسن.

قد تزعمون أن لكم من الله عهدًا موثقًا... لا يحده حد...

بل هو محدود إلى الأبد... بأنكم الأخيار...

وذلك زعم لا أساس له من الصحة...

* * *

أم لكم شفعاء من جنسكم... قلوبهم معكم... يشهدون بأنكم الأفضل.

فائتوا بهؤلاء الشفعاء جميعًا ليشهدوا لكم بأنكم الأفضل...

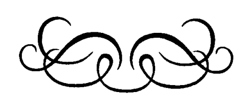
هات ما عندك نجم الفلك!!

يقول د. دراز:

«هنا لا محالة تخرس الألسنة... ويجف الريق في الحلاقيم» بعدما «أغلق القرآن باب المهاترات إغلاقًا محكمًا» حتى لا يتسلل الماكرون... الذين يخافون بأعينهم.

ولم يبق إلا التهديد: «سلهم أيهم بذلك زعيم»

«وهنا لا يكتفي القرآن منهم في جواب هذا السؤال بـ «نعم» مجردة... وإنما طالب من يقولها أن يكون ضامنًا لما يقول: من منكم ينهض بهذه الدعوى؟ وكان لا بد أن ينقلهم السياق ليروا صورتهم الكابية في المستقبل... لا كما يتصورونها: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾.



القرآن في حس المعاندين

المعركة قديمة بين الأصيل والدخيل... بين المبادئ والمنافع... بين المجادلين عن الحق... والمجادلين فيه.

* * *

ولا بأس من الخلاف... ولا يأس من الإصلاح...

فقد اختلف الفقهاء... فتعددت وجهات النظر تعددًا... لم يكن دليل انقسامهم لكنه كان أمارة حيوية العقل... ورحابة الدين الذي رسع آراء المختلفين... المنصفين.

ولكن... الآخر... قد يلغي عقله... حين يعرض الحق نفسه عليه... فيعرض هو عنه، بل يسخر منه، وكلما زاده الحق إرشادًا كلما ازداد عنادًا... إلى الحد الذي تصير مميزاتك عيوبًا في حس المفترين من المعاندين على حد قول الشاعر:

طهارة بعض الناس حرب عليهمو   وفضلهمو خصم لهم وغريم

* * *

وهو موقف يصدم المحق... بل يخجله... حين يصير أمره على ما قيل:

إن محاسني اللاتي أدل بها   كانت عيوبي... فقل لي كيف أعتذر؟!

وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا الموقف في قوله (تعالى) في سورة الروم ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٥٨ ـ ٦٠].

منهج القرآن:

يقول (تعالى) «ولقد ضربنا للناس...» كل الناس... وتلك سمة من عالمية الإسلام المستوعبة للبشر جميعًا... والمغنية في نفس الوقت عن «علمانية» ملونة متعصبة يراد بها سيطرة طبقة... واستئثار منهج أرضي بأقدار البشر.

وما يزال القرآن يستدعي كل الناس بمثل هذه النداءات: يا بني آدم ... يا بني إسرائيل... يا أهل الكتاب... يا معشر الجن والإنس... وقوله: «في هذا القرآن»، والإشارة للقريب تعني: أن هذا القرآن قريب منكم، يسر الله (تعالى) حفظه والأخذ عنه لمن أراد ذلك مخلصًا... لم يكن القرآن أحاجي وألغازًا... وإنما هو ثروة متاح لكم أن تستثمروها لحسابكم...

وفي هذا التقريب وهذا التيسير ما فيه من رحمة بكم وإشفاق عليكم.

وإذا كانت هناك فلسفات تتعمد الإلغاز وتعقيد المعاني تغذية لمشاعر الانتقام... فإن القرآن الكريم دون هذا الفلسفات جميعًا لا يريد إلا الإصلاح... إعانة الإنسان على نفسه حتى تنتظم خطاه على الصراط المستقيم.

* * *

ولقد ضرب الله (تعالى) الأمثال... بل من كل مثل كما قيل: «ففيه من كل مثل: فيه من كل نمط من أنماط الخطاب، وفيه من كل وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول.

وفيه من شتى اللمسات الموحية، العميقة التأثير. وهو يخاطب كل قلب، وكل عقل... في كل بيئة وكل محيط.

وهو يخاطب النفس البشرية في كل حالة من حالاتها.

وفي كل طور من أطوارها». اهـ

* * *

لقد جاءهم القرآن بكل ما يغطي حاجات الإنسان:

«من كل معنى غريب... هو أوضح وأثبت من أعلام الجبال... في عبارة هي أرشق من سائر الأمثال».

وقد بالغ في ذلك حتى أزال الأعذار وأتى بما فوق الكفاية من الإنذار» حتى صار ذلك البيان مثلاً شرودًا يضرب.

وإذا كان الطبع البشري يتطلع إلى الغريب العجيب من الأخبار فها هو ذا القرآن يوافيكم بكل غريب عجيب.

وإذا كان القلب البشري يبحث عن المتعة فهذا هو القرآن يقص عليهم أحسن القصص.

لقد صرف الله (تعالى) فيه من كل مثل ... لعلهم يتذكرون... قلَّب الأمور والدلائل على وجوهها... فاتضحت المعالم، على ما يقول الرازي: «ذكر (تعالى) دلائل التوحيد... ونفي الشركاء والأضداد في هذا القرآن مرارًا، وذكر شبهات منكري النبوة والمعاد مرارًا وأطوارًا، وأجاب عنها».

يقول (تعالى):

﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل...﴾ [الإسراء: ٨٩].

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل...﴾ [الكهف: ٥٤].

﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ [طه: ١١٣].

﴿وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ [الأحقاف: ٢٧].

هذا ما فعله الخالق... فماذا فعل المخلوق؟

أبى أكثر الناس إلا كفوراً... وكان الإنسان أكثر شيء جدلا...

* * *

وإذن... فلا عيب... لا في الرسالة... ولا في الرسول... ولكن العيب هناك... في قلوب عليها أقفالها... وقد كان المتوقع أن ينشئ في قلوبهم ملكة التقوى... أو على الأقل يُحدث لهم ذكرًا يُحد من افترائهم على الحق...

لكنهم لم يفعلوا...

* * *

﴿ولئن جئناهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾.

إن جئتهم بآية... بدلالة واضحة تؤكد صدقك...

لئن جئتهم بآية غير ما جئتهم به مما اقترحوه، ووعدوا الإيمان به ـ مرئية كانت أو مسموعة... ماذا يحدث؟

أولاً: يهربون من مناقشة الآية المعلنة وما تدل عليه إلى اتهام كتيبة الدعوة كلها، لا الذي جاءهم بالآية وحده، فلم يقولوا: إن أنت، بل قالوا: «إن أنتم».

ثانيًا: يستخدمون أسلوب القصر افتيلتًا على أهل الحق الذين يزعمون أنهم خواء من كل معاني الخير... وما عندهم شيء منها أبدًا... وكل ما هم عليه ضلال في ضلال.

(١) في ظلال القرآن.

ثالثًا: وكما أنهم لم يكونوا موضوعيين حين عمموا الحكم... كذلك لم يكونوا موضوعيين ولا جادين حين وجهوا السهام إلى رموز الأمة من العلماء في قولهم: «إن أنتم إلا مبطلون».

وكان الظن أن يوجهوها إلى الآية نفسها... لكنها فكرة قديمة جديدة يتوارثها الماكرون الذين يحاولون بالاتهام هزّ صورة علماء الأمة حتى تهتز من خلالهم مبادئ الإسلام، من أجل ذلك «لا يكتفون بالتكذيب... بل يتطاولون على أهل العلم الصحيح» وهم في تطاولهم يكشفون خيبتهم:

أ ـ إنهم في اتهامهم لأهل العلم الأصيل غير مقتنعين بما به يتهمون.

ذلك بأنهم «كفروا» ويعني ذلك: أنهم يسترون الحق... الحق المستكن فعلاً في كيانهم... لكنهم يتجاهلون نداءه فيهرفون بما لا يعرفون...

ب ـ وهٰذا سر تعبيرهم بأسلوب القصر: «إن أنتم إلا مبطلون»... يقولون لأهل الذكر: أنتم مبطلون ... دون سواكم ... تتحملون وحدكم مسئولية الضلال...

وهٰكذا ... يعبرون عن قانون من قوانين النفس الإنسانية التي تخفي الحق في قرارها ... ولأن هٰذا الحق يصرخ فيها من الداخل مكذبًا إياهم... تراهم يلجأون إلى صيغ التأكيد! اسكاتًا لهٰذا النداء الذي يهزهم من داخلهم...

* * *

وليتهم يناقشون القضية المعروضة بإنصاف وموضوعية ولكنهم يتجاهلون الآية... يتجاهلون العلامة اللائحة الواضحة... وفي رائعة النهار... ثم يسددون سهامهم إلى الدعاة ... في محاولة لهز شخصياتهم بهٰذه التهمة

النكراء... إرادة هزٍّ المبادئ التي يدعونهم إليها كما قلنا.

وهكذا يحاول المبطلون رمي المصلحين بدائهم ثم يهربون... وهم بهذا المسلك المعيب جهلاء... «يطلبون العلم... مصرين على الباطل إصراراً... إنه الجهل المركب إذن... الجهل المانع صاحبه :

أ ـ من إدراك الحق.

ب ـ ثم هو وازعه ليكذب الحق.

«كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون».

أجل! طبع الله (تعالى) على قلوبهم.

فلا يدخلها نور...

ولا يخرج منها الضلال...

إنهم لا يعلمون ولو حملوا أرقى الشهادات... «لأنهم لا يطلبون علم ما يجهلونه... رضًا منهم بما لديهم من جهالات... سموها هدايات وكمالات».

* * *

وقد يسمون أنفسهم علماء... أو تُسميهم الدهماء كذلك... لكنهم «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا»... إن عقلهم مُولع بالبحث في القمامة... فهو يصدر إلى قلوبهم صوراً رديئة... تردم نبع القلب الصافي ليصير من بعد أرضًا جرداء...

وقد يستهويهم الجمال يومًا... ولكن على طريقتهم... حين تستوقفهم الجملة المكشوفة، أو الجسد العاري، غافلين عن جمال الحق... الذي منعتهم القسوة من الإحساس به... ذلك بأنهم يكرهون الحق... بل يضيقون بكل ما

يذكرهم به ومن يذكرهم بجلاله وجماله.

* * *

وهكذا يأتيهم القرآن بكل جديد مفيد... بكل أصيل من العلم ونبيل من الأخلاق... لكنهم كالحُمُرُ المستنفرة... ولّوا الأدبار وراء ثقافة ضحلة... عقيمة يستجدونها من هنا وهناك... يستجـدون ما يضرهم ولا ينفعهم باسم التجديد ورفض التقليد.

أجل... يستـجدون النخالة... وفي البـيت الدقيق... ويستسـقون العين الحمئة... ومن تحتهم يجري الماء الطهور!

* * *

آفة العلم:

وهكذا يستجمع المعاندون سلبـيات العلم وهي: النسيان، وتلك آفته... والنكد... وهو تكذيب الحق... وإضاعته... حين وضعوه في غير موضعه

* * *

موقف الداعية:

إن الحق (تعالى) يأمـره بالصبر «فـاصبر»... فلتكن لك من الصـبر جنة واقية... إن الصبر جواد لا يكبو... وسيف لا ينبو... وهو العدة في الشدة.

فاصبـر لأن وعد الله بنصرك حق... آت لا ريب فيه... افـعل ما أمرك من الصبر... ينجز لك ما وعدك من النصر.

﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾

«كن بعيدًا منهم بالغلظة والجفاء، والصدع بِمُرِّ الحق من غير محاباة مّا.

بُعدًا لا يطمعون معه أن يحتالوا في خفتك في ذلك بنوع احتيال».

* * *

من دروس الدعوة:

ومن دروس الدعوة في الآية الكريمة ما ذكره الرازي: «فإن طلبوا شيئًا آخر - بعد الوفاء بالنصح - فذلك عناد. ومن هان عليه تكذيب دليل... لا يصعب عليه تكذيب الدلائل... بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل آخر بعدما ذكر دليلاً جيدًا مستقيمًا ظاهرًا لا غبار عليه، وعانده الخصم».

* * *

ويعني ذلك أن هناك شُطَّارًا في المراء يريدون به شغل الجادين عن قضايا الحق...

وعلينا ألا نرخي لهم الحبل... حتى لا يذهبوا بنا في الأرض حيارى... وبعد أن تقوم الحجة وتظهر المحجة... فينبغي أن يتوقف الجدل... فما داموا لا يستسلمون، لا يريدون أن يستسلموا لمنطق الحق الذي ظهرت دلائلة.

لأن ذلك الاسترسال في الأدلة يحقق من السلبيات ما يلي:

١ - إنه يوهم أن دليل المحق السابق فاسد.

٢ - أو أن المستدل المحق... جاهل.

وفيما يتعلق بالمعاند فإن إثباته ... متسلحًا بالصبر الجميل... محبطًا سعي الماكرين الذين يريدون استفزازه وإخراجه لنيزل إلى مستواهم... حتى يكونوا في الكفر سواء... موقنًا أن المهرجين - وإن كسبوا بالتهريج جولات... وحققوا نصرًا جزئيًا... فهم مع هذا كله ضعاف بالنسبة لك.

فأنت باليقين قوي...

وهم في غياب هـذا اليقين ضعفاء.

* * *

إن لوح الزجاج الهش ... لن يخـدش السبيكة الذهبية... لكـن السبيكة هي التي تخدشه... بل تدمره... فإذا هو زاهق...

ويبقى الأصيل دائمًا... وإن نجح الدخيل في التشويش عليه يومًا...

«فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

فلا تتساهل معهم بفعل متـراخٍ مجامل بحيث يطمعهم فيك... لا تقدم لهم تنازلات تشجعهم على المضي في طريق العناد...

يعينك على ذلك تصورك أنهم «لا يوقنون».

فهم ضعاف مهـازيل... حين خلت قلوبهم من اليقين الذي يثبت الله به الذين آمنوا. «إنهم شـاكـون... فـأدنى شيء يزلزلهم كـمن يعـبـد الله على حرف». فلن يضروكم إلا أذى!

وهـذا مما سوف يكشف عنه الزمان... وتأتي به مطايا الحدثا.

* * *

أما بعد...

فقد رُوي أن أحد الخوارج كان يصلي خلف الإمام علي (عليه السلام) ... في صلاة الفجر.

وفجأة قرأ الخارجي ـ وهو في الصلاة قوله (تعالى) ـ يعرّض بالإمام ـ : ﴿ولقـد أوحي إليك وإلى الذين من قـبلك لئن أشـركـت ليـحـبطن عـملك ولتكونن من الخاسرين﴾ فردِ عليه الإمام ـ وهو في صلاته ـ : ﴿فاصبر إن

وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾.

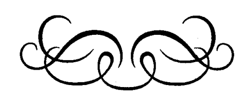
لقد كان هذا الخارجي الهجَّام واحدًا من المتخصصين في الهجوم على رموز الأمة من علمائها المخلصين، هذا الحاقد الذي لم يراع حرمة الزمان ولا حرمة المكان، ولا حرمة الإمام... وأخطر ما فيه أنه وهو يعبر عما في نفسه... يستغل آي القرآن في هدم رجل القرآن!!

ثم خلف من بعدهم خلف اليوم يستخدمون ـ كما قيل ـ : الدين قبل الديناميت والقرآن... قبل مدفعية الميدان، وهكذا حاول نابليون مع أهل مصر الطيبين الودعاء «لقد فهم أن الدين في الشرق أهم من المدفع... وأن الشريعة تسبق الخطة... وأن الفقيه أخطر من الجنرال...

ولكنه لم يفهم: أن الشعب المصري بتكوينه الطبيعي وميراثه الوطني والخلقي والنفسي: شعب يتسم بالوداعة والقناعة والارتباط بالجذور. وهو مثل النيل...

لا يقبل الانعطافات المفاجئة... ولا الانحرافات الحادة... ،لا المغامرات غير المتوقعة» وهو ماض في طريقه قدمًا ومن تجاهل ذلك... فهو مكسور... ماديًا... منكسر نفسيًا... أما المصري المؤمن... المكافح الشريف... فهو حتى لو هزم يومًا... فإن هزيمته تكون نصرًا على ما يقول أبو تمام:

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة　　تقوم مقام نصر إن فاته النَّصر



بين الساطع واللامع

يقول الله (تعالى): ﴿الٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ١ ـ ٧].

* * *

تمهيد ...

في آخر سورة الروم ذكر الحق (تعالى) موقف الذين لم ينتفعوا بهُدى القرآن متهمين أهل الحق بدائهم حين قصروهم على الضلال... بينما هم الضالون الراسخون في الضلال.

وفي هذه الآيات الكريمة ينوه الحق (تعالى) بالقرآن الكريم الذي أعرضوا عنه وكيف أحسن المؤمنون استقباله فكان لهم هدى ورحمة وكانوا به محسنين.

يقول (تعالى): ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾.

إن آيات الكتاب هناك في أفقها العالي... لا يصل إليها من كان مقصوص الجناح...

وإنما هو النَّسر الضارب بجناحيه في جو السماء صاعدًا إليها... مقبلاً عليها... وما النسر هنا إلا ذلك المؤمن الذي تخفف من ماديته... من ذنوبه

حتى تسنم القرى العالية...

والرحلة وإن كانت بعيدة محفوفة بالمخاطر... إلا أن الوصول إلى القمة ميسور لأصحاب العزائم الماضية، وذلك بأنها آيات... علامات واضحات... فرقان يحسم الخلاف... فإذا الراشدون سائرون على الدرب... واصلون إلى ما أرادوا من كمال...

وبينما المنحرفون يضربون في التية بلا دليل... فإن أصحاب العزائم الماضية... على هدى ... إنهم «عليه» متمكنون منه... لا ينحرفون عنه.

* * *

ثم إنها آيات الكتاب... الذي لا كتاب سواه... الكتاب الحكيم.

ومن حكمته أن ينزل منجمًا... تثبيتًا لقلب الرسول... ثم لأن العرب أمة أمية... تعتمد على الحفظ... وفي نزوله منجمًا إعانة لهم على ذلك...

وأيضًا : ليتمكن المناوئون من تدبر الآيات برفق... بالإضافة إلى متابعة الحوادث وملاحقتها بما يناسبها من أحكام.

ومن حكمته: ألفاظه البليغة... ومعانيه السامية... لا ينقض ما أبرم... كما أن أوامره ونواهيه تحقق مصلحة البشر... إنه محكم... غير قابل للاختراق...

وفيه تفصيل كل شيء في دائرة من هذا الإحكام... أو هذه الحراسة المشددة... فلا تطوله يد بالتحريف.

ثم هو مصدر الهداية... مطلق الهداية... متحررة من قيد الزمان... وقيد المكان... إنه نفس الهدى... ونفس الرحمة التي يطمئن بها الخطو... وتثبيت الأقدام ... ثم هو تفصيل كل شيء... فهو يغنينا عن سواه.

وهو كذلك للمحسنين الذين استقبلوه بوعي كامل... أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى... فحفظوه... ثم حافظوا على مبادئه فكانت لهم شرعة ومنهاجًا: أقاموا الصلاة... فحسنت صلتهم بالخالق.

وآتوا الزكاة... فتمت عبوديتهم بالشفقة على المخلوق... ثم بقيت الآخرة في وعيهم حارسًا مقيمًا: يراقب... ويعاقب... فإذا عملوا... جاء عملهم صالحًا... وإذا نطقوا ... نطقوا دُرًا... ولم ينطقوا هجرًا... وإذا كتبوا كانت أناملهم كدود القز... يجعل من ورق التوت حريرًا!

لقد اختلط القرآن بعظامهم ودمائهم... فتكلموا به... بل وعاشوا بقيمه... إلى الحد الذي جعلوه حكَمًا حتى على الدقيق من حياتهم: فلم يكونوا يقولون: زرعنا... ولكن يقولون: حرثنا... تمامًا كما علمهم القرآن : «أأنتم تزرعونه أن نحن الزارعون» وكانوا يدعون ربهم متأثرين بالقرآن... فكان من دعائهم: الحمد لله الذي سقانا الماء برحمته عذبًا فراتًا... ولم يجعله بذنوبنا ملحًا أجاجا.

* * *

الفائزون بالجنة:

ومهما ادعى المدعون... ومهما اغتر المزيفون بما يملكون من ألوان التهريج فإن النتيجة أخيرًا لصالح الجادين... دون سواهم من هؤلاء الهازلين كما يفيد أسلوب القصر في الآية الكريمة: ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ ... وضمير الفعل هنا يحسم القضية مؤكدًا للمؤمنين ألا ييأسوا ... فالعاقبة للتقوى... أي لهم دون غيرهم.

* * *

الساطع.. واللامع:

ومع سطوع الحق... إلا أن هناك من السطحيين من يؤثر «اللامع» الخاطف للأبصار... وإن لم يكن له مضمون:

وذلك قوله (تعالىٰ): **﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾** وإذا علمت أن كلمة «الناس» من النوْس، وهو التذبذب والاضطراب... انكشفت لك طبيعة هٰؤلاء الذين يشغبون علىٰ الحق: إنهم خفاف الأحلام... متقلبون... لا وزن لهم... وهم يلهثون وراء البريق الخداع... وراء كل لامع... وراء وهج الزيف... فليس لهم من الثبات ما يتحملون به مسئولية «الساطع» الذي يشع بريقه من ذاته... لأنه الذهب الخالص...

* * *

من أجل ذلك تراهم في ضوء الآيات الكريمة يحاولون أن تكون الحياة من حولهم صورة لما في قلوبهم: ومن ثم يبذلون الجهود لهدم ما يبني المؤمنون وتخريب ما يعمرون؛ ليضلوا الناس «بغير علم».

ينحازون للغوغاء ... ويستدبرون العقلاء... يحاولون خطف الأبصار بهٰذا الزيف... وهٰذا البزيق...

ومن هٰؤلاء : النضر بن الحارث:

لقد ذهب إلىٰ بلاد فارس... ثم عاد منها بمجموعة من الأساطير زاعمًا أنه سوف يغالب بها ما جاء به الرسول من الحق... ثم في النهاية يغلبه! ولأنه غير مقتنع شخصيًا بجدوىٰ محاولته... فقد قرر استصحاب بعض المغنيات... ثم سلطهن علىٰ الناس ليقلن لهم: هٰذا خير أم ما جاء به محمد؟

* * *

تفاهة موقف النضر:

لقد تنكر «النضر» لعروبته حين تجاهل ثقافتها الأصيلة... وقيمها النبيلة... ثم راح يستورد الغريب من صور الإباحية... وقد بدت تفاهته فيما يلي:

١ ـ لقد عدل عن الحكمة إلىٰ غيرها... واستدبار الحكمة ابتداءً عمل غير صالح.

٢ ـ ثم هو يعدل عنها... لا إلىٰ مفيد من القول أو راشد من العمل... ولكن إلىٰ اللهو.

٣ ـ وعلىٰ اللهو مزيد من السخرية من الحق.

٤ ـ ولاحظ أنه يشتري هٰذا اللهو بالمال... بينما الحق يعرض عليه نفسه... وبالمجان!

يريد بذلك كله: مصادمة حقائق القرآن... وهيهات.

[فيوصل النفس بما أوصلها إليه من اللذة إلىٰ مجرد الطبع البهيمي، فيدعوها إلىٰ العبث: من اللعب: كالرقص وغيره. مجتهدًا في ذلك... معملاً الحيل في تحصيله باشتراء سببه.

معرضًا عن اقتناص العلوم، وتهذيب النفس بها عن الهموم والغموم. فينزل إلىٰ أسفل سافلين... كما علا الذي قبله بالحكمة إلىٰ أعلىٰ عليين»[1].

* * *

(١) نظم الدرر.

الإسلام والجمال:

ولا يعني ذلك أن الإسلام يحرم الاستمتاع بالجمال... بل إنه ليحرض المؤمنين على تذوق ما في الكون من جمال هو في ذاته دليل وحدانية الله (تعالى) وقدرته... وفي قوله (تعالى) ﴿**ذواتا أفنان**﴾ إنه يدعوك إلى تلمس الجمال في الغصن الرطيب: في الورق الأخضر... والثمر... والزهر... والظل... والمنظر الحسن... والجو المنعش... إنه الجمال المحكوم بقيم الكمال.

لكن العابثين كانوا على ما يقول (سبحانه): ﴿**وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرًا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرًا...**﴾ إنه يرفض الجمال في الزهرة اليانعة... أو في الماء الجاري... ثم يطلبه هناك في الجسد العاري!!

﴿**فبشره بعذاب أليم**﴾.

ذلك بأنه تنكر لصوت فطرته التي تؤكد له: أن من يقبل على أسباب الموت... وباختياره فهو مجنون... وكذلك من يؤثر الثقافة الضحلة على الحق المبين فإنه أدخل في باب الجنون...

وكلاهما متنكر لصوت الفطرة... ومنطق الواقع معًا!

وهكذا يصبح الخطأ خطيئة... إذا جاءك الحق يطرق عليك الباب فإذا أنت متجهم له... بل إنك لتهاجمه... غرورًا وكبرًا، لا مسوغ لهما.

في الوقت الذي سبق فيه المؤمنون إلى منابع الخير فشربوا عذبًا فراتًا... هؤلاء الذين مرغوا الحياة على الأعتاب... فرارًا من الإعجاب: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقًا وهو العزيز الحكيم**﴾.

* * *

أما بعد...

[فإن الاستعمار اليوم لم يعد هو استعمار الأرض بالسلاح، وإنما استعمار العقول بالأفكار، فلا يحتاج إلى القلب الجريء الذي يجرد الأساطيل ويجيش الجيوش وإنما أصبح الآن الاستعمار الخسيس اللئيم.

يغسل يديه ويستعيذ من الوسواس الخناس، ويستعمل أيدي الآخرين في أغراضه ... ولا يقتل ولكن يستأجر القتلة يقتلون له بالفلوس ولا يسرق ولكن يستأجر اللصوص يسرقون لحسابه بالأجر.

الاستعمار الجديد تقوم الآن به شركات تصدير واستيراد ومراكز تدريب وتجنيد للعملاء... ورؤساء عصابات لهم أرصدة بملايين الدولارات في بنوك أمريكا يعيشون منعمين مترفين في شقق فاخرة في جنيف ولندن غارقين في بحار الشمبانيا. وهذا يعني أن استعمار اليوم لا يتعجل أمره... وأن أسلوبه المفضل أصبح أسلوب النَفَس الطويل...

إنه الآن لا يتحرك بجيوشه ليحتل مدنًا أو يحاصر قلاعًا محصنة كما كان يصنع الصليبيون في الماضي البعيد وإنما... هو يتسلل الآن إلى الجذور ليقتلعها... ويسمم الآبار... ويقتل البذور... ويلوث الينابيع وينشر الجراثيم ويبث الأفكار الأشد قتلاً من الجراثيم... والفيلم السينمائي... والخبر الكاذب... والتليفزيون الترفيهي... والفكر المادي الملحد، والعلمانية المنحلة، ونشر العادات الاستهلاكية، والرفاهية السطحية... والعادات المظهرية... والمسلسلات التي تقتل الوقت... والإعلام المفترس الذي ينهمر علينا من الأقمار الصناعية عبر الفضاء ليمغنط العقول الفارغة... وليفرغها من محتوياتها أكثر فأكثر...

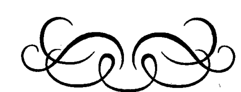
كل هذا هو استعمار ذكي جديد في ثوب باهر من الإلكترونيات يأخذ

يالألباب وينسيك تمامًا أنه استعمار... وأنه عدوان عليك... وينسيك نفسك... وينسيك مصالحك... وينسيك أولادك.

والعدوان على العقل يجري الآن على عدة مستويات وعلى عدة أصعدة... على صعيد الجريدة المحلية... وعلى صعيد الكتاب **(في الجامعة الأمريكية كان هناك كتاب مقرر على الطلبة يشتم النبي (ﷺ) ويسخر من الإسلام لمؤلف شيوعي يهودي هو ماكسيم رودنسون)** وعلى صعيد الفيلم... وعلى صعيد الأغنية... وعلى صعيد الاقتصاد نجد ما هو أكثر **(فيعتدي على جيبك من خلال التضخم والغلاء والبطالة ويعتدي على عقلك من خلال أفلام خرافية بلا معنى)** وكل هذه الخيوط يمسك بأطرافها استعمار اليوم... وحيتان الصناعة والاقتصاد... أمريكا وانجلترا وأوروبا وإسرائيل وهم رواد هذا العدوان.

وأنت وأنا... وكلنا... أردنا أم لم نرد... في حرب مستمرة مع كل هذا فهكذا أراد بنا النظام العالمي الجديد... الذي تمسك بأطرافه أمريكا... وبين أنامل أمريكا تختفي إسرائيل... وفي كفها يختفي أحبار الهيكل بأحلامهم المجنونة... لنعيش في حرب لا تنتهي.

وكنت أظنها حربًا قصيرة المدى تنتهي في السنوات الخمس القادمة... ولكني أراها اليوم... أطول مما ظننت... وربما أظلت السنوات العشر القادمة... وربما أكثر... إلا إذا تداركنا الله بلطفه... إنه الامتحان الطويل الذي لن تكون نهايته إلا نهاية الدنيا نفسها].



الذين يخسرون أنفسهم

يقول الله (تعالى) في سورة الجاثية: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الآيات: ٦ ـ ١١].

* * *

تمهيد...

يقول ابن تيمية في «دقائق التفسير» ما ملخصه:

«انقسم الناس في سماع ما جاء به (ﷺ) أربعة أصناف:

١ ـ صنف معرض ممتنع عن سماعه.

٢ ـ وصنف سمع الصوت، ولم يفقه المعنى.

٣ ـ وصنف فقهه، ولكن لم يقبله.

٤ ـ والرابع: الذي سمعه سماع فقه وقبول.

* * *

فالأول: كالذين قال فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

والصنف الثاني: من سمع الصوت، لكن لم يفقه المعنى، وهو المشار إليه بقوله (تعالى): ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١]، كالبهائم السارحة في المراعي.

والصنف الثالث: من سمع الكلام وفقهه لكن لم يقبله، ولم يطع أمره... كاليهود الذين قال الله (تعالى) فيهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾.

والصنف الرابع: الذين سمعوا سماع فقه وقبول: فهذا هو السماع المأمور به في قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

* * *

نماذج الرافضين:

ومن النماذج المعرضة الممتنعة عن سماع ما جاء به الرسول (ﷺ) ما بينته آيات سورة الجاثية:

إن الآيات الكريمة لا تتحدث «عنه» وإنما تتحدث «إليه» فهو حاضر... مدعو إلى قضية هو طرف فيها... وليس هو بالغائب عن الساحة... وإنما هو مخاطب ... مأمور أن يحدد موقفه: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾.

إنها من العلو والشرف... في سمواتها العلى... لكنها متاحة لك الآن... تطرق عليك الباب ... كهذه الشمس الساطعة في كبد السماء... إنها عالية... عالية... لكن أشعتها معك، تمنحك الدفء والضياء.

* * *

الأصالة والمعاصرة:

والقرآن الكريم... فيه نبأ من قبلكم... وذلك هو الماضي... وخبر من بعدكم... وذلك هو المستقبل... وحكم ما بينكم... وهـذه هي المعاصرة... إنها إذن : الأصالة والمعاصرة... يواكب بها القرآن أحداث الزمان:

من حكم به عدل.

ومن قال به صدق.

ومن عمل به أجر.

فبأي مذهب بعده تؤمنون... وتلك هي الأصالة التي تدعون والمعاصرة التي تطلبون؟

إنه المنهج القديم الجديد...

إني بنيت على القديم جديده وأقمت من بنيانه ما هدموا

وإذن ... فهو الأولى بالاتباع... لأنه الأساس... ولأنه المقياس :

والبيت لا يبتنى إلا على عَمَد ولا عماد إذا لم تُرْس أوتاد

* * *

أنانية البشر:

ولكن بعض من يدعون العلم... يرفضون الهدى الذي يعرض نفسه عليهم. وإذا قيل لأحدهم: تأمل هـذا القرآن... وخذ من قيمه زادًا يغنيك... تأخذه العزة بالإثم ... حتى إنه ليكره أن تقول عنه إنه قرأ لفلان أو علان...

ذلك بأنه يرفض كل ما يفهم منه أنه تابع لغيره... ويصر على أن يكون: مبدعًا... مستقلاً بأفكاره التي ينشئها إنشاءً على غرار ما قاله قارون فيما حكاه

عنه القرآن الكريم: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾.

* * *

الذين يؤثرون الانتحار:

وما ظنك برجل مثقف تدعوه إلى ما يكرمه ويخلد ذكراه... ولكنه يرفض العرض السخي... مؤثرًا أن يموت ... بيده... منتحرًا... ليصير كهذا الذي قيل عنه:

«يرى غمرات الموت... ثم يزورها»

والعقل يقول: من رأى بوادر الموت... فحري به أن يفر منها... لا أن يقبل عليها.

ومن أقبل عليها... فهذا مسلك مستغرب في العادات وفي الطباع».

* * *

حرية التعبير... وسلامته:

وإذا كان من حق الباحث أن يكون حرًا في تعبيره... فإن من حق العلم عليه أن يكون بنفس القوة سليمًا في تعبيره!

لقد جاءته الآيات «بالحق» مدعومة بالأدلة الشاهدة بصدقها... ومن حق العلم عليه أن يرفع الراية البيضاء مستسلمًا...

لكنه لم يفعل... وكان كما وصفته الآيات: ﴿**ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها...**﴾ إن كلام الله (تعالى) هو: أجمل الكلام... وأكمل الكلام... ولكن العيب في المستمع وليس في القرآن... وعيبه أنه: أفاك: مفتر على الله الكذب.

أثيم: مبـالغ في الإثم، يغطي بالمبالغـة فشله، يحـاول تجاهل إحسـاسه بالذنب... والذي يغالبه من داخله.

* * *

الباحث الحر:

لن يكون هـذا المفترئ باحـثًا حرًا... وإذا أردت تصـور مفهـوم الحرية حقًا... فتأمل موقف الشاعر ... عُبيد بن الأبرص:

لقد سجنـه النعمان بن المنذر... ثم قرر أن يقـتله... لكنه أرسل إليه في سجنه طالبًا منه أن يمدحه... ليعفو عنه.

فقال له عبيد: أما وأنا أسير... فلا.

فأرسل إليه النعمـان من يبلغه أن الملك يرده إلىٰ أهله ثم يلتزم بعطائه... فقال عبيد:

أما علىٰ شـرط المديح... فلا! وفضَّل الرجل الموت... إيمـانًا بالحرية التي طالما تغنىٰ بها...

* * *

أما عن سـلامة التعـبير... فـإننا نطالع ما كـان من ابن المقفع ... الذي غضب عليه المنصور... فأوغر إلىٰ عامله علىٰ البصرة: «سفيان بن معاوية» أن يقتله... ولقد اختار المنصور «سفيان» بالذات... لما كان يعلمه من كراهته لابن المقفع... لكن ... لماذا يكره سفيان «ابن المقفع» ؟! لأنه لم يكن في التعبير عن رأيه ملتزمًا بالأدب... وفضل أن يكون جارحًا... علىٰ أن يكون ناصحًا.

فقد كان أنف سفيان كبـيرًا... ملفتًا للنظر... وكان ابن المقفع كلما دخل عليه يقول: السلام عليكما!! يريد سفيان وأنفه!!

وهكذا يسقط ابن المقفع في الامتحان... وربما كان على الحق في موقفه من والي البصرة... لكنه لم يكن حكيمًا في تصرفه، ولم يحفظ للحاكم هيبته... وهو هو صاحب الحيلة في الخطاب عندما أجرى أفكاره على ألسنة الطيور... فرارًا من بأس الحكام... لكن حكمته خانته هذه المرة... وكان عليه أن يفهم: أن الأديب ... يجب أن يكون مؤدبًا!!

* * *

هاربون من الحق:

يقول (عز وجل): ﴿ يسمع آيات الله تتلى ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها﴾.

وتأمل من جحوده أنه بمجرد أن يسمع الآيات البينات... فإنه بدل أن يفكر فيها... يهرب منها.

إذا سمعها تتلى عليه... تتحدث إليه... راغبة في هداه الذي يأتيه مجانًا... فإنه يُصر... كالحمار يقف صارًا أذنيه... صادرًا في هروبه عن عقدة الكبر الذي يسول له ازدراء الحق... وليس هذا فقط... فإنه: ﴿إذا علم من آياتنا شيئًا اتخذها هزوًا﴾ إذا شم رائحة الإسلام في فكرة... اتخدها هزوًا... إنه يضيف إلى سوء النية سوء الأدب.

* * *

وتأمل من افترائه واجترائه على الحق أنه لا يتخذ الشيء المعروض عليه هزوًا... بل إنه يعمم الحكم فلا يقتصر على القدر المعروض وإنما يتخذ كل الآيات سخريًا: ما علمه ... وما لم يعلمه!

فإذا تذكرت آخر سورة الروم وكيف يعمم الجاحد حكمه فلا يقتصر في

اتهامه على من يعرض عليـه الآية وإنما يصم بالباطل كل عالم **﴿إن أنـتـم إلا مبطلون﴾**... إذا تذكرت ذلك... انكشفت لك خبيئة الضالين الذين لا يريدون إلا ما يدغدغ عواطفـهم... ويلبى شهواتهم... أما ما كان فـيه رائحة الإسلام فإنهم عنه معرضون.

يقول المفسرون:

لم يقل : اتخذه: «للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله (تعالى) على محمد (ﷺ) خاض في الاستهزاء بجميع الآيات... ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه».

وما يعنيه فقط هو البحث عن كل ما يظنه غميزة ومطعنًا... ليهرف بما لا يعرف... غير منتفع بآيات ... إن لم ينتفع بها... فليس هناك ما ينتفع به».

﴿أولئك لهم عـذاب مهين﴾ ولهم كذلك عـذاب أليم... ولهم عذاب مهين... جزاءً من جنس عملهم... حين قلَّبوا الأمور للإسلام إرادة في محاولة إطفاء نوره... فـكان أن قلبهم الله في العـذاب: الجسمي... والنـفسي... في الدنيا ... بما يحسون من هوان العـاصي... ثم في الآخرة بما أشارت إليه الآية الكريمة:

«من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبـوا شيئًا... ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم».

وتصـور الآيات إلى أي حـد هم : غافـلون عنها... بـل عمـون... لا يبصرون مـا وراءهم من عذاب يوشك أن يحتويهم... هـذا العذاب الذي إذا جاء ... فلن يغني عنهم:

أ ـ ما زعموه نجاحًا.

ب ـ ولا من ناصروهم على الباطل من روادهم الذين سولوا لهم العدوان.

الذين اتخذوهم سندًا... ليكونوا لهم عزًا... ﴿**كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا**﴾.

* * *

قيمة الحرية:

وقد يتحدث المشاغبون عن الحرية التي يطلبون... ثم لا يجابون... زاعمين أن الإسلام لم يمكنهم من تمثلها... في محاولة لكبتهم... وتدمير طاقات «الإبداع» في كيانهم.

والإسلام بريء مما يزعمون... وما تزال قيمة الحرية زاهرة بين منظومة القيم الإسلامية: وإذا كانوا يقولون: «إن السماء تتسع لكل النجوم... فلا تحجب نجمة ضوء نجمة أخرى» إذا كانوا يقولون ذلك ... فإن الإسلام كان في هذا الباب سماء ما طاولتها سماء: لقد وسع الإسلام كل الآراء... وكل الأفكار... والتي دخلت ساحته منضبطة بما شرع من قواعد... فلم يضق بها... وتأمل كيف اختلف الفقهاء...

فكان الرأي يلقح الرأي... والشعاع ينضم إلى الشعاع...

تتعدد زوايا الرؤية... حتى يتمخض الحوار عن التوفيق.

* * *

وقد يضيق قوم بقواعد الحوار وضوابطه... راغبين أن يكونوا زهورًا تنبت في الصحراء بلا منة من البستاني... وبلا ضابط من علم الزراعة...

وقد يضيق آخرون بالصوت الجميل إذا كان المغنِّي محكومًا بضوابط

الغناء... إذا كان هناك من هو كذلك... فإن العقلاء لن يكونوا تحت رحمة هـٰذا المزاج الفوضوي المدمر... والذي يريد الأدب أو الفن متعة للجسد... مهما تكن النتائج مدمرة.

وليتأملوا من مشاهد الطبيعة تلك القناة عبر الحقول... إنها وهي تحمل الماء عذبًا فراتًا... محكومة بضفتين... لكن ذلك لم يمنع الماء من الجريان عبر الحقول... ذات اليمين وذات الشمال... لينبت الله (تعالىٰ) به من كل زوج بهيج!

ولو جرىٰ الماء علىٰ ما يهوىٰ... بلا شواطئ حاجزه ... فسوف يصير بددًا في أخاديد الأرض... ثم يكون في النهاية مستنقعًا... !!

* * *

ألا إن الإنسان حر حقًا... طليق من كل قيد... إلا قيد الفطرة السليمة وقيد الشرع الحكيم... وما سوىٰ ذلك فهو أدب يحتاج إلىٰ أدب!!

وفي غياب الفطرة... والشرع يتحول المجتمع كما قيل بحق: إلىٰ منزل متداع ... ومن حوله من يدعون ملكيته والغيرة عليه... ومع كل مصلح آلة... وبدل أن يتعاونوا... يحاول كل منهم استبعاد الآخر... وفاتت فرصة إعادة البناء]... **والنتيجة:**

النتيجة هي:

١ ـ صراعات يتسع بها الخرق علىٰ الراقع.

٢ ـ الحرمان من مواهب كان من الممكن أن تعيد البناء.

٣ ـ وإنها لفرصة للقراصنة ينتهزونها ليحملوا من أنقاض البيت كل ما هو مفيد... بينما أصحاب البيت يتناحرون.

المنقذ من الضلال:

ولا منقذ من هـٰذا البوار وهـٰذا الدمار إلا الإسلام: ﴿**هـٰذا هدىً والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم**﴾.



محاولة يائسة

يقول الحق (سبحانه):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

تمهيد..

من تدبير الله (تعالى) لحفظ كتابه أن ينصره بالرجل الفاجر الذي يحاول الهجوم على الإسلام فإذا هو يدافع عنه... شاهدًا على نفسه بالتناقض... وللإسلام بأنه من عند الله!

والآية الكريمة شاهدة على صحة ما نقول: إنهم «الذين كفروا» أي: ستروا... فما هو الشيء الذي ستروه؟

إنهم ستروا الحق... على ما يقول النيسابوري:

«علموا أن القرآن كلام كامل: لفظًا ومعنى وكل من سمعه ووقف على معانيه وأنصف... حكم بأنه واجب القبول».

وما يقول الرازي:

«واعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل في المعنى وفي اللفظ، وأن كل من سمعه وقف على جزالة لفظة... وأحاط عقله بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول... فدبروا تدابيرًا في منع الناس من استماعه فقال بعضهم لبعض: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ غير مكتفين بالإعراض... فنهوا غيرهم ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ يكذبون على أنفسهم.

وهم بهذا المسلك المعيب يكذبون على أنفسهم التي فعلت ما ينكرون **﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾**.

* * *

ماذا فعل المبطلون؟

تولى زعماء الكفر كبر هذه الحملة الظالمة لهذه الوسائل:

١ ـ كانوا يأمرون الناس عند قراءته بالصفير والصياح، وإنشاء الشعر يشوشون بذلك على القارئ حتى يغلبوه على قراءته، فيقع في السهو والغلط.

٢ ـ ولما لم يُجد ذلك... طردوا الناس عنه طردًا... شاهدين على أنفسهم بالعجز.

وقد فعلوا ذلك «ولم يعلموا أن من نوَّر الله قلبه بالإيمان» وأيده بالفهم وأمده بالبصيرة وكوشف بسماع السر من الغيب فهو الذي يسمع ويؤمن... والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمان قلبه... ولا يباشر السماع سره.

* * *

يفضحون أنفسهم:

لقد قالوا ما حكاه عنهم القرآن **﴿لعلكم تغلبون﴾**.

أي: «ليكون حالكم حال من يرجى له أن يغلب... ويظفر بمراده في أن لا يميل إليه أحد... أو يسكت أو ينسى ما كان يقول. وهذا يدل على أنهم عارفون بأن من سمعه ولا هوى عنده مال إليه... وأقبل بكليته عليه.

وقد فضحوا أنفسهم بهذا فضيحة لا مثيل لها: وذلك لأنهم تحدوا به في أن يأتوا بشيء من مثله... فلم يجدوا شيئًا يترجون به الغلب إلا الصفير والتصفيق في معارضة ما علا عن أعلى ذرى الكلام إلى حيث لا مطمع ولا

مرام، فلا يفيد ما أتوا به معنى غير أنهم عاجزون عن المعارضة قاطعون بأنهم متى أتوا بشيء افتضحوا... وقطع كل من سمعه أنهم مغلوبون»[١].

«وهكذا يحكمون على أنفسهم بالجهل؛ لأنهم في الحال أقروا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل، والله تعالى ينصر محمدًا بفضله»[٢].

وهكذا... يرينا الله (تعالى) فيهم عجائب قدرته التي أنطقتهم بالحق من حيث لا يحتسبون.

يقول صاحب الظلال:

«وهي مهاترة لا تليق... ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة، والمقارعة بالبرهان... ينتهي إلى المهاترة عند من يستكبر على الإيمان.

﴿فلنذيقن الذين كفروا عذابًا شديدًا﴾.

وإذا كان القليل الذي يتذوقونه شديدًا... فكيف يكون حالهم مع الكثير منه؟!

المنتفعون بهدي القرآن:

إن للقرآن الكريم لغة لا يفهمها إلا المؤمنون... لأن لهم نفوسًا مصبوغة بالإيمان ... ومن ثم يحسنون فهم مراميه... والالتزام بها... أما من لم يتذوق طعم الإيمان... فقد خسر نفسه... وبالتالي لا تكون له أرض تنمو فيها بذور الخير. وربما كانت لهم عقول تعرف محمدًا أكثر مما يعرفون أبناءهم لكنهم فقدوا الجوهر الذي به يكون الإنسان إنسانًا.

إن القرآن الكريم غيور لا يقبل الشركة... وكل ثقافة ضحلة مستوردة لا يمكن أن تمتد لها جذور... مادام في الأرض مؤمن غيور.

(١) نظم الدرر. (٢) الرازي.

إنه التبديد ... وليس التجديد

إن أعـداء أنفسـهم لمخذولون «بقـوة الله : إذ ليس فيـهم رجل فصـيح بليغ... يكون له كالتعبـير من الطبيعة عن المذهب... حتى يثـبت مذهبهم فلا يدفع... ويقوم... فلا ينقض... ولن يأتي لهم هـذا الرجل...

فلو أنه اتفق لهم... لكان أشد أعدائهم، ولأغلظ فيهم النكاية... فمازال ينقـصـهم أبدًا... ولم يتـمـوا به أبـدًا... وذلك من عـجـيب تقـدير الله في العربيـة... لمكان القرآن منها... حتى لا يدخل في طمع أحد... ولا تناله يد متناول... فهو محفوظ بالقدر كما ترىٰ... والله غالب على أمره... ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

وإن طائفة من الذباب لو أصابت حاميًا مـدافعصا من النسور... فجاءت تطن بأجنحتها لتلوذ به... وتنضوي إليه... ثم قصف النسر قصفة بجناحيه... لأهلكها أو بعثرها وشردها... وهو كان في وهمها ملاذًا... وكان عندها حمىٰ فذلك مثل القوم وما يحتاجون إليه من الرجل البليغ إذا التمسوهُ فأصابوه»[1].

* * *

وقد يـحقق الماكـرون بعض الفوائد... لكنهم يـحقـقون ما يـحقـقون: «بالمكابرة واللجاجة... كما يسلبك اللص ما تملك بالجرأة لا بالحق... وبالحيلة لا بالإقناع... وعن غفلة... لا عن بينة».

(١) تحت راية القرآن (٧).

وهم في النهاية «غلطات إنسانية تخرجها الأقدار في شكل علمي أو أدبي لتعارض بها صوابًا كاد يهمله الناس، فيخشى الناس أن يتحيف الخطأ صوابهم ... أو يذهب به... فيستمسكون بحبله... ويشدون عليه ويعود ذلك الصواب... بعد ظهور الخطأ الذي يقابله... ووقوفه بإزائه موقف العدو من العدو، كأنما ظهر دليله، لا نقيضه فيعرف الناس وجه الحاجة إليه، ومكان الغناء فيه... وضرورة المنفعة به، وكان وشيكًا أن يضيع... فكأنهم استنقذوه.

وكل ذلك مما يكبره ويرفعه... ويبين عنه أحسن إبانة وأوضحها... وكل ذلك مما يغري به الحرص على سنة طبيعية قاهرة لا تدافع... ومازالت هذه من حكمة الله فيما يحوط به الدين الإسلامي، وكتابه العربي الخالد:

فكلما وهن عصر من عصوره... رماه الله بزنديق... فإذا الناس أشد ما كانوا طيرة... وأبلغ ما كانوا دفعًا ومحاماة... وإذا الدين أقوى ما كان فيهم وأثبت.

وإذا الزنديق كأنما سيق إليهم من جهنم ليقول لهم: هلم إليها! فيقول تبسم النار عليه: إياكم وإياها!!

فالمجددون الملحدون: هم جزء من الخطأ يخرج من عمله جزء من الصواب. وما أشبههم بالمواد السامة: يداف قليلها في الدواء لتكون قوته من قوتها. فإذا مازجته عادت فيه غير ما كانت ... وهي في نفسها لا تزال كما هي»[1].

ثم يقول الرافعي في هذه الفئة الماكرة:

«ليس في جدالنا لهم عائدة على أنفسهم: إذ هم لا يضلون إلا بعلم

(١) نفس المرجع السابق.

وبينة» و«ما رأيت فئة يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعها كهـؤلاء المجددين في العربية:

فهم عند أنفسهم كالجمرة المتوقدة: لا يشبعها حطب الدنيا، ولكن غرفة من الماء تأكل الجمرة».

أما بعد...

فما أكثر الذين يتغنون بالجمال... بينما أنفسهم مسكونة بالقبح...

وقد يجيدون الحديث عن القيم... بينما هم يتقلبون في الوحل...

وقد تكون لهم كتب وأبحاث علمية... لكنهم فقراء في حياتهم العملية.



القرآن
يكشف عناد اليهود

يقول (عز وجل):

﴿ ولَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ... ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢].

مشكلة اليهود الكبرى: انفصال العلم عندهم.. عن العمل:

لقد جاءهم القرآن يصدِّق ما عندهم ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة: ٨٩]، جاءهم القرآن آيات بينات.. لكنهم كفروا به بغيًا وحسدًا..

وكان الظن أن يكونوا أول مصدق به.. لكنهم كانوا أول كافر به..

ويعني ذلك أنهم يكذبون على أنفسهم قبل أن يكذبوا على الإسلام.. وما يترتب على ذلك من تمزق أنفسهم.. وعدم صلاحيتم لاتخاذ موقف سليم تجاه الحق..

●●●

لقد كانت مسوغات الانقياد للحق وافية مواتية:

فمن الذي جاءهم؟

إنه رسول.. لا مصلحة له شخصية فيما أُرسل به: إنه مأمور بالبلاغ.. وقد بلَّغ..

ثم إنه جاءهم.. جاءهم بالذات.. عنايةً بهم.. وتلطفًا.. وتوددًا..

ثم إنه رسول من عند الله القادر على تدميرهم وإبطاتل كيدهم..

والذي جاء به هو الحق الموافق لما في كتبهم..

فإذا رفضوا ذلك الحق أنكروا الشمس في الضحوة الكبرى..

ومعنى ذلك: أنهم يتخذون إلـههم هواهم.. ولا يتحرّون الحق أبدًا فيما يقولون ويفعلون.. وإنما الحق في أيديهم ورقة يلعبون بها!

وليتهم آثروا الصمت في في موجهة أدلةٍ تأخذ بحُجَزهم..

ولمنهم نبذوه..

نبذوا ماذا؟

نبذوا كتاب الله.. والمفروض أنهم أهل كتاب. فلا ينبذون الكتاب.. وإنما يحاولون فهمه.. ثم التفاهم معه.. إرادة الوقوف على ما فيه من دلائل الحق..

ولكنهم نبذوه..

ونبذوه وراء ظهورهم.. لا أمامَهم..

لأن الحاقد الحاسد لا يطيق أن يرى ضحيته بين يديه.. لتكون حجة عليه..!

وإنما يرمي ضحيته خلف ظهره حتى لا يراها.. إنها عقدة الذنب إذن.. يفعلون ذلك.. وكأنهم لا يعلمون فداحة ما يرتكبون..

لكن الواقع أنهم يعرفون.. ولكنهم يتجاهلون.

●●●

ومن أجل ذلك كان الحوار معهم.. وكانت مفاوضتهم ضربًا من العبث.. لأنهم مدفوعون بطبيعةٍ ملتوية.

ترفض الحق.. بل وتعاديه.. ولا تريد أن تحتكم إليه.

●●●

يؤكد ذلك أنهم لما رفضوا ما جاء ومن جاء مصدقًا لما معهم.. آثروا البديل.. وهو اتباع السحر:

●●●

والقضية هنا:

أن شياطين الجن كانوا يسترقون.. فيخطفون بعض الأسرار.. ثم يُلقونها إلى الكهنة الذين يُضيفون إلى ما يسمعون.. بعض الأكاذيب.. حتى قيل إن الجن تعلم الغيب.. وأن مُلكَ سليمان قام على السحر.. وبه استمر وجوده..

●●●

من أساليب اليهود:

وهكذا يتبين لنا أسلوبًا من أساليب اليهود في اكيد.. لهز صورة الأتقياء النبلاء:

إنهم يعكرون الجو بالشائعات المغرضة.. والأكاذيب الملفقة..

وفي هذا الضباب يمارسون هواية التقول على الأطهار الأبرار..

إنه الجو الموبوء.. يفتعلونه افتعالاً..

وفي الجو الموبوء تكثر الجراثيم.. وتتنامى..

ولكنها تموت في الجو الطهور.. والذي لا يريدونه بل لا يُطيقونه..

●●●

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢].

لقد كان «الملَكَان» يُعلمان الناس السحر.. تفريقا بينه وبين المعجزة.. فما كفر الملَكَان.. وما كفر سليمان (عليه السلام).. لأنه نبي معصوم.

ولكن شياطين الإنس والجن هم الذين كفروا.. لأنهم كانوا يتعلمون

السحر إرادة التفريق بين المرء وزوجه بالذات.. حتى تفقد الأسرة عناصر وجودها.. بفساد أهم عناصرها: وهو الوفاق بين الأزواج.

●●●

يفعلون ذلك.. وهم على غاية ما يكون اليقين بخطأ ما يفعلون..

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

●●●

من دروس الدعوة:

ومع هذا المسلك الخائن.. لكن باب التوبة ما يزال مفتوحًا بين أيديهم.. ولو أرادوا أن يتوبوا.. تفتَّحت لهم الأبواب:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

وهو درس الدعاة ألا ييأسوا أبدًا.. مهما كان المدعو معاندًا.. حاقدا..

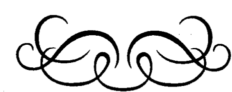
وليتفتحوا الأبواب.. لتستقبل العائدين إلى ربهم.. ومهما تكن درجة العناد.. فإن رحمة الله تستقبل العباد..

وأحرى بالدعاة أن يتخلَّقوا بأخلاق الله (تعالى)..

فليسوا بأغير على الدعوة من مُنزلها (سبحانه وتعالى)..

شريطة أن يكونوا دائمًا على حذر.. حتى لا يُخدعوا.. فإن المؤمن يقظ دائمًا:

لا الحِبُّ يخدعه.. ولا هو بخادع أحدًا أبدًا.



أهمية الأدب مع الله ورسوله

يقول الله (عز وجل):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١ ـ ٥].

●●●

تصوروا عبدًا متمردًا على مولاه.. تسوِّل له نفسه أن يجلس أمام سيده.. ويُولِّيه دبُره: يعطيه ظهره.. تحديًا.

تصوروا ذلك.. ثم احكموا كيف أساء هذا العبد إلى نفسه التي تجلب عليه بسوء تصرفه من البلايا فوق ما يطيق..

●●●

والآيات الكريمة تحمي المؤمن من هذا التصرف المخزي..

منشئةً في ضميره إحساسًا بضرورة أن نتأدب مع الله (تعالى).

ومع رسول الله (ﷺ).. فلا نقطع أمرًا دونهما..

لله (عز وجل).. ولرسوله المبلغ عنه..

إن دورنا مع شرع الله (تعالى) هو:

الاقتداء.. والاتباع

وليس هو.. الابتداء .. والابتداع.

●●●

يقول صاحب «الكشاف»:

(فيه من النكت:

أن الله (تعالىٰ) ابتدأ السورة.. بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهي إلىٰ الله ورسوله مقدَّمًا علىٰ الأمور كلها. من غير تقييد ولا تخصيص).

●●●

التقديم:

ومن صور التقديم المنْهِيِّ عنه: مناداته (ﷺ) باسمه المجرد:

فلا تقولوا: يا محمد.. يا أحمد.. وإنما: يا رسول الله..

ويُعينكم علىٰ الالتزام هنا تذكركم ما كان يفعله اليهود في تعاملهم مع رسولهم موسىٰ (عليه السلام).. حين قالوا له:

﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦٨].

ثم يريدون تصدير بضاعتهم إليكم.. لَمَّا كنتم تقولون للرسول (ﷺ): راعنا.. ارفق بنا.. فحرفوا النداء عن موضعه يريدون به «الرعونة» وليس التلطف بكم!

فنحُّوا أهوائكم جانبًا.. وكونوا أسرع إلىٰ إيثار شرع الله (تعالىٰ).. علىٰ أهوائكم:

(فلا تقدموا علىٰ أمر الله. حتىٰ يأذن الله ورسوله فيه:

فتكونوا مقتدين فيما تأتون وما تذرون بكتاب الله (تعالىٰ) وسنة نبيه (ﷺ).

●●●

ولأن من طبع الإنسان أنه نَسَّاء.. فقد أيقظه خالقه (سبحانه) بما يعينه على تذكر هذا المعنى ودائمًا.. فقال (سبحانه):

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

والأمر بالتقوى هنا يعني:

أن المؤمن منهي عن أمرٍ.. ومأمورٌ بآخر:

منهي عن أن يقترف هذا الذنب.. وهو التقديم.

ثم هو مأمور بالتقوى.. التي يظل بها ملتزمًا:

فهو منهي أولاً (عن عَيْم ما يقارفه.. ثم هو مأمور بما لو امتثل الأمر فيه. لم يرتكب تلك الفعلة.. وتجنَّبَ كل ما يضرب في طريقه من أسبابها).

وهو التقوى التي تعينكم على الحذر وعدم المخالفة:

(فإنكم إذا اتقيتموه عافتكم التقوى عن التقدمة المنهيِّ عنها.

وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه..

فإن النقيَّ حذرٌ لا يشافهُ أمرًا إلا عن ارتفاع الريب. وانجلاء الشك في ألا تبعة عليه فيه)[1].

●●●

مجالات التقديم:

ولاحظ أن السياق خالٍ من مفعول «تقدموا».. والذي جاء بلا مفعول محدد.. وإنما كان مطلقًا.. إشارة إلى التقديم منهي عنه في كل المجالات:

التعبدية.. والاقتصادية..

والعسكرية..والاجتماعية.

(١) «الكشاف».

وإذا كان هناك من يريد حصر الدين في المسجد.. ليمرح قانون الأرض على الساحة وحده.. فإن الآية الكريمة تهيب بنا أن نحتكم في كل قضايانا إلى الله (تعالى) وإلى رسوله (ﷺ).. والذي جاءنا بكتاب فصَّل الله (تعالى) فيه كل ما يغطِّي حاجاتنا في كل هذه المجالات الحيوية.. والتي يريد المغرضون الاستئثار بها.

●●●

أدب الخطاب:

ثم يقول (عز وجل):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

ولاحظ أن هذه الآية الكريمة لم تُعطف على سابقتها.. وإنما جاءت مستقلة.. بقضية لها نفس الأهمية.. وهي:

الأدب في مخاطبته (ﷺ):

(فإذا نطق ونطقتم. فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته. وأن تغضوا منها، بحيث يكون كلامه عاليًا لكلامكم. وجهره باهرًا لجهركم. حتى تكون مزيته عليكم لائحةً. وسابقتُه واضحة..

فلا تغمروا صوته بلغطكم. وتبهروا منطقه بصخبكم)[1].

●●●

ألا إن مجرد رؤيته (ﷺ) كاف في إنشاء مشاعر الهيبة. ثم في الاستماع إليه.. بل الاستمتاع بعذب حديثه.. وأن نسارع في هواه..

(١) نفس المرجع والموضوع.

وإذا كـان الحق (سبـحانه) يسـارع في هواه فكيف لا نسـارع نحن في رضاه؟!

●●●

ردود الفعل:

وقد كان للآية الكريمة ردرد فعل قوية لدى الصحابة الكرام:

قال ابن عباس:

لما نزلت هذه الآية الكريمة قال أبو بكر (رضي الله عنه):

يا رسول الله: والله لا أكلمك إلا السِّرار..

وعلى نفس المسـتوى كان عـمر (رضي الله عنه) يكلم النبي (ﷺ) خـفـيض الصوت.. كأخي السِّرار. يعني:

(لا يسمعه حتى يستفهمه).

●●●

بل إن أبا بكر (رضي الله عنه).. إيمانًا منه بضرورة الأدب في مخاطبة الرسول (ﷺ) وفدٌ أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلِّمون على الرسول.. ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله.

يفعل ذلك:

أولاً: خوفًا من أن تضيع أعماله.. ولو كانت مثل جبال تهامة..

بسبب رفع الصوت عنده.

وثانيا: تقديرًا لذات الرسول (ﷺ)..

لأن رفع الصوت يعني:

التشويش.

وعدم الاحترام.

وإخلالاً بواجب الإجلال.

وهو الحق الذي يرثه العلماء اليوم.. وغداً..

وذلك أنهم يقفون موقف الرسول.. فلهم بعض ما يجب له من الاحترام.. حتى يؤدوا رسالتهم بسلام.

ذلك بأن الاجتراء على العالم.. مدعاة إلى الاستخفاف..

والاستخفافُ تترتب عليه المواظبة على ذلك.

والمواظبة.. قد تصل بالإنسان إلى الاستخفاف بالمخاطَب..

ثم بأفكار المخاطب.. وفي هذا من الفساد ما الله به عليم.



من المسجد
إلى ساحات الكفاح

يقول الله (عز وجل):

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ [الجمعة: ٩ ـ ١١].

●●●

تمهيد

ذات يوم.. رأى أبو هريرة (رضي الله عنه) وسمع من صخب السوق ما حمله على أن ينقذ الناس من هذا السباق المجنون إلى الربح الوفير..

وهداه إيمانه إلى أن يغير وجهتهم إلى حيث يشمون رائحة الجنة.. فحرضهم على الذهاب إلى المسجد. لأن ميراث محمد (صلى الله عليه وسلم) يُقسم هناك.. منطلقًا من قاعدة قرآنية من قواعد الدعوة التي تقود الإنسان من رغبته.. إلى حيث يريد له الداعية.. هذه القاعدة المذكورة في قوله (تعالى):

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ [الصف: ١٠].

●●●

ومضى الناس سراعًا إلى حيث يتوقعون الربح الوفير..

ولكنهم لم يجدوا في المسجد سوقًا قائمة..

فلما عادوا عاتبوا أبا هريرة.. فرد عليهم بأن ما رأوه من ذكر وتعليم.. هو ميراث محمد (ﷺ).. وليس هو الأصفر الرنان الذي يستعبد الإنسان!

●●●

والآية الكريمة التي معنا: دعوة إلى التخلص من حدة السعار وراء المال في صخب الأسواق.. إلى حيث يكونوا في مساقط (رحمة الله ورضوانه).. تحت قبة المسجد.. وذلك خير لهم وأبقى من كل ما يتنافس فيه المتنافسون.. حيث يغسلون قلوبهم في هذا الجو الطهور.. بعيدًا عن التدافع بالمناكب في زحام الأسواق.

●●●

والمعنى:

إذا كنتم تطلبون الربح.. فهذا هو الربح على الحقيقة:

إن تتركوا البيع.. لتتلقُّوا من فيضات الله (تعالى).. وهي خير من الدنيا وما فيها.

●●●

وإذ يحرص بعض التجار على البقاء في السوق هذا الوقت بالذات.. حيث ينفرد بتحصيل ربح أوفر.. بينما بقية التجار قد لزموا بيوتهم.. فإن الآية الكريمة تناشد المؤمنين: بحكم عهد الإيمان الوثيق بينهم وبين الله (عز وجل)..

ثم ترغبهم بأن ما يفوتهم من الربح الدنيوي.. خيرٌ منه ما حصلوه من شحنة روحية.. لا تشترى بمال الدنيا..

ثم يقول (عز وجل):

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١٠].

و، لا تثريب عـليكم عندئذ إن تبتـغوا الربح.. شريطة أن تـكثروا من ذكر الله (تعالى).. ضمانًا لاستمرار نهر الصفاء الذي يلاحقكم بالتطهير.. كلما علق بكم شيء من تراب الأرض..

وحتى لا تشوش الدنيا على ما حصلتموه من الخشية والقناعة.

وكان بعض الصـالحين يذكر الله (تعالى) بعد الطاعـة بالذات.. فرارًا من نكسةٍ يدبر لها الشيطان القاعدُ للمؤمن بكل سبيل.

●●●

من بلاغة الآية الكريمة:

لم تقل الآية الكريمة [فإذا انصرفتم من الصلاة]

وإنما قالت: فإذا قضيت.

قال محمد بن إسحاق:

لا تقولوا: انصرفنا من الصلاة:

فإن قومًا انصرفوا.. صرف الله قلوبهم.

ولكن قولوا تفاؤلاً:

قضيت الصلاة.

●●●

ومن بلاغة الآيات الكريمة:

التعبير في جانب الذِّكر «بالسعي»: فاسعوا..

وفي جانب الربح بقوله: فـانتشروا - مشيـرة إلى أن الذكر لَمَّا كان هو غاية المؤمن الكبـرى.. فقد وجب علـيه أن يسرع الخطى إليـه.. بل يسابق

غيره إليه . .

●●●

أما فيما يتعلق بأمور الدنيـا . . فالهوينا . . الانتشار وئيدًا وئيدًا . . لأن الدنيا لا تستأهل التدافع بالمناكب . . فرارًا من المعاطب .

●●●

وصحيح أن جواذب الدنيا قوية :

لأن ربحها . . حاضر . . نراه . .

ثم هو عاجل . .

بينما ربح الآخرة مغيَّب . . لا نراه . . ثم هو آجل . . وقد توسوس لنا النفس الأمارة بـأن عصفـورًا في اليد . . خيـر من عشرة فـي الغد . . ولكن الإيمان بالغيـب . . ينبغي أن يجعل ثقـتنا بما عند الله أقوى من ثقـتنا بما في أيدينا .

●●●

واقع المؤمنين:

وتشير الآية الأخيرة إلى ما حدث من بعض الصحابة بعدما أدوا صلاة الجمعة مع الرسول (ﷺ):

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [الجمعة : ١١] .

ومن رزق الله (تعالى) ما خلفه لنا الصالحون . . من كل ما يكسر حدة الطمع فينا : قالوا :

(اللهم هب لنا حال القائل :

مـــا إن تنفَّسْتُ إلا خطرتَ أنت ببالي
ولا رميتُ بطرفي إلا وكنت حيالي
ومـا ذكرتك إلا وجدتُ وجداً بَدَا لِي

●●●

قد بَلِّينا.. فجدَّدَنا..
وبُلينا.. فسدَّدنا..
ونُكَبنا .. فأنعشنا..
وتعسَّرنا.. فسَهَّلنا..
وتعقدنا.. فحلنا..
وجهلنا.. فعلَّمنا..
ورغَبنا.. فَذَهَّدنا..).
«من إشارات التوحيدي».



الطريق إلى الجنة

يقول الله (عز وجل):

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٩ ـ ١٢].

●●●

كان الرجل الطيب يعظ ولده فيقول:

يا بني: إن لم يكن لك دافع.. لن تدفعَك المدافع!

ويعني ذلك:

أن آمال الفتى عِراض.. ولكن المهم: ماذا أعدَّ ليصل إليها..

وإذا كان من حقه أن يتمنى:

أن يحلم بمستقبل باهر.. فمن واجبه أن يكون له دافع.. طاقة تدفعه في اتجاه أمله.. وإلا.. فإنه إذا حُرِمَ هذا الدافع.. فإنه لن يحقق لنفسه أملاً.. وإن كان من ورائه مَدافع.. لأن النجاح لا يكون من الخارج.. وإنما من الذات نفسها..

●●●

دافع الإيمان:

وليس كالإيمان دافع إلى تحقيق الأمل.. عن طريق العمل.. وهذا ما

تشيـر إليه أولى هذه الآيـات الكريمة. . والتي ترسم الصورة المثلى لـلإنسان كما يجب أن يكون:

وعناصر هذه المثالية تتركز في:

الإيمان. . وهو القوة النظرية.

والعمل لصالح: الذي جاء ثمرةً له. . وهو القوة العملية.

والنتيجة:

سعادة في الدنيا. .

وسعادة في الآخرة. .

أما سعادة الدنيا: فتتمثل في:

أن الله (تعـالى) يَهديهم. . يخلُق في كـياناتهم حـسًّا بـصيرًا يـعرف الحق. . ثم يعـينهم على اتبـاعـه. . ثم وبه يعـرفون البـاطل. . ويرزقـون اجتنابه. .

يقول صاحب المنار:

(يهديهم بسبب إيمانهم به صراطَه المستـقيم. في كل عملٍ من أعمالهم التي تُزكي أنفسهم. وتهذِّب أخلاقهم:

وَصَفَهُم أولاً بالإيمان. والعمل الصالح. الذي هو لازمُ الإيمان ومغذِّيه ومكمل. . وذلك بصيغة المضارع الدالة على الاستمـرار والتجدد. كما أخبر عن كسب الكفار بهذه الصيغة.

وجعـل الإيمان وحده سـبب هذه الهداية. . لأنه البـاعث النفسيُّ لـها والمعنى:

أنه يهديهم الصراط المستقيم الذي ينتهي بهم إلى دار الجزاء)

●●●

مسافرون زادهم التقوى:

وأولئكم هم المسافرون إلى الله (تعالى) بخير زاد وهو: زاد التقوى.. وليسوا كهؤلاء الشاردين.. التائهين.. وليس لهم إلا زادُ الخيال.. أو زادُ الخبال!!

ألا إن المتقين يمضون.. ونورهم يسعى بين أيديهم.. هذا النور الذي صار في كيانهم مصباحًا.. من طول ما عملوا من الصالحات.. حتى صارت الرغبة في العمل الصالح ملكة تستحث خطاهم دائمًا إلى الكمال..

ألا وإن هدايتهم كانت بسبب الإيمان.. لا بسبب منصب أو عشيرة أو مال.

ومنهم عمر (رضي الله عنه) والذي رأى «سارية» وبينه وبين سارية آماد وآماد.. والذي أمره بأن يَلزَم الجبل..

إن جرثومة الشر إنما تتكاثر في الجو الموبوء..

وإذا انتقلت إلى الجو الطهور فإنها تموت..

وهؤلاء المؤمنون.. بطهرهم كانوا صورةً للنقاء والطهارة التي ترفض أن تقتحم ساحتها رغبةٌ في العصيان.. وإنما تستقبل فقط داردات الهدى التي تجد مستزادها في جو الإيمان. وهذا المعنى مفهوم من قوله (تعالى):

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧].

﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١].

ذلك بأن الإيمان فضلاً عن كونه عاصمًا من الزلل.. فإنه يدفع إلى تحصيل مزيد من العمل الصالح بحيث يتنامى رصيده بالممارسة والتفاني فيه.

من دروس الدعوة:

وتشير الآية إلى جزاء هؤلاء المؤمنين في الآخرة كأنه حادث الآن..

فلا نقول مثلاً: ستجري من تحتهم الأنهار..

وإنما ﴿تجري﴾. أي تجري الآن.. وما يفيده الجريان من: متعة رؤية المياه..

ثم إنها مياه جارية.. فهي بالجريان معصومة من الفساد.

فلا تأسَن أبدًا.

ومعنى ذلك:

أ ـ أنهم مُنعّمون في الجنة الآن.. وفي الدنيا.. قبل أن يدخلوا جنة الآخرة:

ب ـ أن الدنيا متصلة بالآخرة: فكأنهم في لجنة الآن وذلك درس في الدعوة يؤكد أن من باشر أسباب العمل الصالح.. فكأنما حققه فعلاً.. فاستحق بذلك جزاءه.. وقبل أن يُتمَّه..

وذلك توجيه قرآني يقول لبعض المتحمسين الذين يرغبون في الكمال في كل ما يعملون.. ويشاهدون:

يقول لهم: ارحموا أنفسكم.. وارحموا غيركم:

فمتى رأيتم العاصي قد غيَّر وجهته.. وبدأ يمضي في اتجاه الحق..

فهو منا.. ومعنا على نفس الطريق. وإن لم يكن على مستوانا قولاً وعملاً.

●●●

ومسك الختام: جزاؤهم في الآخرة: والذي سوف يكون من جنس أعمالهم.

سلامًا . . ووئامًا:

يُسلِّم بعضهم على بعض. . والملائكةُ تسلم عليهم.

●●●

أعداء أنفسهم:

هذه صورة المؤمنين في توادهم وتراحمهم. . ومـا ينعمون به من سلام وانسجام.

فإذا قلبت الصفحة. . رأيت ثَمَّ رأيت وضعًا مختلفًا تمامًا:

فبينما يعيش المؤمنون هذا الوئام وهذا الانسجام. . إذا بك تفاجأ بمشهد الضالين أعداء أنفسهم. . والذين عُرض عليهم الهدى فأبوا إلا الضلال. . وعُرض عليهم السلام. . فأبوا إلا الحرب:

إنهم يرفضون الحق. . ثم لا يسكتون. . وإنما يقولون ما حكاه القرآن الكريم عنهم:

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وإن لم تمطرنا بحجارة من السماء. . فلا أقل من أن تعذبنا بعذاب أيٍّ عذاب؟!!

ولكن الله (تعالى) يرحمهم. . فلا يستجيب لهم.

●●●

بيت الداء:

وتشير الآية الكريمة إلى مفرق الطريق بين فريق من الناس وفريق: وهو:

الإيمان بالآخرة. .

فقد آمن الخيرون بالآخرة.. فسلموا وغنموا..

أما الكافرون.. فكاانوا لجهنم حطبا.. لأنهم لم يؤمنوا بها..

فاستحقوا بهذا النكران ذلك العذاب.

وذلك ما يشير إليه قوله (تعالىٰ) في الآية التالية:

﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يونس: ١١].

ومن عمــههم.. وغبائهم.. وخـذلانهم أنهم يستعــجلون نزول الشر بهم.. كما يستعجلون الخير تمامًا..

ومن رحمة الله (تعالىٰ) بهم ألا يستجيب لهم.. حتىٰ لا يهلكوا..

ولقد كان ذلك الانحراف. وهذا التجني طبيــعتهم التي مردوا عليها.. فخطوا مصيرهم بعملهم..

وتلك هجِّيراهم دائما:

في البلاء.. لا يصبرون..

وفي النعماء.. لا يشكرون..

يبذلون طبيعة الإنسان: العجول.. نكَّار الخير..

ودليل ذلك أنه إذا مسّه ضر ألح في الدعــاء.. فإذا كشف الله (تعالىٰ) ذلك الضر.. مرّ.. مـضىٰ كأن لم تكن له معرفة بنا أصــلاً.. فضلاً عن اعترافه بأنا كشفنا عنه ضره..

●●●

(إن في ذلك لعــبــرة لكل إنســان يرىٰ في مــرآة القــرآن هذه النمــاذج المتقابلة..

فلعله أن يختار لنفسه ما ينجيه يوم يفر المرء من أمه وأبيه وعشيرته التي تؤويه).

قدرة الخالق..
وضعف المخلوق

يقول الله (عز وجل):

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢ ـ ٤٥].

●●●

تمهيد

في الآية السابقة بيّن الله (سبحانه وتعالى) كيف كان الإنسان سيد قراره:

يقول الله (عز وجل):

﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس: ١٠٨]..

ثم نفى (سبحانه وتعالى) أن يكون الرسول (ﷺ) وكيلاً على الناس.. وإنما هو مبلغ .. وتنتهي بالبلاغ وظيفته..

●●●

وتجيء هذه الآيات الكريمة لتشعر المخاطَبينبجلال الله (تعالى) وقهره

وسلطانه على النفوس التي خلقها. . وهو وحده الذي يُميتها ثم يُحييها. .

●●●

والنفس نفسان:

الأولى هي: نفس الحياة. . وهي التي تذهب بالموت. .

والثانية هي: نفس التمييز. . وهي التي تذهب بالنوم. .

والله (سبحانه وتعالى) هو وحده مالكها:

يقبض النفس التي جاء أجلها بسلبها ما تكون به شاعرةً درّاكة. .

ثم. . وفي النوم. . يمسك النفس التي حل أجلها. . ثم يطلقُ التي لم يجئ أجلها . . إلى حين أن يأتي هذا الأجل. .

وإذن. . فالأنفس جميعًا في قبضته (سبحانه وتعالى) وحده كيف يشاء. .

وهي وإن كانت نفوسًا. . إلا أنها في اليُسر كأنها نفس واحدة. . وهذا سرّ التعبير بجمْع القلة «الأنفس» فمهما كان عددها. . فهي عند الله (تعالى) كنفس واحدة. .

●●●

يتفكرون.. يعني:

أ- يُجيلون الأفكار فيما ضُمَّت عليه الآيات من قضايا.

ب- ثم يعتبرون . . بما يشاهدون.

وأما الذاهلون الغافلون عن الشمس الطالعة. . فهم معزولون عن استنباط العِبَر. . ثم محرومون من الاعتبار .

ولعل في هذا إشارةً إلى نوعية القضايا التي يجب أن تشغل تفكيرنا. . فرارًا من الأمور الهامشية. . والتي تستنفد طاقاتنا وجهودنا فيما لا يجدي.

ثم تجيء الآية التالية لِتُلقم المشركين حجرًا.. وكأنما تقول لهم:

إن من كان بهذه العظمة.. كيف يكون له مثيل يُتخذ من دونه.. أو معه.. إلهًا؟!! ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤٣].

●●●

مقومات الشفاعة:

إن للشفاعة شرطين لا بد من توفرهما:

الأول: أن يكون الشفوع له مُرتضىً.

والثاني: أن يكون الشافع مأذوناً له.

وهذان الشرطان منتفيان هنا:

فلا المشفوع له مرتضىً..

ولا الشافع ممن أَذِن الله (تعالى) له..

وكيف يشفعون وقد اجتمت فيهم الخستان:

فهم لا يملكون شيئاً.. أي شيء..

ثم هم لا يعقلون..

ومن كان كذلك.. كان عاجزا.. خاوياً.. فكيف يشفع عند الله؟

إن فاقد الشيء لا يعطيه.

●●●

ولكن الشفاعة كلها لله (تعالى).. لأن الشفاعة داخلة في مُلكه (يبحانه.. ولما كان (تعالى): ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]. كان هو مالكها وحده.. فهي مما استأثر الله (تعالى) به

●●●

وإذا اتسعت الحياة الدنيا لمهاترات العابثين... الذين يتصرفون بلا

حكمة.. ويدّعون بلا دليل.. فإن قصّتهم لن تنتهي بانتهاء هذه الحياة الدنيا.. وإنما لهم موعد مع خالقهم (سبحانه) وسوف يُرجعون إليه.. يُدَعّون دعًا.. إلى مصيرهم الرعيب..

●●●

طبيعة القوم:

ويلفت السياق الحكيم إلى جذور العداوة في أنفس المعاندين.

فلعل في ذلك ما يحمل الداعيَ على أن يكفكف من حزنه على موقفهم.. فهم من الإيمان بالمكان البعيد..

إنهم طراز فريد من المعاندين:

فالمفروض أنه إذا ذُكر الله وحده .. أن يستبشر الإنسان..

وإذا ذكر غيره.. أن يشمئز..

ولكن الأمر عند هؤلاء المعاندين بلعكس:

فهم يشمئزون.. إذا ذكر الله (تعالى) وحده..

ثم يستبشرون إذا ذكر غيره (عز وجل)..

●●●

ومن دلائل فساد الذوق عندهم أنهم: لا يكتفون من الاستبشار ببعضه ولكنهم يكونون في غاية الاستبشار..

ثم في غاية الاشمئزاز.

ولا يتوسطون في الأمر فيتركون للصلح موضعًا..

يقول صاحب الكشاف:

(وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز:

إذ كل منهما غاية في بابه:

لأن الاستبشار:

أن يمتلئ القلب سرورًا. حتى يظهر أثرُ ذلك السرور في بشرةِ وجهه. ويتهلل.

والاشمئزازُ: أن يعظُم غمه وغيظه. فينقبض الروح إلى داخل القلب.. فيبقى في أديم الوجه أثر الظلمة والغَبَرة الأرضية).

ويعني ذلك أنهم مسرفون في عواطف الحب والبغض.. كاشفين بهذا الغلو عن معدنهم الخسيس.. الرافض للحق.. بل الكاره له.. أعمق ما يكون الكره.. المشوقِ إلى الباطل أقوى ما يكون الشوق..

وناسٌ في هذا الحضيض.. ينبغي ألا يُضيعَ الداعية وقته الثمين في جدالهم.. لأنه لن يُسمع الموتى..

●●●

ولاحظ التعبير «بإذا» الفجائية في قوله (تعالى):

﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

لتُدرك على الفور كيف أنهم جاهزون لاستقبال الباطل منسجمين معه.. بقدر ما كانوا نافرين من الحق الذي كان غريبًا عندهم..

●●●

وما أكثر التافهين اليوم.. والذين يخصَّصوا في الهجوم على القيادات المؤمنة من رموز الدعوة.. لا لعيب في الدعاة.. وإنما العيب في قلوب الذين ظلموا أنفسهم فحمَّلوها من البلاء ما لا تطيق.. حين يلوون أعناقها عن الحق.. وقسرها على «تجّرع» المباطل.. الذي يعشقون!!

وكل إناء بالذي فيه ينضح..

وما على الداعية إلا أن يمضي.. ولن يضيره نباح الكلاب:

وهذا ما تشير إليه الآية التالية:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الزمـر: ٤٦]. قل الله . ثم ذرهم في خوضهم يلعبون!



سنّة الله في الجاحدين

يقول الله (عز وجل):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٥ ـ ٧].

●●●

تمهيد

الإشارة إلىٰ حدود الله (تعالىٰ) في الآية السابقة:

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ [المجادلة: ٤].

كانت للبعيد:

فهي: البعيدة في القدرة والمنزلة بحيث يجب الالتزام بها.. وعدم تجاوزها..

وبعد هذا.. كان لا بد من التركيز على مَنْ تطاولوا واغتروا.. ثم اجترءوا علىٰ هذه الحدود.. بما يشبه المحادة.. والممانعة.. والمغالبة.. وبصفة مستمرة مستمرأة..

●●●

من مظاهر الجرأة على الحق:

ومن مظاهر جرأة هذا الصنف من الناس ما يلي:

١ ـ أنهم معتصمون بما يملكون من عُـدة وعدد.. وقوة.. في مواجهة المؤمنين المحرومين من هذه المميزات.

٢ ـ يغالبون: الملك الأعلى (سبحانه وتعالى).. يتجاوزونها إلى حدودٍ أخرى جرّتهم إليها أهواؤهم.

٣ ـ ثم يغالبون مع الله (تعالى).. رسوله (ﷺ).

مع أن عزَّه من عزِّ مولاه (تعالى).

٤ ـ ثم إنها مغالبة بمعنى: المحادة.. فـفيها من الحديد بأسُه وشدته.. فهم ينازعون في الحق بشدة وعناد.

٥ ـ ثم إنهم يوسِّعون مجالات افترائهم على جبهتين:

أ ـ يحاربون أولياء الله (تعالى).

ب ـ ثم يكذِّبون بآياته. ولا يكتفون بذلك بل يَصدُّون الناس عنها.

٦ ـ وهم على ذلك مستمرون مستمرئون.. كما يفيد التعبير بالمضارع..

●●●

المحادة.. لم تحقق أغراضها

ولكن هذه المحادة.. لم تحقق أغراضها:

فلم يظفـروا بما أمَّلوا.. ﴿**وهمُّوا بما لم ينالوا**﴾ مهما كانت المحادة شاملة.. وكانت المؤامرات سرِّية محبوكة. ولو بين اثنين.. «يتناجيان» ليس بينهما ثالث كالدال تدغم في الدال!

لقد كبتهم الله (تعالى).. أذلَّهم.. وأخذلهم.. وردهم على

أعقابهم.. والردود بالذل: مكبوت: معبًأ بمشاعر الغيظ والإحباط.. يتميز غيظًا.. فقد حبست زمانيهفي صدره.. فلم تر النور!!

والتعبير بالفعل الماضي «كبتوا» دبيل أن هذا الكبت فُرِغَ منه.. وانتهى قضاؤه المبرم..

●●●

ثم إن بناء الفعل للمجهول إشارة إلى أن هذا الإخزاء من السهولة بحيث يقدر عليه أي كائن.. فكيف بمالك الملك (سبحانه وتعالى).

وهذا جزاء من استمرأ العصيان.. ولم يستمع إلى دليل أو برهان..

وإذا أرادوا الاستيثاق من هذا .. فليقرءوا التاريخ الذي سوف ينبئهم بأن ما حدث لهم حلقة في سلسلة الطغاة ممن حادوا الله قبلهم: وهذا دليل تاريخي:

وذلك ما تشير إليه ﴿ **كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ من قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح.. هؤلاء الذين ذهب الهوان بغرورهم وكبْرهم.. وللكافرين اليومَ أمثالها.

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ـ هوانًا بها ـ كانت على الناس أهونًا

ولا يفوتنا هنا أن نحذِّر بما حذر منه الإمام القُشيري القائل:

(من ضيع لرسول الله (ﷺ) سنّة. وأحدث في دينه بدعة.. انخرط في هذا المسلك.. ووقع في هذا الذل).

●●●

الذين يحفرون قبورهم بأيديهم:

وما كان أغناهم عن هذا المصير الرعيب لو أنهم أبصروا وتفكروا:

فقد أنزل الله (تعالى) آيان بينات.. غاية البيان.. وكان من الممكن أن

تحميهم من هذا العذاب. . ولكنهم آثروا العصيان على الإيمان.

●●●

من الدنيا.. إلى عرصات القيامة:

وينقلهم السياق إلى الآخرة. . إلى زمن هذا العذاب الموعود. .

زمنه المحدد. . المؤكد. . لأن المخبر به هو العليم. .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

لسوف يبعثهم (تعالى):

جميعًا. . وفي وقت واحد. .

ولن يسوق إليهم أخبارًا عادية. . على سبيل التسْلية. .

ولكنها «أنباءُ» ما قد سبق:

أخبارٌ في غاية الأهمية تحكي مخازيَهم. . على سبيل التوبيخ والتقريع. . والتشهير. . إلى الحد الذي يتمنَّون فيه الإسراع بهم في النار. فرارًا من هذا الخزي. وهذا العار. .

وإنه لخزي لو تعلمون عظيم:

ذلك بأن التشهير بمحضر بعض الناس: مُخزٍ فكيف إذا كان بمحضر كل الناس. .

فكيف إذا كان بمحضر كل الخلائق. .

فكيف إذا أضيف إلى ذلك أنه الإنباء أي: الاستقصاء لكل ما فعلوا وكل ما قالوا؟!

●●●

أحصاه الله:

لأنه تعالى العليم المحيط بكل شيء.. المهيمن عليه.. ولأن ما قالوه وما فعلوه جزء من هذا الشيء.. فقد أحصى الله (تعالى) عليهم.. لم يفته من شيء..

لقد سجل حياتهم. لقد أحصاه (تعالى): كمًّا.. وكيفًا.. وعددًا.. وزمانًا.. ومكانًا.

●●●

ولكنهم نسُوه

ولماذا نسوه؟:

لأنه إنما تُحفظ عظائم الأمور.. وتبقى حفورةً في مجرى الأعصاب.

أما هم: فقد كانوا يستحقرون ذنوبهم. لضراوتهم في المعاصي.

استصغروها.. فنسُوها. لأنهم لم يستحضروا عظمة من عصوه (سبحانه):

لقد استهانوا بها.. فتراكمت.. وكثرت.. فسقطت من الذاكرة..

لكنه (تعالى): أحصاه.. ﴿**لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**﴾..

لأنه سبحانه شهيد:

حاضر.. لا يغيب

رقيب.. لا يغفُل..

ومهما تكن من ذرة محشورة في صخرة.. أو تائهة في الأرض بين ثراها وحصاها.. يأت بها الله.

●●●

مواصلة الحوار:

ولأن القوم جامدون معـاندون.. فكان لا بد من دليل محسوس على صحة ما يخاطبون به وذلك قوله (تعالى):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ الآية . إن كل ما سبق حق.. لأن الله عليم.. ولم تقل الآية ألم تعلم.. بل قالت: ألم تر..

لأن الدليل على كونه (تعالى) عالمًا: محسوس متيقن..

فأفعاله من حولنا ومن فوقنا متيقة.. متقنة.. في مشاهد الأكوان.

وفي مملكة الإنسان.. وانبات.. والحيوان..

وكل هذا محسوس مشاهد.. وإذن فدليل كونه (تعالى) عالمًا:

بلغ أعلى درجات الظهور والجلاء.. فكأنه مشاهد محسوس..

وكان المعنى: [ألم تعلم علمًا هو في وضوحه.. كأنك تراه بالعين المجردة وهو (تعالى) بصفات جلاله مع المؤمنين بالنّصر والتوفيق.. وتلك هي الوَلاية الخاصة ثم هو (تعالى) بوَلايته العامة: محيط «قادر» نافذ المشيئة في الخلق.. وكلٌّ في قبضته أصغر من حبة خردل.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره فهو سبحانه:

﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ .

●●●

أما بعد

فقد جلس «صفوان بن أمية» مع الأخوين:

«ربيعةَ بن عمر» و «حبيب بن عمر»

وكانوا يتحدثون. فقال أحدهم:

أترىٰ أن الله يعلم نقول؟

فقال الآخر:

يعلم بعضًا ولا يعلم بعضًا!

وقال الثالث:

إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كله!

وصدق:

(لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلَّها:

لأن كونه عالمًا بغير سبب.. ثابت له مع كل معلوم).

وهكذا قال علماؤنا..



مغالطة

يقول الله (عز وجل):

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

●●●

لاحظ من عناد القوم أنهم يعتبرون البيع مثل الربا..

مثله تمامًا..

فأنت إذا قلت:

محمد مثل الأسد..

فمعنى ذلك:

أنك تريد تجاوز وصف الشجاعة لتجعل محمدًا أسدًا.. في كل شيء!

ويعني ذلك: أن القوم لا يريدون مجرد المشابهة بين البيع والربا..

وإنما يريدون أن البيع هو الربا بعينه.. وفمه.. وأنفه!

وإذا لم تستح فقل ما شئت.

●●●

﴿.. إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥].

إن زعما واحداً.. قد يحجب ألف حقيقة.. ولكن إلى حين..

●●●

وهذه الآية الكريمة تؤكد حقيقة البعث بمجموعة من الأدلة:

١- دليل عقلي أولاً:

وذلك خلق الإنسان الذي لا يشاهد تطورات خلقه.

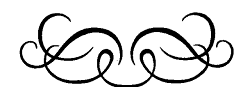
٢ ـ دليل مشاهد:

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً ﴾[الحج: ٥].

٣ ـ فلنردم منابع الشبهات في قلوبنا.. ولنأخذ الحقائق من مصدرها:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾[الحج: ٦].

وذلك يفرض على الدعاة أن يغزوا المبطلين بالحق قبل أن يغزونا بالباطل.



إشارات
قرآنية ولغوية

﴿ بَلْ مَتَّعْت ﴾ [الزخرف: ٢٩]

دعك من حديث ابراهيم.. وحدثهم عن قريش..

السحر: تهمة غير محدودة.. ويطلقونها خداعاً للجماهير. بخلاف قولهم: بخيل مثلاً مما يمكن التحقق من كذبه!

●●●

﴿ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٣٣].

قيم الأرض.. من الهوان.. بحيث لو أراد (سبحانه) انزالها على كافر.. بلغ من النكران مداه حين يكفر: بمن رحمه.. ورباه بالنعمة.

●●●

﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

قبل أن يسيل لعاب الضعاف لمثل هذا.

﴿ النَّعِيم ﴾ [يونس: ٩].

فإن لله (تعالى) يعدهم بما هو أبقى.

●●●

إرشادات قرآنية ولغوية

١ - ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ [النور: ٢٢].

ذكر الصفة يدل على الموصوف..

ولو قال «أبو بكر» بالإسم.. لما دل على الصفة.. لأن الموصوف لا

يدل على الصفة.

- ولذلك كان أبو بكر أفضل من «زيد» (رضي الله عنهما).

- والذي ذكره القرآن باسمه فقال (تعالى): ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

●●●

٢ - يقول علماء اللغة في دلالة الحروف على معايتها: إن «الحاء» إذا أتت في آخر الكلمة دلت على الاتساع والانتشار.. مثل:

ساح.. باح.. صاح.. شرح.. مرح

وأن الكلمة المبدوءة بحرف الشين تدل على التشتت والتفرق. مثل:

شتت.. شطر.. شعث.. شع.

وأن الكلمة المبدوءة بالغين تدل على الغمرض مثل:

أغمض.. غابت الشمس.. غار الماء.. غطي الشيء.



القرآن والسنة

تتفق السنة المطهرة مع القرآن الكريم في التكاليف:

العقائد . .

والعبادات . .

والأخلاق . .

●●●

أما في القصص:

فما توره السنة: فلا يشترط وروده في القرآن الكريم . .

مثل قصة: من قتل ٩٩ نفسًا.

لكن هنا شرط مهم هو:

ألا يكون هناك في القصة ما يعارض القرآن الكريم . .

●●●

في قصة آدم:

إذا قال (تعالى) كُلاَ . . بلا «رغد»

فيعني الأكل من الجوع.

أما إذا قال: رغدا . .

فهو الأكل رفاهية واستمتاعًا . .

●●●

ولاحظ من أدب القرآن ما حكاه عن الجن:

﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠].

فأضافوا الخير إليه (تعالىٰ)..

ثم وفي الشر.. لم يضيفوه. وقالوا:

﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ ﴾.

●●●

ومن الأجانب حكماء:

قيل لفولتير:

أنت تبالغ في الثناء على صديق لك يبالغ في ذمك!

فابتسم وقال:

لعل كلينا مخطئ في رأيه!!

اعتقد المشركون أن الجن أقوياء.. ويعلمون الغيب.

●●●

وكان رد القرآن الكريم عن طريق سورة الجن التي جاءت بما يفحم المشركين:

١ ـ ففي الجن صالحون وطالحون.

٢ ـ وفيهم أدب وعبودية خالصة لله (تعالىٰ).

ومن أدبهم أنهم قالوا:

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠].

فقد نسبوا الرشد لله (عز وجل).

وفيما يتعلق بالشر.. لم ينسبوه مع أنه بإرادته.

●●●

وإذن..

فالجن ليسوا أقوياء.. ولا يعلمون الغيب..

وهو رد أيضًا على من قال:

لماذا لم يكن الرسول من الجن؟ . . فكأنما قيل لهم:

إنهم مربوبون باعترافـهم. . وقد ركب الشطط. . من أضاف إليهم. . ما ليس لهم.



الاستعاذة من الشيطان الرجيم

يقول الحق (عز وجل):

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

●●●

المؤمن مطالب بالاستعاذة من الشيطان الرجيم..

وزن يكون في استعاذته متوكلا على الله (تعالى) وحده.. فهو (سبحانه) الذي ينجيك من غوائل الهوى.. وحبائل الشيطان.

وحاصل ذلك كما يقول البقاعي:

(الحث على التدبر.. وصرف جميع الفكر إلى التفهم والالتجاء إليه (تعالى) في كل عمل صالح. لئلا يفسده الشيطان بوساوسه.. أو يحول بين الفهم وبينه).

والخطاب للنبي (ﷺ).. وللمسلم من خلاله ليكون ذلك أبلغ في حث المسلم على أن يشحذ عزمه في اللجأ إلى الله (تعالى).

●●●

مكر الشيطان:

(إنه لا عائق عن الإذعان لأساليبه الحسان.. إلا وساوس الشيطان).

●●●

معنى الاستسلام للشيطان:

وإذا أنسي المسلم ذكر ربه.. وأسلم زمامه لوساوس الشيطان حدث الآتي:

١ ـ يذيقه ذل المعصية.

٢ ـ يفقد المسلم أعز ما يملك وهو:

القدرة على حسم القضايا.. وشل الإرادة العازمة الجازمة.

كما يفقد ـ بالوقوع فيما أراد الشيطان ـ يفقد استمرار الثقة والأمن..

ولنا أن نتصور إنسانًا أسقطه الشيطان حمأ في المعصية إنه يصير منقسمًا على نفسه.. مسلوب الإرادة.. خائر العزيمة..

ثم يجدب القلب كما تجدب الأرض..

ولا يبقى للإنسان في غيبة القلب كيان..

●●●

والآية الكريمة تحمي المسلم من السقوط في قبضة الهوان بوسواس الشيطان..

بما تشير إليه من ضمان الله (تعالى) أن يخذل الشيطان في معركته مع المؤمنين:

فهو وإن كان يرانا من حيث لا نراه.. ويجري فينا مجرى الدم.. إلا أنه لا سلطان له على الذين آمنوا.. والذين أثمر الإيمان في قلوبهم قيمة التوكل على الله وحده..

●●●

ولكن سلطانه الحقيقي.. على الذين تولوه.. دائمًا.. فانفرد بهم.. وحال بينهم وبين الهداية التي فاز بها المؤمنون.

لغة القرآن

هكذا تبدو الكلمة القرآنية:

إنها «أصداف» تحمل من درر المعاني ما يبهر العقل.. ويمتع القلب.

وإن شئت قلت:

إنها أغصان تحمل من لثمرات ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين..

●●●

حتى نرتفع إلى مستوى القرآن:

(لا يجتمع فهم القرآن.. والاشتغال بالحطام في قلب مؤمن أبدا)[1].

(ولا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة.. ولا تظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة. وفي قلبه بدعة.. أو إصرار على ذنب.. أو في قلبه كبر أو هوى.. أو حبُّ الدنيا)[2].

●●●

لغة قريش

كانت القبائل العرب تترى.. تؤم البيت الحرام.. وكانت قريش تسكن مكة..

وهيأ لها موقعها أن تستقبل وفود هذه القبائل.. ثم تسمع منها.. فتنتقي من لغاتهمأفصحهاوأخفها على السمع..

مثال:

في التعبير عن «الماء المتغير من طول المكث».. كانت هناك قبائل تعبر

(١) «البرهان في علوم القرآن» (١/٦).

(٢) «البرهان في علوم القرآن» (٢/ ١٥٤).

عنه بكلمة «آسن» وقبائل أخرى تعبر بكلمة «منتن». .

فاختـارت قريش كلمة «آسن» لأنها نص في المعنى. . أمـا كلمة منتن فليـست كذلك. . لأن «النتن» قـد يكون من طول المكث. . كمـا يكون من وقوع جسم غريب فيه. .

ومن ثم كانت كلمة «آسن» أبلغ وأدق. .

ومن أجل ذلك نزل القرآن بلغة قريش أول ما نزل.

●●●

جرس الكلمة

كانت العرب تطلق على «صوت النار» كلمة [جلبة]. .

ولكن القرآن الكريم عبر بلغة قريش عن ذلك فقال:

﴿ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

لأنها أبلغ في الدلالة على وهج النار.

من حيث أن تكرار حرف السين ـ وهي من حـروف الصفير ـ أبلغ في الدلالة على ذلك.

●●●

من تدبير الله (تعالى) لحفظ كتابه:

بلد من بلاد الإسلام في أرض الله الواسعة. . تنكّر للإسلام. . وقلب للقرآن ظهر المجن. .

●●●

ويريد الله (تعالى) أن يبين لعباده أنه هو الذي ينصر دينه. . وليسوا هم الذين ينصرونه. . إلا بسبب منه (تعالى). .

●●●

لقـد فتحت هـذه الدولة عيـونها يومًـا. . وهي في نشوة إحـساسـها بالإنتـصـــار الموهوم على الإسـلام. . وإذا بالإحـصـــاءات تؤكـد مـا أرق مضاجعهم:

لقد أنشئت في هـذا البلد ستة آلاف مكتب لتحفـيظ القرآن الكريم. . فكانت شخرية الله منهم بالغة. .

●●●

إن القرآن في حماية منزله (تعالى). . ولا تستطيع قوة أن تغير حتى. . حركة واحدة.

ومن حاول التغيير . . فلن يتكفل العلماء بالرد عليه. . وإنما . . مئات الألوف من الصبيان الحافظين. . هم الذين سيردون ويصححون.

●●●

التاريخ يعيد نفسه

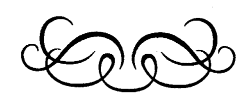
ومن العجب أن ينتهج هذا النهج ناس لا تسوقهم دوافع نبيلة.

ولا يستشعرون غايات شريفة. .

إنهم كالنضر بن الحارث تمامًا: يحـتطبون في حبله. . فيتنكرون لآداب الأمة وتراثها. . بل ويبيدون ثروتها فيما يضر فجمعوا بين الخِسّتين:

إنهم يشترون: **كما قال المفسرون:**

(ما يُلهي من الأشياء المتجددة التي تُستلذ. فيقطع بها الزمان: من الغناء والمضحكات. . وكل شيء لا اعتبار فيه).









الفهرست

